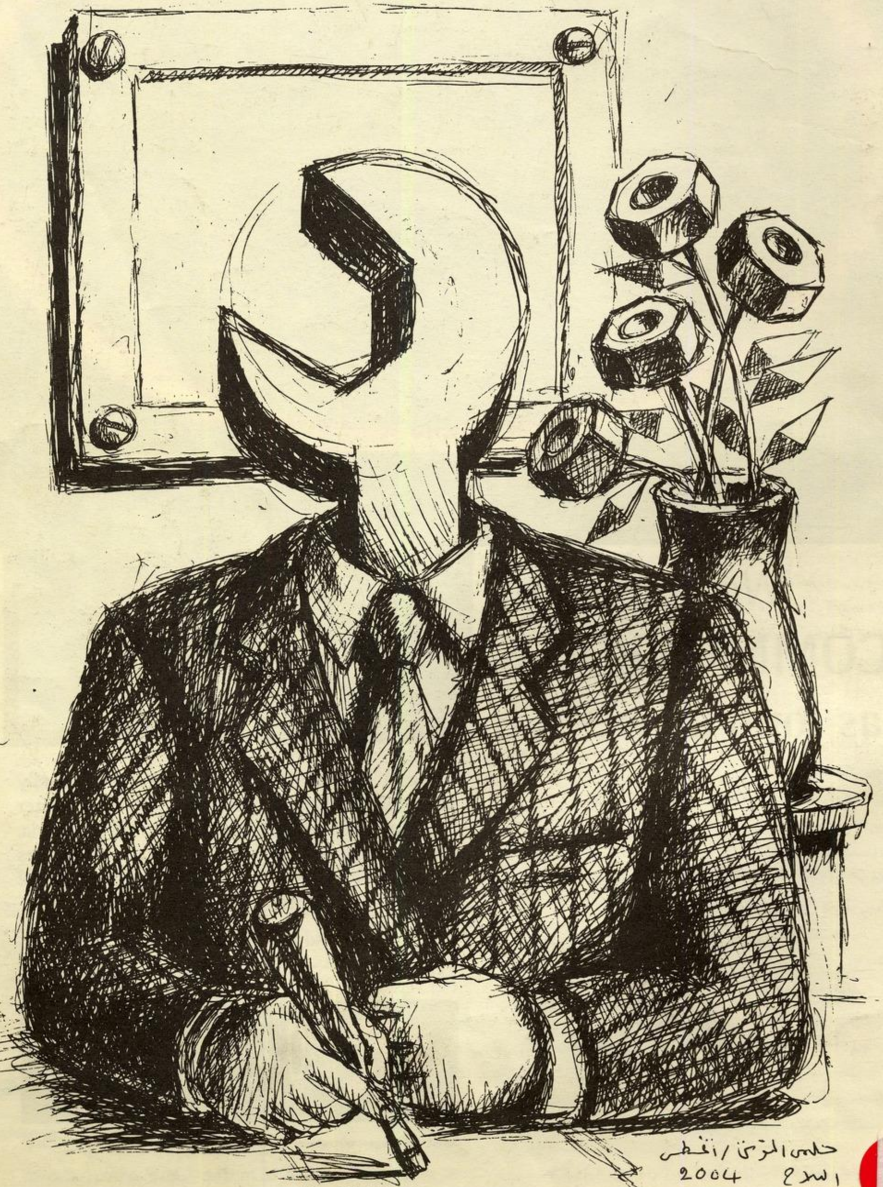
الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 6 - Issue 69 - October 2004

مجلة شهرية . العدد التاسع والستون . السنة السادسة . أكتوبر ٢٠٠٤ . الثمن عشرة جنيهات

عائد من دارفور محمد سليم العوا / **نحن والشمبانزى** أحمد مستجير

البحث عن الحرب البديل يحيى الرخاوى / **أسئلة هيكل** أيمن الصياد



Per.
306.08
027

السـنـة السادسـة
العـدد التاسع والسـتون
أكـتـوبـر ٢٠٠٤

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحـمـد الزيـادى
البحوث والمتابعة
هـديـل غنيـم

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبـراهيـم المعـلـم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

حقوق نشر جميع المواد والرسوم محفوظة

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد مستجير.. أستاذ بكلية الزراعة جامعة القاهرة
- إلياس عطا الله.. محاضر جامعى من فلسطين
- أيمن الصياد.. صحفى
- برونو رونفارد.. باحث مهتم بالفنون التشكيلية
- بيل ماكيبين.. كاتب أمريكى مهتم بشئون البيئة
- جون بيلجر.. صحفى بريطانى
- صالح محمد النعامى.. صحفى من فلسطين
- صبرى حافظ.. أستاذ الأدب العربى الحديث بجامعة لندن
- صفوت الزيات.. محلل عسكرى
- عبد العليم الأبيض.. المستشار الإعلامى المصرى فى واشنطن سابقا
- محمد سليم العوا.. أمين عام الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين
- والتر ترنس ستيس.. فيلسوف بريطانى (١٨٨٦ ـ ١٩٧٦)
- وليد عبد الناصر.. دبلوماسى مصرى
- يحيى الرخاوى.. أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجى ـ سعد الدين شحاتة

يحظر النسخ أو الطبع أو التصوير على دعامات ورقية أو عبر الحاسبات لكل أو بعض المقالات المنشورة أو أجزاء منها، بغير إذن كتابى مسبق من الناشر.

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٢ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٢٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

«« تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة »»

عـــــائـــــد مـــــن

محمــد سـلـيم العــواً



فى العدد الماضى، ناقشت «وجهات نظر» الوضع فى دارفور فى مقالين: الأول للدكتور حسن مكى ربط فيه ما يجرى فى الإقليم بالسياق العام للأزمة التى يعيشها السودان بينما تناول أليكس دى وال فى الثانى التفاعلات التى حدثت فى دارفور ووصلت بالوضع إلى ما هو عليه حاليًا..

كثيرون ـ على اختلاف انتماءاتهم وتوجهاتهم فكريًا ومهنيًا ـ ذهبوا إلى هناك، رسميون وصحفيون ورجال إغاثة.. وعادوا جميعًا بقصص كثيرة. د. العوا ذهب وعاد برواية مختلفة.

«المحــرر»

■ منذ بداية هذا العام (٢٠٠٤) يتابع العالم كله سلسلة من المعلومات المكذوبة، أو المبالغ فيها مبالغة هائلة، حول النزاع القائم فى دارفور، وآثاره الإنسانية، وأسبابه الحقيقية أو المزعومة.

وقد توجهت بعثات من مناطق شتى من العالم إلى دارفور أو إلى السودان، دون أن تعنى نفسها بالذهاب إلى دارفور، ونقلت إلى وسائل الإعلام تلك المعلومات الخاطئة، أو المكذوبة عمداً، أو سكتت عن نفيها بعد أن تيقنت من عدم صحتها، فشاركت بذلك فى شيوع الصورة غير الصحيحة عما يجرى فى تلك المنطقة من العالم.

الصورة الشائعة تقول: إن الصراع فى دارفور هو صراع عرقى بين القبائل العربية والقبائل الإفريقية؛ وإن القبائل العربية تمارس إبادة جماعية أو تطهيراً عرقياً ضد القبائل الإفريقية؛ وإن هناك حملات منظمة للاغتصاب الجماعى للنساء على مرأى من الرجال (!)؛ وإن الحكومة السودانية ضالعة فى ارتكاب هذه الجرائم، أو التستر عليها بغض الطرف عنها، لأن الذين يرتكبونها هم فرق من ميليشيات الجنجويد الذين تسلحهم الحكومة، وهم ينتمون إلى القبائل العربية؛ وإن ضحايا هذا الصراع المسلح جاوزوا الخمسين ألف قتيل وملايين اللاجئين والنازحين والمشردين (لكل لفظ مدلوله الخاص فى القانون الدولى الإنسانى) فأصبحنا أمام أسوأ كارثة إنسانية فى التاريخ (!)

الإعلام الغربى يسوق هذه الصورة، والإعلام العربى، القابع فى جحر الضب، يروجها مجاناً، ومجلس الأمن اتخذ حتى الآن (سبتمبر ٢٠٠٤) قرارين ضد السودان وقد يكون القرار الثالث فى الطريق!

والناس، الذين ليس لديهم مصدر آخر للمعرفة، يصدقون هذه الصورة الشائعة، أو يقفون أمامها حائرين لا يملكون تصديقاً ولا تكذيباً.

ولا يستطيع المرء أن يقف على حقائق الحال فى دارفور دون أن يتعرف على تكوينها السكانى، وموقعها الجغرافى، وتاريخها الثقافى، والثروات التى تختزنها أرضها وعلاقتها الحالية والتاريخية بالمركز (الخرطوم/ حكومة السودان)، والقوى التى تغذى الصراع الدائر على أرضها وتلك التى تظن أنها قد تستفيد منه.

وهذا الحديث، بتفصيلاته وأسانيدها، لا يحتمله المقام هنا، لكن الإجمال قد يكفى لإيقاف القارئ على حقيقة الواقع التى تخالف كل المخالفة الصورة الشائعة التى يتلقاها الناس فى بلادنا بين مصدق وحائر.

عندما أصبحت دارفور هى الخبر الأول فى نشرات الأنباء والعنوان الرئيس فى الصحافة العالمية والعربية، رأى اتحاد العلماء المسلمين أنه لابد أن يطلع على الحقيقة القائمة هناك، وأن يقدم النصيحة الواجبة شرعاً إلى أهل السودان، وأن يحاول جهده الإصلاح بين المتنازعين أداء لواجبه باعتباره يمثل المرجعية الشعبية الإسلامية العامة، وقياماً بدوره فى تيسير الحوار وممارسته والإقناع به سبيلاً إلى رأب الصدع وتجسير هوة الخلاف وبديلاً عن إراقة الدماء واستباحة الأموال والأوطان. وهذان هما المحوران الرئيسيان اللذان أقرتهما الجمعية العمومية للاتحاد فى اجتماعها التأسيسى المنعقد فى لندن فى ٢٣ جمادى الأولى ١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٤/٧/١١م.

شكل الاتحاد وفداً لزيارة السودان ودارفور من رئيسه، العلامة الدكتور يوسف القرضاوى، وأمينه العام، كاتب هذه السطور، والأستاذ الشيخ المستشار فيصل المولوى، والأستاذ الدكتور على القره داغى عضوى مجلس أمناء الاتحاد ولجنته التنفيذية. ورافق الوفد فى أثناء الزيارة عضو مجلس الأمناء الدكتور عصام البشير وزير الإرشاد والأوقاف فى السودان.

كان الوفد حريصاً منذ تقرر سفره على أن لا يقول كلمته ولا يكوِّن رأيه فيما يجرى فى دارفور إلا بعد أن يقابل ممثلين لجميع الأطراف، ويزور أرض دارفور ويلتقى بأهلها، حتى تكون كلمته معبرة تعبيراً صادقاً عما يطمئن إليه ضمير أعضائه.

وقد وجد الوفد كل ترحيب وعون، من المسئولين فى السودان، لتحقيق هذه الرغبة، ولم يطلب لقاء أحد أو زيارة جهة إلا تمكن من ذلك، حتى الدكتور حسن الترابى زعيم حزب المؤتمر الشعبى، الذى كان آنذاك رهن الإقامة الجبرية، قام أمين عام الاتحاد بزيارته لمدة ثلاث ساعات كاملة لم يقطع خلوتهما فيها أحد.

التقى الوفد برئيس جمهورية السودان الفريق عمر البشير، وبنائبه الأول الشيخ على عثمان طه، وبمستشاريه للشئون السياسية مهدى إبراهيم ولشئون التأصيل الدكتور أحمد على الإمام وللشئون الإفريقية الدكتور على حسن تاج الدين. وكانت هذه اللقاءات كلها لقاءات عمل مكثف لمدد لم تقل عن الساعة، وبلغت أحياناً أكثر من ثلاث ساعات، فضلاً عن الرفقة عدة أيام من الدكتور أحمد على الإمام فى الخرطوم ودارفور.

واجتمع الوفد بالوزراء المعنيين بالمشكلة: وزير الداخلية اللواء الركن عبد الرحيم محمد حسين (وهو مهندس طيار)، وهو المفوض بسلطات رئيس الجمهورية فى دارفور؛ ووزير الشئون الإنسانية السيد إبراهيم محمود حامد، ووزير الخارجية الدكتور مصطفى عثمان إسماعيل، وقيادات أبناء دارفور المقيمين بالخرطوم (حضر اللقاء نحو ٥٠شخصاً)، والمشير عبد الرحمن سوار الذهب رئيس الجمهورية السابق، والأستاذ دفع الله الحاج يوسف رئيس القضاء الأسبق، وعضوات الاتحاد

دار فور



العام للمرأة السودانية (كان اللقاء مخصصاً للعضوات من دارفور)، والقيادات السياسية الموالية للحكومة والمعارضة لها، وأعضاء المجمع الفقهي الإسلامي وأعضاء هيئة علماء السودان، ووالي شمال دارفور، ونائبه، ومدير الشئون الاجتماعية بولاية شمال دارفور وجمع من المسئولين التنفيذيين والسياسيين بالولاية، القيادات السياسية والفكرية وعدد من أساتذة الجامعة ورجال القضاء في دارفور؛ وقام الوفد بزيارة معسكر أبو شوك للاجئين وهو يضم ٤٢ ألف لاجئ وتديره الحكومة السودانية وبعض منظمات الإغاثة التي منها البعثة الطبية العسكرية المصرية، وبعثة الهلال الأحمر السعودي، وبعثة منظمة OXFAM البريطانية الإغاثية، والتقى الوفد بقيادات حزب المؤتمر الشعبي حيث عقد اللقاء في منزل السيد/ ياسين عمر الإمام في أم درمان وحضره السيد/ إبراهيم السنوسي والسيد/ محمد حسن الأمين والسيد/ محمد الأمين خليفة وعدد آخر من قيادات الحزب.

ومن مجموع ما رأى، وقرأ، وسمع، أصدر وفد الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين بياناً وافياً عن الحالة في دارفور، تناول أسباب الأزمة، واقتراحات للوصول إلى حلول ناجعة لها. وقد نشر البيان في عديد من وسائل الإعلام وعلى مواقع متعددة على الشبكة الدولية للمعلومات من أشهرها موقع (إسلام أون لاين. نت).

دارفور وسكانها

دارفور جغرافياً هي غرب السودان، لها حدود مع ليبيا (في الشمال الغربي) ومع تشاد (في الغرب) ومع إفريقيا الوسطى (في الجنوب).

وطبيعتها متنوعة تنوع أهلها ففيها صحاري واسعة، وجبال، ووديان، وأنهار صغيرة، وأراض صخرية ورملية وطينية، وفيها منطقة جبل مرّة التي تتمتع بمناخ البحر الأبيض المتوسط (!) ويصف أهلها بلادهم بأنها «أرض بكر ومية شبر»! وهي غنية بينابيع المياه الطبيعية، وبساتينها تنتج أجمل ثمار بلدان البحر الأبيض المتوسط (ولم ينزح من سكانها أحد).

مساحة دارفور ٥٤٧.٨٠٧ كم٢ أي إنها نحو نصف مساحة مصر، وأكبر من مساحة فرنسا. وهي خمس مساحة السودان أو أكثر قليلاً. وثمانون في المائة من هذه المساحة صالحة للزراعة فوراً (وهي نحو ٤٣.٥٠٠.٠٠٠ فدان بكراً لا تحتاج إلى استصلاح!).

سكانها عددهم أقل من ستة ملايين نسمة.

ثرواتها الطبيعية هي الحديد (نقاوته من ٨٠-٩٠٪) والنحاس (بها منطقة تسمى حفرة النحاس لا يحتاج نحاسها عالي النقاء إلى تعدين لوجوده فوق سطح الأرض!) والبترول (هي المربع رقم ١٢ في تقسيم النفط السوداني وحقولها متاخمة لحقول تشاد الغنية) واليورانيوم، والجير، والصودا وهذه الأخيرة كلها في شمال دارفور.

ثروتها من الإبل والماشية (الأبقار) نحو ٨٨ مليون رأس، أما الأغنام فلا تكاد تحصى (في أحداث محلية كتّم وحدها كانت الخسائر من الأغنام ٢.٢٣٩.٧٣٤) وفي تقدير حكومي لثروة دارفور من الأغنام جاء أنها ٢٨.٩٨٧.٦١٠ رءوس من الضأن والمعز، وهو تقدير تقريبي على كل حال.

ويتوزع أهالي دارفور على ١٨٠ قبيلة منها ٣٠ قبيلة كبيرة والباقي قبائل متوسطة أو صغيرة. والجميع يتكلمون اللغة العربية، ويفخرون بفصاحة ألسنتهم وبلاغتهم؛ وبعض القبائل ذات الأصول الإفريقية ليس لها لغة غير العربية، والقبائل التي لها لغة تتكلم بها فيما بينها كما لو كانت لهجة محلية لا لغة بالمعنى الكامل للغة.

ووصف القبائل بأنها «عربية» أو «إفريقية» ليس وصفاً دالاً على نقاء عرقي أو صفاء وراثي لكل جنس من الجنسين: العرب والأفارقة، وإنما هو وصف أغلبي يرجع إلى الأصول التي تنتمي إليها القبيلة، أو إلى وجود لغة محلية خاصة بها حافظت على بعض خصائص ومفردات لغتها الأصلية قبل تحولها إلى اللغة العربية. ذلك أن القبائل قد امتزجت على مر التاريخ امتزاجاً لم يعد أحد معه يستطيع التفرقة بين العربي والإفريقي من أهل تلك البلاد. ولذلك سماها الرحالة محمد بن عمر التونسي (ت ١٨٥٧ في القاهرة) بلاد «العرب والسودان» لاختلاطهما معاً اختلاطاً جعلهما شعباً واحداً (تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٥ بتحقيق خليل عساكر ومصطفى سعد).

وقد زار العلامة الأستاذ إحسان عباس، رحمه الله، دارفور، في إحدى زياراته للسودان، فسمع امرأة من قبيلة الزغاوة تقول لابنتها: «أسرعي هذي المُزْنة إن هطلت سيرنا يتعطل» فقال إحسان عباس لمرافقيه: هذه المرأة الزغاوية أفصح من أهل الخرطوم!

والعرب لا ينظرون إلى العروبة على أنها عرق أو جنس، لكنهم يرون أن العروبة لسان، فمن تكلّم العربية فهو عربي، ومع أن المحدثين والفقهاء يضعفون الحديث المروي في هذا الخصوص فإنهم يقولون: «إن معناه ليس ببعيد، بل هو صحيح من بعض الوجوه» (ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ط١ محمد حامد الفقي، القاهرة، ١٩٥٠ ص ١٦٩). وابن تيمية نفسه يقرر أن «العرب» اسم لأقوام منهم «ما غلب على أهله لسان العرب مع ما دخل لسان العرب من اللحن، وإن كان لهم لسان غيره» (ص١٦٦). وهذا هو حال سكان دارفور، فالعربية لسانهم كافة، وإن كان بعضهم يعرف غير لسان العرب. ولست بذلك أنفي عن ذوي الأصول الإفريقية أصولهم الثابتة لهم، وإنما أقرر أن العروبة وسعتهم كما وسعت سواهم من أهل الأمصار التي تعربت بعد أن لم تكن عربية ولا كان أهلها عرباً، وهي التي يسميها ابن تيمية «البقاع العربية انتقالاً» أي التي انتقلت إلى العربية، ويدخل فيها مصر والشام والعراق والأندلس، وأرض فارس وخراسان قديماً. والناس، في كل تلك البلاد، فيهم من لا يزال يحتفظ بنسبه الضارب في القدم إلى آباء أو قبائل وجدوا ووجدت قبل أن تعرف العربية طريقها إلى ديارهم، ولا ينفي هذا الانتساب عروبتهم ولا يقدح فيها.

ومن طرائف التركيب السكاني لدارفور أن «الزغاوة» التي هي أكبر القبائل الإفريقية، بعد الفور، قد وفدت أصلاً من ليبيا، وأدى اختلاط العرب والوافدين بالأفارقة أهل البلاد الأصليين إلى ظهور طبقة «الكنجارا» التي حكمت دارفور (سلطنة الفور) منذ القرن السابع عشر حتى نهاية حكم السلطان علي دينار في نوفمبر سنة ١٩١٦م.

وأهل دارفور كلهم مسلمون، وتاريخ الإسلام في بلادهم يبدأ من القرن الثالث عشر الميلادي أو قبله، وكلهم يتبعون المذهب المالكي، وكلهم يقرأون القرآن الكريم بقراءة (ورش)، وكلهم ينتمون إلى الطريقة الصوفية التيجانية. ولفظ كلهم في الجمل السابقة حقيقي لا مجازي(!) ولذلك فالوحدة السكانية في دارفور أعلى منها في أماكن أخرى كثيرة من السودان، بل من العالم العربي والإسلامي قاطبة.

ولا يستطيع أحد أن يفرق بين ذي الأصل العربي وذي الأصل الإفريقي من أهل دارفور بالنظر إلى الملامح أو الصفات الجسمية. وعندما كرر كولن باول وزير الخارجية الأمريكي الكلام عن الصراع العرقي في زيارته لدارفور، طلب منه الوالي أن يتعرف على من هو عربي ومن هو إفريقي، فأخطأ في تحديد هوية كل من حاول التعرف على أصله القبلي: من ظنه منهم عربياً تبين أنه إفريقي ومن ظنه إفريقياً تبين أنه عربي(!) وأبدى كثير من الأجانب الذين زاروا دارفور تعجبهم من أن اللغة العربية هي لغة الجميع وأن الفارق الوحيد بين العربي وغير العربي هو ما يقوله كل منهم عن انتمائه القبلي!

يحق للقارئ بعد أن وقف على الحقائق التي أسلفت بيانها عن المكان والإنسان واللغة والدين في دارفور أن يتساءل مع أمير الشعراء:

إلام الخلف بينكم إلاما؟

وهذي الضجة الكبرى علاما؟!

وهو السؤال عن الأزمة الحالية: ما حقيقة أسبابها وما الواقع فيها؟

سكان دارفور ينقسمون إلى مزارعين ورعاة. رعاة



مساحة دارفور ٥٤٧,٨٠٧ كم أى إنها نحو نصف مساحة مصر، وأكبر من مساحة فرنسا. وهى خمس مساحة السودان أو أكثر قليلاً. وثمانون فى المائة من هذه المساحة صالحة للزراعة فوراً

يرعون الإبل (الأبالة) أو يرعون البقر (البقارة). والجميع يمتلكون مع الإبل والبقر كميات هائلة من الأغنام.

والرعى يقتضى التنقل وراء العشب والكلأ والماء، ورحلة الرعاة تتجه عادة من الشمال إلى الجنوب ثم تعود من الجنوب إلى الشمال سالكة طرقاً قديمة محددة منذ عهد حكومات السلاطين الذى انتهى سنة ١٩١٦ تسمى (المراحيل) ومفردها (مرحال) وهو طريق يتسع بعرض من ١٠ إلى ١٥ كم ويضيق فى بعض المواضع حتى يبلغ عدة مئات من الأمتار. وعلى مسافات متفاوتة توجد فى كل مرحال أماكن واسعة (ميادين) لراحة الرعاة وإبلهم أو أبقارهم (يسمون الواحد منها صينية ويجمعونها على صوانى). وعلى جانبى كل مرحال توجد أراضى المزارعين، وقريب منها قراهم وبيوتهم.

وفى أحوال سخاء الماء لم تكن تجرى أية مشكلة بسبب المرعى أو النزول للراحة فى أثنائه فى الصوانى المخصصة لذلك. ولكن الجفاف الذى أصاب إفريقيا، وخص السودان بنصيب كبير منه، منذ أواسط السبعينيات حتى أواسط الثمانينيات أدى إلى أن تبدأ رحلات الرعاة من الشمال إلى الجنوب مبكرة عن مواعيدها المعتادة، وقل العشب فى الأرض (أرض المرحال) فأكلت الإبل والأبقار زروع المزارعين فى بعض الأراضى، وأراد المزارعون الانتقام فحرقوا ما فى الأرض من عشب وكلأ نكاية فى الرعاة وماشيتهم، أو وسعوا نطاق زراعاتهم أو الأراضى المحجوزة للزراعة اقتطاعاً من أرض المراحيل، وتوالى الفعل ورد الفعل حتى ترتب على ذلك نزاعات كثيرة وقع فيها قتلى من العرب والأفارقة وعقدت الحكومة لتسويتها نحو (١٥) مؤتمرا للصلح بين المتنازعين انتهت كلها بتسوية النزاع وسداد ديات القتلى. وفى سنة ٢٠٠١ وقع نزاع بين قبيلة الزغاوة (الإفريقية) وقبيلة أبناء زيد (العربية) قتل فيه من الزغاوة ٧٦ رجلاً، واتفق على الصلح، وحددت قيم الديات، لكنها لم تدفع فى المواعيد المحددة لذلك، وكان المتفق عليه أن تدفعها الحكومة السودانية، فلم يرض ذلك شباب الزغاوة، واعتقلوا زعماءهم الذين عقدوا الصلح وبدأ التمرد. وأعقبت ذلك حادثة قتل فيها بعض العرب فى منطقة جبال مرة فنشب صراع مسلح بين العرب والفور فى تلك المنطقة... وهكذا توالت النزاعات المسلحة التى سببها أصلاً الخلاف على الماء والعشب.

وللأرض دور فى النزاع بين القبائل الإفريقية بعضها وبعض. فالأرض فى دارفور مقسمة بأوامر سلطانية (من عهد السلطنات الإسلامية) وموزعة على القبائل، لكل قبيلة (حاكورة) أى أرض خاصة بها لا يشاركها فيها سواها، فلما ضرب الجفاف إفريقيا نزحت قبائل من تشاد وإفريقيا الوسطى إلى دارفور (حيث أبناء عمومتهم من القبيلة نفسها: فالزغاوة مثلاً ثلثهم فى دارفور وثلثاهم فى تشاد) وكان طبيعياً أن يقبل أهل البلاد . أصحاب الحاكورات . هؤلاء الوافدين ضيوفاً مؤقتين، فلما طالت سنوات الجفاف وتحولت الضيافة إلى إقامة أثار ذلك منازعات بين الطرفين وقع فيها قتلى ونشأت بسببها ثارات!

والرعى والزراعة يتقاسمهما العرب والأفارقة، فأغلبية العرب رعاة ومنهم مزارعون وأغلب الأفارقة مزارعون ومنهم رعاة. وللمزارعين ديارهم وحواكيرهم وللرعاة ديارهم وحواكيرهم كذلك. لذلك تداخلت القبلية مع الصراع الرعوى/ الزراعى، وتسبب تقصير الحكومة فى تنامى حركة الرفض التى استغلتها حركتا التمرد المسلح الرئيسيتان «حركة العدل والمساواة» و«حركة تحرير السودان». الأولى زعامتها لبعض عناصر حزب المؤتمر الشعبى (على رأسهم خليل إبراهيم الذى كان وزيراً فى حكومة الإنقاذ!) والثانية زعامتها لبعض اليساريين (على رأسهم أحمد إبراهيم على دريج، واسم دريج ليس عربياً ولا إفريقياً ولكنه اسم مفتش فى الجيش البريطانى كان يعمل فى «زالنجيا»، وهى قرية أحمد إبراهيم على، فلما ولد أحمد أعطاه أبوه اسم هذا المفتش الإنجليزى! وقد حدثنى بذلك المؤرخ الثقة مولانا جبريل عبد الله على فى أثناء زيارتنا لمعسكر أبو شوك ظهر يوم الاثنين ٢٠٠٤/٩/٦).

وهذه الحركة «حركة تحرير السودان» هى محاولة لبعث الصلة التى أراد جون جارانج إنشاءها بين حركته «جيش تحرير السودان» وبين دارفور عندما بعث قوة من نحو ستة آلاف جندى بقيادة داوود يحيى بولاد (من قبيلة الفور وكان أحد المنتمين للحركة الإسلامية وانضم إلى الفريق الذى كون حزب المؤتمر الشعبى بعد خلاف الدكتور حسن الترابى مع الحكومة) فأبيد هذا الجيش عن آخره لأن أهل دارفور أبوا أن يدخل عليهم جيش فاتح من الجنوب مراهنا على خلافاتهم حول المرعى والماء ليوقع بينهم وبين إخوانهم الحاكمين فى الخرطوم، وقاتل ضد هذا الجيش قبيلة قائده نفسها (قبيلة الفور) وسائر القبائل الإفريقية الأصل كالزغاوة والمساليت وغيرها (حسن مكى، دارفور.. من أشعل الحريق؟، وجهات نظر، العدد ٦٨، سبتمبر ٢٠٠٤ ص ١٦).

وقيام الحركات المسلحة كان يسيراً، وكذلك تسليح الأفراد. وأهل المنطقة من قديم، يعتبرون السلاح ضرورة، لكنه كان السلاح التقليدى من مثل السيف والرمح والحربة وما إليها، فلما كثرت النزاعات المسلحة فى دول الجوار، وتوالت الانقلابات العسكرية ما نجح منها وما أخفق فى تشاد وأفريقيا الوسطى، كانت دارفور هى ملجأ الفارين من أولئك الانقلابيين، وكان أكثرهم يبيع السلاح بأثمان رخيصة حتى أصبح المثل السائر بين أهل دارفور (بندقية بجلابية)! والسلاح عندما يفشو فى أيدى الناس يسهل استعماله، ويتقوى به حاملوه على غيرهم. وهؤلاء يحتاجون للدفاع عن أنفسهم إلى سلاح يواجهه، وهكذا تتسع الحلقة الشيطانية وينشأ العنف والعنف المضاد له... وكان واجبًا على الحكومة السودانية أن تنتبه لهذه المخاطر منذ بدايتها، لكنها لم تفعل بل إنها لم تتدخل لحفظ الأمن إلا فى ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٣ واستطاعت بنهاية يناير ٢٠٠٤ أن تقضى على التمرد المسلح وتستعيد سيطرتها على المدن التى كانت فى يد الحركتين المسلحتين. وفى أثناء هذه المحاولة لاستعادة سلطة الدولة حدث حرق القرى، وحدثت المصادمات العسكرية التى كان ضحاياها من غير المقاتلين أكثر من ضحاياها من المقاتلين(!) وحدثت المأساة الإنسانية الحالية التى هى أكبر بكثير من مشكلة القتلى من الفرقاء جميعاً. فعدد القتلى منذ عام ٢٠٠٠ حتى الآن لم يتجاوز خمسة آلاف قتيل بينما عدد اللاجئين والنازحين والمشردين فى السودان وخارجه يبلغ نحو مليون ومائة ألف شخص منهم ٢٥٠ ألفاً فى تشاد والباقون داخل ولايات دارفور الثلاث وهم موزعون على نحو عشرين مخيماً أكثرها كثافة ما تديره الحكومة السودانية. وهذه الحقيقة وحدها ترد على المزاعم القائلة إن القوات الحكومية، والموالية لها، هى التى ارتكبت مجازر ضد السكان وأحرقت قراهم، إذ لو كان الأمر كذلك ما لجأ إلى مخيمات الحكومة أحد.

الماء والعشب والكلأ والأرض هى، إذن . أصل النزاعات التى تحولت إلى حروب. والمنافسة السياسية الإسلامية . الإسلامية، والجنوبية . الشمالية من ناحية، والثروات المغرية بالتدخل الأجنبى من ناحية أخرى، هى العوامل المساعدة على استمرار النزاع، وإطالة أمده والتشجيع على حمل السلاح وتيسيره لمن أراد. فأين التطهير العرقى،



عندما كرر كولن باول وزير الخارجية الأمريكى الكلام عن الصراع العرقى فى زيارته لدارفــور، طلب منــه الوالى أن يتعــرف علـى مــن هو عربى ومن هو إفريقى، فأخطأ فى تحديد هوية كل من حاول التعرف على أصله القبلى

والإبادة الجماعية والجرائم ضد الإنسانية من ذلك كله؟

التطهير العرقى جريمة تفترض أن قوماً ينتسبون إلى أصل واحد. حقيقى أو مزعوم. يسعون إلى إبادة قوم آخرين. وليس فى دارفور. بل ربما ليس فى السودان كله. من يزعم أنه من عرق متفرد نقى لم يختلط بغيره من الأعراق والأصول. إن قادة الجماعات المسلحة أنفسهم من أصول يختلط فيها العربى بالإفريقى، وبعضهم وهو من أصل إفريقى (مثل خليل إبراهيم رئيس حركة العدل والمساواة) زوجته عربية، والعكس صحيح.

والقتلى الذين يصلون إلى نحو خمسة آلاف، أو أقل قليلاً، هم من القبائل كافة العربية والإفريقية سواء بسواء. واللاجئون والنازحون والمشردون تتوزعهم القبائل العربية والإفريقية بلا تمييز. والقرى التى أحرقت والأموال التى أتلفت يملكها عرب وأفارقة فالنار حين تسرى فى الأرض لا تميز بين بيت عربى وبيت إفريقى ولا بين غنم أو إبل أصل صاحبها من العرب وأخرى أصل صاحبها من الأفارقة.

والمضرور الأكبر كان نفوذ الحكومة السودانية وسلطانها وهيبتها: فقد دُمِّر أكثر من ثمانين مركز للشرطة وذبح من كان فيها من ضباط وجنود، وهوجم مطار الفاشر وأحرقت فيه سبع طائرات عسكرية وذبح فى هذا الهجوم أكثر من سبعين جندى وضابط وأسر قائد الطيران السودانى الذى تصادف وجوده فى مطار الفاشر، ودمرت مبانى المحاكم والمدارس والمستشفيات... فهل كان من فعلوا ذلك يمارسون تطهيراً عرقياً ضد الحكومة؟!

إن التطهير العرقى الذى تتحدث عنه وسائل الإعلام الغربية والصهيونية ليس إلا أكذوبة كبرى لا أصل لها فى الحالة السودانية ابتداءً، إذ ليس هناك عرق ضد عرق، وإنما هناك نزاع على الماء والأرض والعشب، وغياب حكومى طال أمده، وإهمال للتنمية مكافئ لإهمال سائر المناطق فى السودان. وإن شئت قلت فى إفريقيا وآسيا أيضاً. استغلته عناصر ثائرة عليه، وعلى طول أمده، وحاولت. ولا تزال تحاول. استثماره القوى السياسية الطامعة فى السيطرة على السودان كله وثرواته جميعاً. من الداخل والخارج، أحدهما يعضد الآخر، وعين كل منهما على مصالحه الحقيقية أو المتوهمة، وأذنه تصغى لوعود وعهود أكثرها لن يصدق حين تحين ساعة اقتسام الغنيمة التى يستأثر بها، بعد كل صراع، الأقوى وحده دون سواه.

والإبادة الجماعية تهمة أو هى من تهمة التطهير العرقى، وهو أمر تثبته أعداد القتلى من أهل دارفور. فليس هناك أغلبية ولا أقلية فيمن لقوا مصرعهم فى أثناء النزاعات المسلحة هناك، وليس هناك قتل على الهوية كما حدث فى حروب أهلية إفريقية وعربية معاصرة، وليس هناك فريق بيده السلاح وفريق أعزل، وما يسمى بالميليشيات المسلحة موجود لدى كل القبائل، فالفور مسلحوهم يطلق عليهم اسم (تورابورا) لأنهم يتحصنون فى منطقة جبل مُرَّة وهى سلسلة جبال متفاوتة ارتفاعاً ووعورة فشبههم أهل دارفور بمقاتلى جبال تورابورا الأفغانية (!) والزغاوة والمساليت، المقيمون فى منطقة الكابكابية أسفل جبل مُرَّة، مسلحوهم يطلق عليهم اسم (البشمركة) وهو اسم الفدائيين الأكراد فى العراق (!) وهؤلاء المسلحون كان توجههم الأصلى إلى حماية ديارهم وقراهم، والانتقام ممن بدأوا الاعتداء عليهم. فليس هناك إبادة منظمة لأحد حتى يقال إن الذى يجرى فى دارفور يصل إلى حد الإبادة الجماعية التى تزعم وجود أدلة عليها (لم تقدم دليلاً واحداً منها) الولايات المتحدة الأمريكية، ومنظمة العفو الدولية، ومنظمة هيومان رايتس واتش وغيرها من المنظمات والجهات الإعلامية الغربية.

هل قام الجنجويد بعمليات إبادة جماعية أو تطهير عرقى؟

لعل كلمة الجنجويد، التى دخلت كل لغات العالم بعد أزمة دارفور، هى أخطر الكلمات تأثيراً فى نفوس السامعين والمشاهدين والقراء لأى خبر عن دارفور والسودان منذ سنة ٢٠٠٣ حتى اليوم. فما معنى هذه الكلمة؟ ومن هم الجنجويد أساساً؟

الجنجويد كلمة مركبة من كلمتى «جن» و«جواد». وهى كلمة إفريقية وفدت من لغات غرب إفريقيا المحلية إلى لغة أهل دارفور العربية بمعنى جنٍ يركب جواداً، وتطور معناها بعد الصراع المسلح فى دارفور ليتضمن حمل راكب الجواد سلاحاً آلياً، لأنه فى الماضى كان يحمل سيفاً أو رمحاً أو حربة.

وهذا الجن راكب الجواد هو لص يتكسب عيشه من قطع الطريق على المسافرين وقوافل التجار. وهو قد يكون عربياً وقد يكون إفريقياً إذ لا يخلو قوم من اللصوص ولا تخلو بادية من قطاع طريق. وهؤلاء لا يسير الواحد منهم عادة وحده لكنهم يكونون فى رفقة يسطون على القوافل أو المسافرين أو أهل القرى ويقتسمون المال المسروق معاً. وقد يكون لهم قائد أو زعيم (هو الذى نسميه فى اللغة العامية المصرية شيخ منسر) وقد يختلفون بعد الغنيمة أو الهزيمة فيقتتلون أو يتفرقون، وهم أشبه ما يكونون بصعاليك العرب فى الجاهلية الذين كانوا يطردون من قبائلهم أو يهجرونها فيتخذون النهب وسيلة للعيش.

ففى العرب جنجويد وفى الأفارقة جنجويد، وجماعاتهم قد يختلط فيها العرب بالأفارقة لأن الذى يجمعهم ليس العرق أو الانتماء القبلى وإنما السطو والنهب واستقواء بعضهم ببعض دون نظر إلى نسب أو أصل أو قرابة.

وعندما زارت بعثة رؤساء منظمات الأمم المتحدة دارفور وتحدث أحد الأجانب هناك عن الجنجويد وأن خطورتهم كبيرة لأنهم يركبون جواداً أو جملاً ويحملون سلاحاً آلياً، سأله رئيس إحدى المنظمات عن المسلحين الآخرين ماذا يركبون؟ فقال له إنهم يركبون سيارات جيب و GMC ويضعون عليها مدافعهم وسلاحهم!

ولا شك أن النهب يكثر فى أوقات الصراع المسلح، وفى غيبة السلطة القوية المسيطرة، ومن هنا كان نشاط الجنجويد ملحوظاً فى السنين الثلاث الأخيرة فى دارفور. لكنهم. من ناحية أخرى. ساهموا فى منع حملة السلاح من المنتمين إلى الحركتين السياسيتين فى حالات كثيرة من دخول القرى وترويع أهلها لحملهم على اللجوء أو النزوح طلباً لاتساع نطاق المأساة الإنسانية لحمل المجتمع الدولى. والولايات المتحدة خاصة. على تدخل عسكرى فى السودان تظنه هاتان الحركتان سيكون محققاً لمصالحهما أو لمطامعهما!

ولم يستطع وفد الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين أن يقف على دليل أو شبهة دليل على أن الحكومة السودانية سلحت الجنجويد أو استعانت بهم فى حربها ضد الحركتين السياسيتين المسلحتين فى دارفور. لكن الحكومة استنفرت (عبأت) المتطوعين من الجيش الشعبى، واستجاب لهذه التعبئة أعداد كبيرة من شباب القبائل العربية والإفريقية معاً فى ولايات دارفور الثلاث، وهذه هى القوة التى ساعدت الجيش النظامى فى استرداد سيطرة الدولة على مدن دارفور ما بين ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٣ ونهاية يناير ٢٠٠٤. وقد سُرِّح ٨٠٪ من هؤلاء واستردت القوات النظامية



ما كان بأيديهم من سلاح. وانضم الباقون إلى القوات النظامية لحفظ الأمن فى مختلف أنحاء دارفور.

فلا الجنجويد جماعة مسلحة منظمة ذات قيادة، ولا الحكومة سلحتهم واستعانت بهم ضد الأفارقة، وإنما هى كلمة ذات وقع خاص استعملت لتأكيد مزاعم ضلوع الحكومة فى التطهير العرقى والإبادة الجماعية اللذين لم يقعا أصلاً.

القتلى الذين يصلون إلى نحـو خمسة آلاف، هم من القبائل كافة، العربية والإفريقيـة سـواء بسـواء. واللاجئون والنازحون والمشـردون تتوزعهم القبـائل العربية والإفريقية بلا تمييز. والقرى التى أحرقت والأموال التى أتلفت يملكها عرب وأفارقة

هل عانت نساء دارفور من اغتصاب جماعى؟

تلك كانت التهمة الثالثة التى أريد من إشاعتها تسويغ التدخل الدولى العسكرى فى السودان بزعم حماية نساء دارفور من قوات الحكومة.

سألنا أول من قابلناه فى الخرطوم عن هذه التهمة فنفاها نفياً قاطعا، وقال إنها شائعات تروجها جهات معادية للحكومة السودانية، وللصورة العربية للسودان الإفريقى، وإنها ليس لها فى الواقع أصل البتة، وإنها تنافى أخلاق أهل دارفور وأهل السودان عامة.

وتكرر النفى من الجميع، الحكومة والمعارضة، إلا رجلين اثنين رددا أمام وفد اتحاد العلماء ما كنا قرأناه وسمعناه عن الاغتصاب الجماعى، والاغتصاب الذى أدى على حمل أربعمائة امرأة دارفورية نقلتهم الطائرات العسكرية إلى الخرطوم ليضعن فيها حملهن(!)

عندما ذهبنا إلى دارفور سألت الشرتاى (لقب قبلى قديم يعنى فى العرف الحالى نائب رئيس القبيلة وكان فى أصله، كما قال ابن عمر التونسى، يعنى ملكاً على مملكة صغيرة تتبع نائب السلطان فى أرض الزغاوة) إبراهيم عبد الله نائب والى شمال دارفور عن مسألة الاغتصاب، فتأفف من السؤال فلما ألححت عليه قال لى: هل تقولون إن أهل دارفور زنوا بنسائها؟ واستعاذ بالله من أن يكون ذلك قد حدث على أية صورة من الصور ونفاه نفياً قاطعاً.

فى معسكر أبو شوك للنازحين سمعت النفى نفسه من العاملات فى المعسكر وبعض المقيمات فيه ممن يشرفن على خيام التعليم (١٥٠ خيمة كل خيمة هى فصل دراسى لسن متقارب).

فى لقاء على الغداء بدار الوالى لقيت رئيس المحكمة الجنائية العامة (محكمة جنايات شمال دارفور)، الأستاذ صلاح الدين سر الختم على، وبحكم الصلة المهنية سألته عن جرائم الاغتصاب فقال لى إنه لم يبلغ إلا عن جريمتين فقط وقعتا منذ بدء الأحداث فى يونيو ٢٠٠٣ حتى الآن. الأولى، ارتكبها مراهقان (١٩و١٨سنة) والمجنى عليها فتاة سنها نحو ١٤ سنة وقد قدم الفتيان للمحاكمة وطبق القانون عليهما. ولم يكن لديه معلومات تفصيلية عن هذه الواقعة لأنها لم تكن فى نطاق اختصاص محكمته. والثانية، هى القضية رقم ٢٣٤٦ لسنة ٢٠٠٤ وأحداثها ضبطت فى ٩/٨/٢٠٠٤ فى القسم الأوسط من مدينة الفاشر، والمتهمون فيها ثلاث نسوة وأربعة رجال اعترفوا أمام القاضى نفسه بأنهم استئجروا من قبل إحدى الحركتين المسلحتين لتصوير فيلم جنسى يبدو الرجال فيه مرتدين زياً عسكرياً وكأنهم يغتصبون النساء لكى يسرب الفيلم إلى خارج السودان لتأييد المزاعم القائلة إن القوات النظامية الحكومية تمارس اغتصاباً جماعياً، ودفع المحرضون لكل واحد من الجناة السبعة نصف مليون دينار سودانى (= ٢٠٠ دولار أمريكى!) وقد جرت هذه الواقعة فى مدينة مليط التى تقع على بعد ٤٥ كم شمال مدينة الفاشر. وقد كتب لى القاضى صلاح الدين سر الختم بيانات الدعوى وأسماء المتهمين فيها وخلاصة اعترافاتهم فيها بخط يده واحتفظت بها لدى ودونت منها ما ذكرته آنفاً.

تهاوت بذلك قصة الاغتصاب، وإن بقى فى النفس شىء يتعلق بما قاله الرجلان الوحيدان اللذان تحدثا عنه من خجل النساء من ذكر مثل تلك الوقائع. فلما لقيت الأستاذ دفع الله الحاج يوسف، الذى تفضل فزار وفد اتحاد العلماء فى مكان إقامته بفندق هيلتون سألته. وهو القاضى العادل. عن قضية الاغتصاب فأخبرنى أنه بصفته رئيس لجنة تقصى الحقائق التى شكلتها الحكومة بمقتضى قانون لجان التحقيق لسنة ١٩٥٤ حاول الوقوف على حقيقة هذه التهمة فانتدب لذلك لجنة نسائية ترأسها قاضية فى المحكمة العليا، وتضم طبيبة وضابطة شرطة ومستشارة اجتماعية، وزارت هذه اللجنة ولايات دارفور الثلاث وجميع معسكرات النازحين واللاجئين فى جميع الأنحاء، واستمعت إلى مندوبى لجان الإغاثة دون حضور مندوب للحكومة، فلم تجد اللجنة أى قرينة. فضلاً عن دليل. على وقوع أى حالة اغتصاب فردى أو جماعى، وقد عرضت اللجنة على مندوبى المنظمات الإغاثية ومن سألتهم من النساء أن يدلوا بشهادتهم مقرونة باليمين، فلم يقدم على ذلك أحد منهم.

فى الليلة نفسها التى حدثنا فيها رئيس القضاء الأسبق دفع الله الحاج يوسف، بهذا الحديث سألت أحد السياسيين السودانيين الحكماء عن مسألة حمل ٤٠٠ امرأة ونقلهن إلى الخرطوم لوضع أطفالهن، فقال لى: إن الأحداث كلها بدأت فى فبراير ٢٠٠٤ بعد نجاح الحكومة فى السيطرة على جميع مدن ولايات دارفور فى نهاية يناير. فهل حملت جميع هؤلاء النسوة فى وقت واحد، وكلهن جاء حملهن مكتملاً بعد أدنى مدة الحمل (٦ أشهر)؟! وأردف قائلاً: فى مصر عندكم مثل يقول «إن كان المتكلم مجنوناً ألا يكون المستمع عاقلاً»؟! قلت له: صدقت، هذه فاتتنى!

الجرائم الثلاث المنسوبة إلى المقاتلين الموالين لحكومة السودان هى فى واقع الأمر افتراءات محضة، لا يقوم على واحدة منها دليل، وقد جاء فى تقرير بعثة منظمة المؤتمر الإسلامى التى شكلها الأمين العام للمنظمة بناء على طلب السيد/ كوفى أنان الأمين العام للأمم المتحدة ما نصه: «ولم تجد البعثة أى دليل على وجود أسوأ وضع إنسانى فى العالم، أو أى وجه للمقارنة مهما كان مع الإبادة والتطهير العرقى».

وقال وفد الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين فى بيانه الصادر بعد زيارته لدارفور «... نشرت أخبار عن التطهير العرقى، والإبادة الجماعية، والاغتصاب الجماعى تبين الوفد أنها عارية عن الصحة».

ومع ذلك فإن إعلامنا العربى لا يزال يردد ما تقوله وسائل الإعلام الأجنبية، وتردده الدول الطامعة فى ثروات السودان الهائلة التى يسؤوها أن تقوم فيه حكومة مركزية قوية أو يتماسك نسيجه الاجتماعى بحيث يقوى على مقاومة الضغوط أو رد الاعتداءات.

هـل دارفـور لـهـا قـيـمـة ثـقـافـيـة؟

عن طريق دارفور دخل الإسلام معظم بلدان غرب إفريقيا، ولم تزل دارفور منذ عمها الإسلام تعرف بدارفور القرآن لكثرة ما فيها من حفاظ القرآن الكريم وقرائه، وفى دارفور أكثر من ٢٨٠٠ خلوة لتعليم القرآن (الخلوة = الكتّاب)، واللغة العربية هى اللغة الأصلية فى دارفور لأبنائها كافة، وقد لاحظ بعض من زاروها أن أبناء القبائل الإفريقية يحرصون على البراعة فى تعلم العربية والكتابة بها تقديراً منهم لصلتها بالقرآن الكريم والسنة النبوية. وقد قال لنا أحد أبناء دارفور الذين قابلناهم فى الخرطوم إن جميع مساجد العاصمة السودانية فيها إمام أو مؤذن أو خادم من أهل دارفور، فهؤلاء هم الذين يحافظون على الثقافة العربية القرآنية ليس فى السودان فحسب بل فى إفريقيا جنوب الصحراء كلها.

والوشائج الثقافية بين مصر ودارفور بالغة القوة، فقد كان فى الأزهر رواق خاص لأبناء دارفور، وقد حدثنا الدكتور على

حسن تاج الدين مستشار الرئيس السوداني للشئون الإفريقية (وهو من قبيلة المساليت الدارفورية) بأنه التحق بهذا الرواق سنة ١٩٥٣م. وكان رقم بطاقته فيه ٨٣٢، ومنذ أيام السلطنة الإسلامية فى دارفور كانت هناك رحلة سنوية من دارفور إلى الحرمين الشريفين (مكة والمدينة) تحمل فيها صرة من النقود، ومحمل يسهم فى كسوة الكعبة المشرفة حيث كان ريش النعام وسن الفيل والصمغ، وغيرها من خيرات دارفور، تحمل إلى مصر كل عام فتباع ويكمل بثمنها المال المحمول إلى الحرمين، ويخرج وفد دارفور مع الركب المصرى عبر البحر الأحمر إلى الحج، ولآخر سلاطين الفور السلطان على دينار أوقاف بأرض الحرمين معروفة إلى الآن أشهرها (أبيار على) عند ذى الحليفة على طريق الخارج من المدينة إلى مكة، وهى ميقات أهل المدينة الذى يحرمون منه بالحج والعمرة.

هذا العمق الثقافى الإسلامى - العربى بدارفور يضيف إلى مطامع القوى الدولية الطامعة فيها مطمعاً خاصاً بحصار القلب الإسلامى بتمزيق أوصال أطرافه القريبة بعد أن عزلوه عزلة شبه تامة عن أطرافه البعيدة.

دارفــــور ومــصـــــر:

العلاقة بين مصر ودارفور قديمة جداً، فقد زار القائد الفرعونى (حركوف) دارفور فى رحلة له، وذكر أماكن رآها فى جبل الميدوب وهو إحدى مناطق دارفور المعروفة حتى الآن.

ويربط مصر بدارفور «درب الأربعين» الذى يصل بين دارفور وأسيوط، وهو طريق مستعمل حتى الآن، وقد وصف معالمه ومواضع النزول فيه، وآبار المياه بها الرحالة محمد بن عمر التونسى وصفاً جميلاً (تشحيذ الأذهان، ص ٤١ وما يليها). ولما أراد علماء الحملة الفرنسية وصف قوافل التجارة البرية التى ترد إلى مصر جعلوا أهمها قافلة دارفور التى تصل إلى أسيوط عن طريق درب الأربعين حاملة سن الفيل والتمر هندى وريش النعام والصمغ وغيرها، وكانت هذه القافلة مكونة من نحو عشرة آلاف من الإبل وتصل إلى أسيوط على دفعتين، والقوافل التى كانت تعبر درب الأربعين هى التى أنعشت اقتصاد أسيوط وصنعت منها العاصمة الاقتصادية للصعيد.

وبين مصر ودارفور تاريخ سياسى قديم يبدأ منذ عهد محمد على (سنة ١٨٢١) ويستمر إلى استقلال السودان سنة ١٩٥٦.

ويفخر العلماء الأزهريون من أهل دارفور بصلاتهم العلمية بمصر وأزهرها، بل لقد لقيت من يفخر بأن أباه تخرج فى رواق دارفور بالأزهر الشريف. لذلك كله أقول إن الصديق الدكتور يونان لبيب رزق كان يعبر عن شعور المصريين والسودانيين معاً حين كتب يقول إن «على مصر مسئولية تاريخية تجاه ما يحدث فى هذا الإقليم السودانى، وهى أولى من جميع الأطراف الدولية والإفريقية فى تحمل مسئوليتها عن الأزمة الدارفورية وإصلاح ما أفسدته الحكومات السودانية المتعاقبة» (الأهرام: ٢٠٠٤/٨/٧).

وحديثه عن إفساد الحكومات السودانية المتعاقبة يقودنى إلى ذكر ما قاله السيد/ على عثمان طه النائب الأول للرئيس عمر البشير لوفد اتحاد العلماء، قال: «إن لدينا إخفاقاً نتحمل مسئوليته ويجب استدراكه، ويجب بذل جهد فى الحوار السياسى والعمل الاجتماعى لرأب الصدع وتجديد الثقة بين الناس بعضهم وبعض وبينهم وبين الحكومة، ويجب العمل على تحرير النفوس من الضغائن التى ولدها النزاع المسلح وما قبله من نزاعات المرعى والماء، ونحن نعمل على مضاعفة وتيرة التنمية والخدمات وعلى إعادة الحياة إلى طبيعتها من خلال مشروع العودة الطوعية للنازحين واللاجئين الذى يتضمن تعويض المضرورين. والحكومة مسئولة عن جبر الضرر لمن ثبت أنه تضرر أو تعرض لأذى جنائى، وأضاف الوفد إنها مسئولة أيضاً عن معاقبة من ثبت ارتكابه جريمة مهما يكن وضعه القبلى أو الوظيفى، وذكر ذلك صراحة فى بيانه عن زيارته لدارفور.

وأنا أتطلع إلى التزام الحكومة السودانية بهذه التعهدات التى قطعها أمامنا على نفسه السيد/ على عثمان طه، وإلى الاستجابة للمطالب التنموية العادلة لأهل دارفور، بل لأهل سائر المناطق السودانية، فإن تحقيق التنمية المطلوبة هو العاصم من تكرار ما حدث فى دارفور فى مناطق أخرى من السودان الشقيق مرشحة لمثل أزمة دارفور ترشيحاً شبه مؤكد، وقديما قيل:

أرى تحت الرماد وميض نار
ويوشك أن يكون لها ضرام
لئن لم يطفها عقلاء قوم
يكون وقودها جثث وهام!!

والحكومة السودانية وحدها لا تملك الموارد الضرورية لحل المشكلة التنموية فى جميع أنحاء السودان، لذلك لابد من التعاون العربى والإسلامى، وعلى رأسه التعاون المصرى، فإن ما يستهدف السودان يستهدف مصر: معه وقبله؛ والله أعلم. ■

كتــاب الـزاويــة

حيـــــاتى

عـــلى مبــــارك

على مبارك أحد أركان نهضة مصر العلمية فى العصر الحديث من خلال أعماله وإنجازاته التى لازالت حتى الآن شاهدة على مدى عبقرية هذا العالم والمهندس والمفكر المصرى.

ولد على مبارك فى قرية برنبال بالدقهلية عام ١٢٣٩ هجرية الموافق ١٨٢٢ ميلادية ودرس بمدرسة المهندسخانة وأرسله محمد على والى مصر عام ١٨٤٤ إلى فرنسا للدراسة، وعندما عاد أنعم عليه برتبة يوزباشى وألحقه بالجيش المصرى ثم أوعز إليه الخديو عباس باشا بتنظيم المدارس فى مصر وكان فى أثناء ذلك يؤلف الكتب الدراسية. وقد رافق الحملة العسكرية المصرية التى حاربت روسيا فى عهد سعيد باشا عام ١٨٥٣ وعندما عاد أصبح معاونًا فى وزارة الجهادية ثم عينه الخديو إسماعيل فى نظارة القناطر الخيرية وأوكلت إليه مهام إدارة السكك الحديدية وديوان المدارس والأشغال العامة ونظارة الأوقاف. وسعى على مبارك إلى إنشاء دار الكتب المصرية ومدرسة دار العلوم ونظم شوارع القاهرة وميادينها وبنى جسر قصر النيل، ولما انتهت الثورة العرابية باحتلال مصر عام ١٨٨٢ ركز اهتمامه على الرى وإقامة الجسور وحفر القنوات وتوفى عام ١٨٩٢. وله مؤلفات عديدة منها الخطط التوفيقية وعلم الدين وغيرها والكتاب الذى ننشر مقتطفات منه هو «حياتى» وقد أعادت مكتبة الآداب بالقاهرة نشره عام ١٩٨٩.

بوش مقابل كيرى



■ ■ وافق مجلس النواب الأمريكى فى السادس من مايو الماضى على قرار يجيز شن هجوم «استباقى» على إيران. وكانت نسبة الأصوات ٣٧٦ إلى ٣. وكتب أحد المعلقين قائلاً إن الجمهوريين والديمقراطيين الذين لم تردعهم الكارثة المتصاعدة فى العراق «تعاونوا من جديد لتأكيد مسئوليات النفوذ الأمريكى».

الواقع أن للتعاون عبر الحاجز السياسى الوهمى الأمريكى تاريخاً طويلاً. فقد ذُبح الأمريكيون الأصليون، وضُيعت الفيليبين سدى، وأُخضعت كوبا وجزء كبير من أمريكا اللاتينية بدعم مشترك من الحزبين. وخوضاً فى الدماء، نسجت السلالة الجديدة من المؤرخين الشعبيين، أى الصحفيين الذين يعملون فى خدمة أصحاب الصحف الأثرياء، الأساطير البطولية الخاصة بطائفة فائقة تسمى النزعة الأمريكية صَوَّرها الإعلان والعلاقات العامة فى القرن العشرين على أنها أيديولوجيا تشمل النزعتين المحافظة والليبرالية.

لقد كان من شن معظم حروب أمريكا فى العصر الحديث رؤساء ديمقراطيين ليبراليين: ترومان فى كوريا، وكنيدى وجونسون فى فيتنام، وكارتر فى أفغانستان. وقد اخترع الليبراليون التابعون لكنيدى «فجوة الصواريخ» لتكون أساساً منطقياً لاستمرار الحرب الباردة. وفى عام ١٩٦٤ أجاز كونجرس يسيطر عليه الديمقراطيون للرئيس جونسون مهاجمة فيتنام، تلك الدولة من الفلاحين التى لا حول لها ولا قوة ولا تشكل أى تهديد للولايات المتحدة. وكما هو الحال بالنسبة لأسلحة الدمار الشامل التى لا وجود لها فى العراق، كان المبرر «حادثة» لا وجود لها، حيث قيل إن قاربى دورية من فيتنام الشمالية هاجما سفينة حربية أمريكية. وأعقب ذلك إزهاق ثلاثة ملايين روح وتدمير أرض كانت فى يوم من الأيام تتمتع بالوفرة والنماء.

عن مجلة: نيوستيسمان

ترجمة: أحمد محمود

.. القضـــــــية الزائفــــــــة!

جـــــون بيـلجـــر



وخلال الستين عامًا الماضية لم يصوت الكونجرس سوى مرة واحدة لتقييد «حق» الرئيس في إرهاب الدول الأخرى. وفي عام ١٩٨٤ ألغى رونالد ريجان هذا الخروج عن القاعدة، وهو تعديل كلارك لعام ١٩٧٥ ويعد إحدى ثمار الحركة المناهضة لحرب فيتنام. وأثناء الهجمات التي شنها ريجان على أمريكا الوسطى في الثمانينيات، كانت الأصوات الليبرالية مثل توم ويكر من صحيفة «نيويورك تايمز»، وعميد «الحمائم»، تناقش بجدية ما إذا كانت نيكاراجوا المعدمة متناهية الصغر تهدد الولايات المتحدة أم لا. والآن يحل الإرهاب محل الخطر الشيوعي، وهذه قضية زائفة أخرى تمضي قدمًا.

ومع أنه لدى القليل من الناخبين أصحاب العقلية الليبرالية أوهام بشأن جون كيري، فإن رغبتهم الشديدة في التخلص من حكومة بوش «المارقة» تستنفد كل طاقتهم وانتباههم. وتقول صحيفة «الجارديان» التي تمثلهم في بريطانيا إن انتخابات الرئاسة المقبلة «استثنائية». وتضيف الصحيفة أن «عيوب مستر كيري ونقاط ضعفه واضحة، ولكنها تتضاءل بجوار أجندة المحافظين الجدد وفواجع الحروب التي يشنها مستر بوش. فهذه انتخابات سوف يتنفس فيها العالم أجمع الصعداء إذا هُزم الرئيس الحالي».

حقًا، فقد يتنفس العالم أجمع الصعداء؛ ذلك أن نظام بوش خطير ومكروه عالميًا في آن واحد. ولكن ليس هذا هو المهم. فما أكثر ما ناقشنا نزعة الشر الأهون والأقل شأنًا على جانبي الأطلنطي، حتى أن الوقت قد حان كي نتوقف عن الإشارة إلى ما هو واضح ونبحث بطريقة نقدية النظام الذي يفرز آل بوش وصورهم الديمقراطية الباهتة. والمسألة الحقيقية واضحة وجلية لمن يتساءلون بيننا عما إن كنا سنبلغ سنوات النضج دون أن يفجرنا أمراء حرب النزعة الأمريكية، جمهوريين وديمقراطيين، ومحافظين وليبراليين، إلى أشلاء أم لا، وهي كذلك للملايين في أنحاء العالم ممن يرفضون التأثير الأمريكي الضار في الحياة السياسية. فهي استمرار لمشروع بدأ منذ أكثر من ٥٠٠ سنة.

بـــوش وكيـــرى



لقد استعيض عن امتيازات «الاكتشاف والفتح» التى منحت لكريستوفر كولومبس فى عام ١٤٩٢، فى عالم كان البابا فيه «يرى أن أملاكه توزع حسب مشيئته»، بقرصنة أخرى تحولت إلى إرادة النزعة الأمريكية الإلهية يستديمها التقدم التكنولوجى، وخاصة فى مجال الإعلام. وكتب إدوارد سعيد فى «الثقافة والإمبريالية»: «قد يكون خطر الإلكترونيات الجديدة على الاستقلال فى أواخر القرن العشرين أكبر مما كانت عليه الكولونيالية نفسها. وقد بدأنا فى معرفة أن نقض الكولونيالية لم يكن قضاءً على العلاقات الإمبريالية، بل مجرد توسيع الشبكة الجيوبوليتكية التى كان يجرى نسجها منذ عصر النهضة. فالإعلام الجديد لديه القدرة على أن يخترق أية ثقافة «متلقية» اختراقاً عميقاً يزيد على اختراق تجليات التكنولوجيا الغربية السابقة لها».

كل رئيس فى العصر الحديث هو فى الغالب من صنع الإعلام. وهكذا فإن ريجان القاتل لا يزال مبرأً من الذنوب، ولم تختلف قناة «فوكس» التى يمتلكها مردوخ عن «بى بى سى» ما بعد هتون إلا فى أشكال التزلف والتملق. وينظر الليبراليون إلى كلينتون نظرة تتسم بالحنين للماضى باعتبار أن به عيوباً ولكنه مستنير؛ إلا أن السنوات التى أمضاها كلينتون فى الرئاسة كانت أكثر عنفاً بكثير من سنوات بوش وكان هدفهما واحداً وهو «توحيد البلاد فى مجتمع السوق الحرة الكونية» الذى تقتضى شروطه كما أشارت صحيفة «نيويورك تايمز»، «مشاركة الولايات المتحدة فى سبر غور الشئون الداخلية للدولة وتحريكها بشكل أكثر عمقاً من أى وقت مضى». ولم تكن «هيمنة الطيف الكامل» الخاصة بالبنتاجون من صنع «المحافظين الجدد» بل هى من خلق الليبرالى كلينتون الذى وافق على ما كانت وقتها أكبر نفقات حرب فى التاريخ. وطبقاً لما جاء فى صحيفة «الجارديان»، فإن جون كيرى يرسل إلينا «نداءات تقدمية تبعث على النشاط والحركة». والواقع أن الوقت قد حان لوقف هذا الهراء.

التفوق هو جوهر النزعة الأمريكية؛ وما يحدث هو أن الساتر يتغير أو ينسدل.

ففى عام ١٩٧٦ أعلن الديمقراطى جيمى كارتر عن «سياسة خارجية تحترم حقوق الإنسان». وكان يؤيد فى السر الإبادة الجماعية التى تمارسها إندونيسيا فى تيمور الشرقية وأنشأ تنظيم المجاهدين فى افغانستان ليكون تنظيماً إرهابياً يستهدف الإطاحة بالاتحاد السوفيتى، ومنه خرجت طالبان والقاعدة. وكان الليبرالى كارتر، وليس ريجان، هو الذى وضع الأساس لبوش. وفى العام المنصرم أجريت مقابلة مع واضعى السياسة الخارجية الأساسيين فى عهد كارتر، وهما زبجنيو بريجنسكى مستشاره للأمن القومى، وجيمس شليسنجر وزير دفاعه. ولم يحظ مشروع للإمبريالية الجديدة بمثل ما حظى به مشروع بريجنسكى من احترام. ويصف كتابه الصادر فى عام ١٩٩٧ بعنوان «رقعة الشطرنج الكبيرة: السيادة الأمريكية وضروراتها الجيواستراتيجية» واستثمرته عصابة بوش بموجب السلطة التوراتية، الأولويات الأمريكية على انها الإخضاع الاقتصادى للاتحاد السوفيتى والسيطرة على وسط آسيا والشرق الأوسط. ويقول تحليله إن «الحروب المحلية» ليست سوى بداية الصراع النهائى الذى يؤدى حتماً إلى هيمنة الولايات المتحدة على العالم. كما يقول: «ولكى نعبر عن الأمر باللغة التى تعود بنا إلى عصر الإمبراطوريات القديمة الأكثر وحشية، لابد أن تكون ضرورات الجيوإستراتيجيا الإمبريالية الكبيرة هى منع التآمر والحفاظ على الأمن والاستقلال بين الوكلاء من أجل الحفاظ على مرونة الدول التابعة وحمايتها، ومنع البرابرة من أن يلتقوا معاً».

ربما كان من السهل فى يوم من الأيام رفض هذا الكلام باعتباره رسالة من اليمين، غير أن بريجنسكى هو التيار العام. ومن بين تلاميذه المخلصين مادلين أولبرايت وزيرة خارجية كلينتون التى وصفت موت نصف مليون طفل فى ظل الحظر المفروض على العراق بقيادة الولايات المتحدة بأنه «ثمن يستحق الدفع»، وجون نجروبونتى العقل المدبر للإرهاب الأمريكى فى أمريكا الوسطى فى عهد ريجان و«السفير» الحالى فى بغداد. وفى الوقت الراهن يعتبر جيمس روبن، الذى كان يدافع بحماس عن أولبرايت فى وزارة الخارجية الأمريكية، مستشار الأمن القومى لجون كيرى. وهو صهيونى كذلك؛ أى أن إسرائيل ودورها كدولة إرهابية أمر خارج المناقشة.

ولنلق نظرة على سائر العالم. بينما بات العراق يزحم الصفحات الأولى، لم تعد التحركات الأمريكية فى اتجاه أفريقيا تلفت الانتباه بشكل كبير. وهنا نجد أنه لا اختلاف بين سياستى كلينتون وبوش. ذلك أنه فى التسعينيات استهل قانون «النمو الأفريقى والفرصة» تزاحماً جديداً على أفريقيا. ويتساءل المقاتلون الإنسانيون عن سبب عدم مهاجمة بوش وبلير السودان و«تحرير» دارفور، أو التدخل فى زمبابوى أو الكونغو. والإجابة هى أنه لا اهتمام لهما بالمحن وحقوق الإنسان وأنهما مشغولان بتأمين نفس الثروات التى أدت إلى التدافع الأوروبى فى أواخر القرن التاسع عشر باستعمال وسائل القهر والرشوة التقليدية المعروفة بتعددية الأطراف. فالكونغو به ٥٠ بالمائة من احتياطى الكوبالت العالمى، كما أن ٩٨ بالمائة من احتياطى العالم من الكروم موجود فى زمبابوى وجنوب أفريقيا. والأهم من ذلك أن هناك نفطاً وغازاً طبيعياً فى غرب أفريقيا، من نيجيريا حتى أنجولا، وفى حوض الهجليج فى السودان. وفى عهد كلينتون وضعت مبادرة حل الأزمات الأفريقية سراً، وتسمح هذه المبادرة للولايات المتحدة بوضع «برامج للمساعدات العسكرية» فى السنغال وأوغندا ومالاوى وغانا وبنين والجزائر والنيجر ومالى وتشاد. ويدير هذه المبادرة الكولونيل نستور بينو مارينا، وهو كوبى يعيش فى المنفى شارك فى إنزال خليج الخنازير عام ١٩٦١، وأصبح ضابط قوات خاصة فى فيتنام ولاوس، وساعد فى عهد ريجان فى قيادة غزو كونترا فى نيكاراجوا. إن الأصول لا تتغير أبداً.

كل رئيس فى العصر الحديث هو فى الغالب من صنع الإعلام. وهكذا فإن ريجان القاتل لا يزال مبرأ من الذنوب

ولا يناقش أى مما سبق فى أية حملة انتخابية يكافح فيها جون كيرى لإخراج بوش من الرئاسة. فتعددية الأطراف أو «النزعة الدولية العضلية» التى يقدمها كيرى فى مقابل أحادية الطرف الخاصة ببوش لا يرى فيها أملاً إلا ساذج شديد السذاجة: فالواقع أنها تنذر بأخطار أشد وأقوى. ويكتب المؤرخ جابرييل كولكو أنه بعد أن قدم بوش للنخبة الأمريكية أعظم كوارثها منذ فيتنام، «فالأرجح أنه سوف يستمر فى تدمير نظام التحالف الضرورى جداً للنفوذ الأمريكى. ولسنا مضطرين لتصديق أنه كلما ساءت الأمور كان ذلك أفضل، ولكن لابد أن ندرس بصراحة نتائج السياسة الخارجية الخاصة بتجديد فترة رئاسة بوش. ذلك أن إعادة انتخاب بوش على ما هى من خطورة قد تكون أهون الشرين». ومع عودة الناتو فى ظل رئاسة كيرى، وإبداء الفرنسيين والألمان للطاعة، سوف تمضى الطموحات الأمريكية بدون العوائق النابليونية الخاصة بعصابة بوش. والقليل من هذا هو ما يظهر فى الصحف الأمريكية الجديرة بالقراءة. فلم يقطع اعتذار «واشنطن بوست» شديد الأسى إلى قرائها فى ١٤ أغسطس، لعدم «إعطاء الاهتمام الكافى للأصوات التى تثير الشكوك بشأن الحرب (ضد العراق)»، سكوتها بشأن الخطر الذى تمثله الدولة الأمريكية للعالم. لقد ارتفعت نسبة تأييد بوش فى استطلاعات الرأى إلى



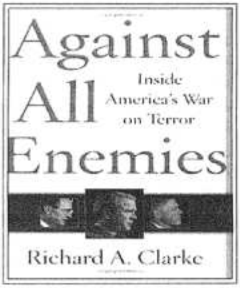
أكثر من ٥٠ بالمائة، وهو مستوى فى هذه المرحلة من الحملة الانتخابية لم يخسر معه قط الرئيس الذى فى السلطة. وها هى فضائل «كلامه الصريح» التى روجت لها منذ أربع سنوات الآلة الإعلامية بكاملها . فوكس وواشنطن بوست على السواء . تحظى بالتصديق من جديد. وكما حدث فى أعقاب هجمات الحادى عشر من سبتمبر، يُحرم الأمريكيون من ذلك النزر اليسير من فهم ما أسماه نورمان ميلر «مناخ ما قبل الفاشية»، ولا نتيجة لمخاوف الباقين منا. وهو ما كان لليبراليين المحترفين على جانبى الأطلنطى دور كبير فيه. وتدل على ذلك الحملة التى شُنت ضد فيلم مايكل مور «فهرنهايت ٩/١١». فالفيلم ليس متشدداً ولا يقدم ادعاءات غريبة؛ بل إن ما يفعله هو الاندفاع متجاوزاً هؤلاء الذين يحرسون حدود المعارضة «المحترمة». وهذا هو سبب استحسان الجمهور وتصفيقه له. إذ إنه يحطم قوانين الصحافة التآمرية التى يفضحها. كما يسمح للناس بالبدء فى تفكيك الدعاية الليلية التى تتخذ شكل الأخبار ويرد فيها أن «حكومة عراقية ذات سيادة تسعى لتحقيق الديمقراطية»، وهؤلاء الذين يقاتلون فى النجف والفلوجة والبصرة دائماً «متشددون»، أو «متمردون»، أو أعضاء فى «جيش خاص»، وليسوا بحال من الأحوال وطنيين يدافعون عن وطنهم، وربما أجلت مقاومتهم شن هجمات على إيران أو سوريا أو كوريا الشمالية.

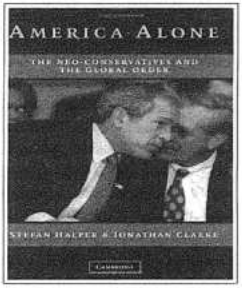
إن القضية الحقيقية ليست بوش ولا كيرى، بل النظام الذى يمثلانه؛ إنها انهيار الديمقراطية الحقة وظهور دولة الأمن القومى، الأمريكية فى بريطانيا وغيرها من الدول التى تدعى أنها ديمقراطية، وفيها يلقى بالناس السجون ويلقى بالمفتاح بعيداً، كما يرتكب قادتها جرائم عقوبتها الإعدام فى أماكن بعيدة، دون أن يردعهم رادع. وبعد ذلك يدعون السفاح الذى نصبوه ليلقى كلمة فى مؤتمر حزب العمال، مثلما فعل بلير قاسى القلب.

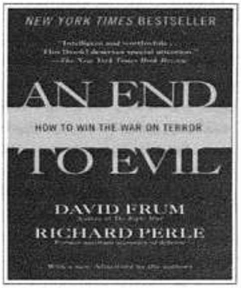
إن القضية الحقيقية هى إخضاع الاقتصادات القومية لنظام يقسم الإنسانية تقسيماً لم يحدث من قبل ويؤيد وفاة ٢٤ ألف جائع كل يوم. كما أن القضية الحقيقية هى القضاء على اللغة السياسية الخاصة بالقضية ذاتها، وربما على احترامنا لأنفسنا فى النهاية. ■

فــى عـــــام الانتخـــــابـــات
مـــائة كتـــاب حـــول الرئيـــس

وليد محمود عبد النـاصر







■■ فى عام الانتخابات الرئاسية، وأيضاً التشريعية والمحلية، الأمريكية صدر عدد من الكتب يكاد يقترب من المائة عن الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن . الرئيس الثانى والأربعين للولايات المتحدة منذ استقلالها . وعن سياسته وفريق إدارته خلال ولايته الرئاسية. ومن هذه الكتب ما صدر مع بوش، ولكن غالبية هذه الكتب صدرت ضده. واللافت للنظر أن هذه الكتب . سواء المؤيدة أو المعارضة للرئيس الأمريكى أو التى وصفت نفسها بالموضوعية أو الحياد . ركزت بجانب الرئيس. بل أحياناً بدرجة أكبر منه. على المجموعة التى جرى على تسميتها بـ «المحافظين الجدد» - NEO CONSERVATIVES وهى المحيطة بالرئيس والمتنفذة فى دوائر الحكم فى عهده، وإن كانت بالتأكيد ليست الوحيدة فى هذا الوضع.

وسنتناول هنا عدداً محدوداً من هذه الكتب نظراً لعدم إمكانية التعرض لها جميعاً، كما أننا سنتعرض للكتب التى نتناولها بشكل مجمع يركز على ملاحظات تتصل بالقضايا المطروحة دون تجاهل لشخصية الكاتب وخلفيته أو التقليل من قيمتها وتأثيرها على مضمون الكتاب. إلا أننا نزعم أن هذه النظرة المجمعة تساهم فى التعرف بصورة أفضل على الأجواء التى توجدها هذه الكتب فى عام الانتخابات الرئاسية، وإن كنا نحتفظ لأنفسنا بإبداء ملاحظة ختامية موجزة عن طبيعة هذا التأثير فى ختام هذا المقال الذى يجمع بين العرض والتحليل والنقد.

ونبدأ بسرد الكتب التى نتناولها وهى:

كتاب للمحافظين الجدد مؤيد لسياسات بوش فى مجملها دون خلوه من انتقادات ذات طابع تكتيكى لها وهو:

Richard Perle & David Frum, An End To Evil : How To Win The War On Terror.

ثم كتاب مؤيد لسياسات الرئيس بوش من منطلق محافظ تقليدى ذى نزعة دينية وهو: Peter & Rochelle Schweizer . The Bushes : Portrait Of a Dynasty. والكتاب الثالث نستطيع وصفه بالسعى للتحليل الموضوعى للشخصيات الأساسية فى ادارة الرئيس بوش، وتحديداً نائب الرئيس «تشينى»، مستشارة الأمن القومى «رايس»، وزير الخارجية «باول» ونائبه «ارميتاج»، وزير الدفاع «رامسفيلد»، ونائبه «وولفوتيز»، ولخلفيتها الفكرية وتطور دورها السياسى وصراعاتها وهو:

James Man . Rise Of The Vulcans . USA : Penguin Group, ٢٠٠٤.

أما الكتاب الرابع فهو هجوم على سياسات بوش والمحافظين الجدد من دوائر اليمين التقليدى داخل الحزب الجمهورى، وأعنى بها بعض التيارات الموالية فكرياً للرئيس الراحل ريجان مثل أحد مؤلفى الكتاب وهو ستيفن هالبر الذى شغل منصب نائب مساعد وزير الخارجية فى عهد ريجان، وعنوان الكتاب هو:

Stefan Halper & Jonathan Clarke . America Alone. USA & UK: Cambridge University Press, ٢٠٠٤ .

وكتاب خامس يهاجم أيضاً سياسات الرئيس الأمريكى والمحافظين الجدد، ولكن من منطلق شعبوى محافظ، ومؤلفه هو المرشح السابق للحصول على ترشيح



بــــوش وكيــــرى

الحزب الجمهورى لانتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٩٢ Pat Bucchanan واسم الكتاب: . Patrick J. Bucchanan When The Right Went Wrong. Thomas Duane Brothers / St. Martin Press,٢٠٠٤ .

أما الكتاب السادس فهو أحد الكتب التى هاجمت الرئيس بوش من شخصيات شغلت مناصب رفيعة فى إدارته ثم خرجت منها وهو كتاب Richard Clarke المسئول عن مكافحة الإرهاب فى عهد عدة إدارات أمريكية متعاقبة وعنوانه:

Richard A. Clarke, Against All Enemies .

واخيراً، هناك ثلاثة كتب قادمة مما يمكن تسميته طبقاً لتعريف المشهد السياسى الأمريكى بـ «اليسار» . تجاوزاً عن التعريف العام على المستوى العالمى لهذا المفهوم. واليسار هنا يعنى به التيار الليبرالى الديمقراطى وهى كتب لكاتبين صحفيين وناقد أدبى وهى:

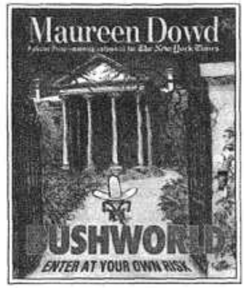
Maureen Dowd , Bushworld . G.P Putnam,s Sons,2004.

James Wolcott , Attack Poodles. Miramax Books,2004.

Graydon Carter , What We Have Lost. Farrar, Straus & Giroux,2004.

وأول ما نشير إليه هو ما نكاد نلحظه فى غالبية هذه الكتب أنها تمثل رؤى لمعسكرين لا ثالث لهما، فلا مجال للمنطقة الرمادية، بل اتهام من اليمين لليسار فى حالات الدفاع عن إدارة بوش وسياستها، أو من اليسار لليمين فى بعض حالات الهجوم على الإدارة الجمهورية القادمة من الحزب الديمقراطى، أو من الفصائل الليبرالية واليسارية خارج صفوف الحزب الديمقراطى، كذلك فهناك الاتهام المتبادل بين المتشددين Hardliners والمتراخين Softliners داخل صفوف الحزب الجمهورى والدوائر المحافظة الأمريكية. وعلى الجانب الآخر هناك الاتهامات بالتباين بين الجمهوريين التقليديين المخلصين لإنجازات وروح فترتى ولاية الرئيس ريجان وبين المحافظين الجدد المتهمين بمحاولة «تأميم» الريجانية لمصلحتهم وإعادة تفسيرها بما يخدم أطروحاتهم. ونستثنى من هذه الثنائية كتاب «كلارك» الى درجة ما بالرغم من انحيازه الواضح لحقبة كلينتون على حساب حقبة بوش الإبن، وكذلك كتاب بيتر وروشيل شفايزر نسبياً، أيضاً بالرغم من إعادتهما الى





إيماءاتهما إلى دور الإيمان بالمسيحية فى السياسة مقارنة بغير المؤمنين، وأخيراً كتاب «جيمس مان»، بالرغم مما حواه ضمنياً من انتقادات للمجموعة المحيطة بالرئيس الأمريكى.

أما ثانى ملاحظاتنا فتتعلق بحرب العراق وموقعها فى الهجوم على الرئيس أو الدفاع عنه. ففى مقابل النظر للنظام السابق العراقى باعتباره خطراً محدقاً على أمن الولايات المتحدة، وإعادة التأكيد على صلته بالإرهاب العالمى. بل وبهجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ . وفى مقدمته تنظيم القاعدة من خلال لقاء بين مسئولى المخابرات العراقية ومحمد عطا قائد عمليات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى العاصمة التشيكية براغ، وتأكيد تطوير ذلك النظام لأسلحة دمار شامل وتهديده لجيرانه ولإمدادات النفط وللنظم الصديقة للولايات المتحدة فى المنطقة وفى مقدمتها بالطبع إسرائيل، وذلك حسبما ورد فى كتاب «بيرل وفرام»، وأيضاً فى مقابل نظرة «بيتر وروشيل شفايزر» لحرب العراق باعتبارها تعبيراً عن قناعة دينية لدى الرئيس الأمريكى بضرورة الالتزام الأخلاقى بمساعدة المحتاجين لذلك الذين يعانون من القمع، وبالتالى مساعدة الشعب العراقى للتخلص من نظام «شرير»، فإننا نكاد نرى اتفاقاً فى بقية الكتب محل العرض هنا على عدد من العناصر: اتهام الإدارة الحالية إما صراحةً بالكذب والتضليل بتقديم معلومات غير صحيحة للرأى العام الأمريكى والكونجرس بغرض تعبئته لدعم الحرب ضد العراق، أو بتفسير بعض الوقائع بشكل يضمن لى حقيقتها ليتم استخلاص نتائج منها لا تمت لها بصلة، أو على الأقل انتقاء أمور وربطها ببعضها فى غير موضع لهذا الربط بهدف تبرير الحرب وإسباغ شرعية . ولو داخلية . عليها وأخيراً بتحوير الولاية التى منحها الكونجرس للرئيس لجعلها مسوغاً للحرب بدلاً من الغرض الأصلى منها وهو التلويح لمجلس الأمن بورقة الدعم الداخلى للإدارة بهدف حثه على اتخاذ قرار بالتفويض باستخدام القوة ضد العراق، وذلك على النحو الذى أورده عدد من أعضاء الكونجرس أنفسهم.

وتتداخل هنا عوامل عديدة لتفسير الحرب. فمن تحليل نفسى ورد فى كتاب «مورين دور» لحاجة الرئيس الأمريكى لاستكمال ما لم يفعله أبوه الرئيس بوش الأب عام ١٩٩١ لإثبات أنه الابن الأكثر نجاحاً من والده وليس العكس، إلى إلقاء التبعية على المحافظين الجدد وأجندتهم السياسية كما ورد فى كتاب «هالبر وكلارك»، وأيضاً بحسب ما ورد فى كتاب «بوكانان»، الذى رأى ان العراق لم تمثل يوماً أى تهديد للولايات المتحدة أو مصالحها . وترد كل هذه الكتب على كل مبررات الحرب بالنفى. فليس فقط مجرد نقد عدم وجود دليل على وجود علاقة بين نظام البعث العلمانى فى العراق «والقاعدة»، ذلك التنظيم السلفى المتشدد، بل إن الحرب على العراق أدت، بحسب الخبير فى مكافحة الإرهاب «ريتشارد كلارك»، إلى اتساع نطاق وتزايد قوة التنظيمات الإسلامية المتطرفة المعادية للولايات المتحدة والتى تتبنى الإرهاب بل وتزايد شعبيتها وبالتالى قدرتها على تجنيد آلاف الأعضاء الجدد الذين لا تعلم عنهم الأجهزة الأمنية او الاستخباراتية شيئاً، فى ضوء تصاعد لموجة العداء للولايات المتحدة، خاصة فى العالمين العربى والإسلامى. كما أن حرب العراق فتحت ميداناً جديداً أمام «الإرهابيين» للقتال ضد الأمريكيين، وكون هذا الميدان بعيداً جغرافياً عن الولايات المتحدة لم يجعلها . بحسب رأى «كلارك»، وبعكس رأى «فرام وبيرل» . أكثر أمناً نظراً لتزايد التحذيرات ورفع حالة الطوارئ داخل الولايات المتحدة الأمريكية بشكل منتظم بسبب الخوف من عمليات إرهابية جديدة.

بل إنه حتى مقولة تبرير الحرب على العراق من منطلق بناء نظام ديمقراطى على النسق الغربى هناك يكون نموذجاً لبقية بلدان المنطقة وينشر الديمقراطية بها وبالتالى ينتزع جذور العداء للولايات المتحدة كما يقول «فرام وبيرل»، ويكون له تفوق أخلاقى كما ذكر «بيتر وروشيل شفايزر»، بل إنه أدى . بحسب رأى «هالبر وكلارك»، إلى أن الولايات المتحدة صارت فى حالة حرب دائمة وأن ما نما فى العراق والمنطقة لم يكن الديمقراطية وإنما كان العداء للولايات المتحدة والكراهية لها والنظر لها كمحتل وقوة تسعى لفرض آرائها عبر الوسائل العسكرية، أو . حسب رأى «بوكنان»، كثقافة غازية تسعى لفرض نفسها على الآخر وتجريده من ثقافته الأصلية.

ويتفق «مورين دود»، مع كل من «جيمس وولكوت»، و«جرايدان كارتر» فى إعلان المعارضة لاحتلال إدارة بوش «الكارثى»، وغير المحسوب جيداً للعراق، والذى أدى إلى استعداء حلفاء وأصدقاء الولايات المتحدة عليها، وكشف انحياز إدارة بوش للدفاع عن مصالح الأغنياء وقطاع شركات النفط الأمريكية، وهو احتلال أكد أيضاً . بحسب رأى هؤلاء . عداء الإدارة لحماية البيئة، وهى كلها اتهامات منطقية عندما تأتى من يسار المشهد السياسى الأمريكى.

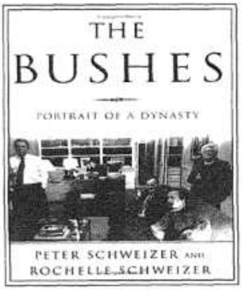
ويذهب دود أيضاً إلى ربط الحرب على العراق بالطبيعة «المغامرة» للأيديولوجية اليمينية السائدة للإدارة الحالية للرئيس بوش الابن، والتى تسعى لتمرير وتسويق «أجندات» مصالح خاصة. ويساوى «وولكوت» فى المسئولية بين إدارة الرئيس بوش وشبكات التليفزيون الكبرى (/CNN/ FOX MSNBC) فى تضليل الشعب الأمريكى بشأن الحرب فى العراق ودوافعها، سواء ما يتعلق بعلاقة الحكم العراقى السابق بالإرهاب ودوره فى أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، أو بادعاء امتلاكه لأسلحة دمار شامل. ويستنكر «كارتر» غزو العراق

بـــوش  وكيـــرى

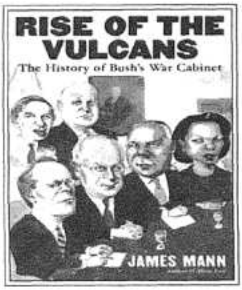
باعتباره حرب اختيار وليس حرباً مفروضة كما صورها أنصار الرئيس بوش الابن، لأن العراق لم يكن عدواً ولا تهديداً للولايات المتحدة. ويتفق «كارتر» هنا، وباللمفارقة، مع «بات بوكانان» اليمينى الشعبوى المحافظ. ولكن «دود» و«وولكوت» و«كارتر» لا يذكرون الدور الذى لعبه الموقف المؤيد للحرب فى العراق من جانب أعضاء الكونجرس بمجلسيه من الحزب الديمقراطى فى ممارسة نفس الدور الذى لعبته وسائل الإعلام، أو ربما حتى دوراً أخطر فيما يتعلق بقواعد الحزب وأنصاره.

أما ثالث الملاحظات هنا فتتصل بقضية الإرهاب والحرب الأمريكية ضده. وبما أن هذا الموضوع هو صلب طرح الرئيس بوش ونائبه تشينى فى حملتهما الانتخابية للرئاسة لعام ٢٠٠٤، فمن الطبيعى أن يكون ميداناً للنقاش الحاد، بل وتبادل الاتهامات بين أنصار الرئيس الجمهورى وخصومه، وان يكون جوهر أى دفاع عنه وعن سياساته وفترة حكمه. فبالنسبة لـ «فرام وبيرل» فإن الحرب ضد الإرهاب هى «معركة حياة أو موت» للولايات المتحدة، وأن أمام الولايات المتحدة خيارين لا ثالث لهما إما تحقيق النصر أو التعرض «للمحرقة» («الهولوكوست»)، وذلك فى تشبيه لا يخلو من مغزى يبين تصوير كل من اليهود فى زمن المحرقة والأمريكيين فى حربهم ضد «الإرهاب» فى صورة مماثلة.

وفى كتابهما عن أسرة الرئيس بوش، يعتبر «بيتر وروشيل شفايزر» أن هناك علاقة لا انفصام فيها بين الحرب ضد الإرهاب من جانب إدارة الرئيس بوش وقناعات الرئيس الدينية وتربيته الأخلاقية، بل أوردوا ان بعض المقربين عائلياً من الرئيس بوش الابن اعتبروا الحرب التى أعلنها الرئيس على الإرهاب حرباً دينية لأن الإرهابيين «يسعون لقتل المسيحيين»، وأن على المسيحيين الرد بقوة أكبر وحمية أكثر على هؤلاء الإرهابيين. ويرى هؤلاء أن الرئيس يدرك أن الذين هاجموا الولايات المتحدة فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فعلوا ذلك باسم دينهم (فى إشارة للإسلام)، وبالرغم من أن بوش الابن أعلن أكثر من مرة أنه ليس فى حالة حرب ضد الإسلام، فإنه يعى تداعيات ما جرى على المستوى الدينى. ولذلك شبه كثيرون حرب بوش على الإرهاب ، بمن فيهم بوش نفسه فى مرحلة ما ، بأنها «حرب صليبية»، وإن كان عاد ليعيد تفسير هذا التعبير بشكل أكثر ملاءمة من



الناحية السياسية بحيث يتجنب تشبيه البعض لخطابه السياسى بخطاب الجماعات الإسلامية المتطرفة. وعقب أحداث سبتمبر ٢٠٠١، استخدم بوش الابن اللفظ الإنجيلى «صناع الشر» لوصف الإرهابيين. إذن ينكر المؤلفان أن تكون الحرب ضد الإرهاب هى حرب من اجل النفط أو لأسباب سياسية، وإنما هى بالنسبة لهما حرب حول معتقدات ونظم قيمية، وهى حرب على ظاهرة تمثل نتيجة وليس سبباً فى حد ذاتها. وعلى الجانب الآخر، ركز خبير مكافحة الإرهاب «ريتشارد كلارك»، كما هو متوقع، فى كتابه على ما أسماه بفشل إدارة بوش فى الأخذ بجدية تحذيراته وتحذيرات آخرين فى الإدارة من خطورة تنظيم القاعدة باعتباره التهديد الرئيسى للولايات المتحدة، وبالتالى عدم فاعلية الإدارة فى تعبئة المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالى والبنتاجون فى إطار استراتيجية متكاملة لمكافحة الإرهاب. ورأى كلارك أن الطرح البديل الذى كان يجب على إدارة بوش اتباعه هو بدء حملة فكرية وثقافية عالمية من أجل مواجهة ما يمثله تنظيم القاعدة وغيره من الجماعات الإسلامية المتشددة من طرح فكرى متطرف وإبراز أن بديل «القاعدة» هو نشر الأفكار الإسلامية الصحيحة بما يظهرها قريبة من القيم الغربية، ويؤكد طرح «كلارك» أن القنابل والرصاصات والسجون لا تصلح وحدها لمواجهة خطر عقائدى وفكرى. ولكن كلارك لا يقتصر على تناول البعد الخارجى للحرب ضد الإرهاب فى انتقاده لإدارة الرئيس بوش، بل انتقل إلى الداخل حيث ركز هجومه على قرار إدارة الرئيس بوش بإنشاء وزارة للأمن الداخلى والذى اعتبره جعل الإدارة اقل



قدرة على التعامل مع قضايا الأمن الداخلى وفى مقدمتها الإرهاب، بينما سبق أن رفضت نفس الإدارة إنشاء مثل هذه الوزارة قبل ذلك بأسابيع واتهمت من يطالب بذلك بعدم الوطنية. كما انتقد كلارك الحرب فى أفغانستان لأنها لم تأت بسرعة عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ويؤكد أن الأفضل كان إرسال القوات الأمريكية سريعاً لاعتقال قادة الطالبان والقاعدة. ويدعو كلارك الإدارة الأمريكية لتركيز الحرب ضد الإرهاب على إيران التى يتهمها هى، وليس نظام صدام حسين، بأنها شكلت موقع لجوء وتنقل لعناصر القاعدة ولديها برنامج تطوير لأسلحة دمار شامل.

أما «مورن دود» و «جيمس وولكوت» و«جرايدون كارتر» فيرون من موقعهم الليبرالى أن إدارة الرئيس بوش استغلت كلاً من أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ والحرب على العراق لشن حملة على الحقوق المدنية والحد من الحريات داخل الولايات المتحدة مما كشف، بحسب رأيهم، عن التوجهات اليمينية التى تمثلها الإدارة والمصالح التى تعبر عنها.

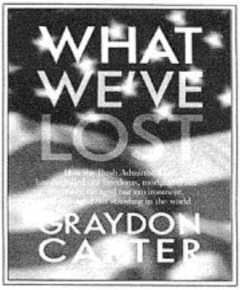
وتتصل رابع الملاحظات بالعلاقة بين الرئيس بوش الابن والرئيس الراحل رونالد ريجان. ومرة أخرى نبدأ بكتاب «بيرل وفرام»، اللذين يريان أن الرئيس بوش الابن هو الامتداد الطبيعى لحقبة الرئيس ريجان، وهو الذى استكمل إنجازات ريجان، خاصة على صعيد السياسة الخارجية والأمن الداخلى. فهما يريان مواقف بوش «الصلبة والشجاعة» فى الحرب ضد الإرهاب والدول الداعمة له مثل «عراق صدام حسين» استمراراً لمواقف ريجان الحاسمة فى مواجهة الاتحاد السوفيتى السابق والشيوعية الدولية. وكما أفضى الموقف المبدئى غير المهادن لريجان إلى محاصرة الخطر الشيوعى السوفيتى وإسقاطه فإن استمرار موقف الإدارة الصلب، بل واتساعه ليشمل كافة الدول المؤيدة للإرهاب، بحسب تعريف الكاتبين، هو الضمانة للنصر فى الحرب ضد الإرهاب كنهاية حتمية. وهنا يحذر الكاتبان من مظاهر تراجع أو تهاون من الإدارة فى هذه الحرب، ولكن كتابهما صدر قبل أن يعلن الرئيس الأمريكى نفسه أن الحرب ضد الإرهاب هى حرب بلا نهاية وأنه لا وجود فيها لمعنى النهاية أو لمعنى الانتصار النهائى. وننتقل الى «بيتر وروشيل شفايزر»، اللذين يقارنان بين ريجان من جهة والذى مكنه إيمانه الدينى المسيحى والتزامه الأخلاقى العميق من تحقيق فهم للحرب الباردة والحرب ضد الإرهاب ليس باعتبارها حرباً حول الصواريخ أو حول الاستراتيجيات الجيوبولتيكية بقدر ما كانت حرب عقائد ومبادئ فكرية ومرجعيات أيديولوجية. وكما أطلق الرئيس ريجان على الاتحاد السوفيتى تعبير «إمبراطورية الشر» وتحدث عن حرب روحية ضد الشيوعية على الصعيد العالمى، فإن الرئيس بوش الابن أطلق على الدول التى اتهمها برعاية الإرهاب تعبير «محور الشر» وأعلن حرباً «مقدسة» ضد الإرهاب على الصعيد العالمى. وبحسب رأى المؤلفين فإن إيمان ريجان الدينى هو الذى دفعه لاتخاذ موقف أخلاقى، وليس نفعياً، تجاه صراع القوتين الأعظم كما أهله لتقديم الدعم للمنشقين داخل الاتحاد السوفيتى السابق والدول الشيوعية لتمكينهم من المقاومة وفى النهاية تحقيق النصر. ويقارن المؤلفان بين هذا الموقف وبين موقف جورج بوش الابن الذى مكنه إيمانه الدينى من اتخاذ موقف أخلاقى واضح فى الحرب ضد الإرهاب وفى العراق وممارسة «الصبر» والاستماع لكل الآراء بالرغم من تضاعف الضغوط من حوله. وبالتالى، انحاز بوش إلى جانب «الله» والخيارات الأخلاقية السليمة دون أن يأخذ كأمر مسلم به مساندة الله له بل وعى أن عليه تبنى الأسس اليهودية/المسيحية للكتاب المقدس حتى ينصره «الله». وبناء على أرضية التحليل تلك، خلص المؤلفان إلى نفس نتيجة «فرام وبيرل»، ولكن من زاوية مختلفة، وهى أن بوش الابن

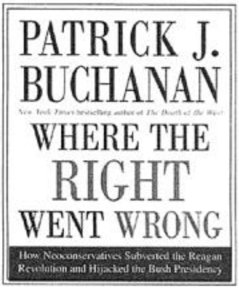


بـــوش وكيـــرى

امتداد لريجان. ويقترب موقف «جيمس مان» فى كتابه من هذا الموقف عندما يتحدث عن الشخصيات الستة الرئيسية حول الرئيس بوش الابن وتتبع صعودها وتربيتها الفكرية وتأهلها السياسى وخبراتها فى عهد الرئيس ريجان ثم الرئيس بوش الأب. وبالرغم من ذلك فإن «مان» يقر بأن أفكار هؤلاء مرت بمراحل تطور خاصة خلال عودتهما للمؤسسات الأكاديمية أو مراكز الأبحاث أو القطاع الخاص فى ظل فترتى حكم الرئيس الديمقراطى بيل كلينتون، دون أن يؤدى ذلك إلى تغير كافة القناعات أو تعديل كل الأفكار. ومن هنا يقف «مان» موقفاً أقرب لموقف «بيرل وفرام» و«بيتر وروشيل شفايزر» منه إلى مواقف «بوكانان» و«هالبر وكلارك» المناهضين لهذا الطرح من داخل خندق اليمين الجمهورى الأمريكى.

أما «بوكانان» فيبرز التباينات بين ريجان وبوش الابن، فالأول يراه حارب فقط للدفاع عن الولايات المتحدة من تهديدات على حدودها الجنوبية أى فى الفناء الخلفى فى أمريكا الوسطى سواء حرباً غير مباشرة فى نيكاراجوا ضد الساندنيستا أو فى السلفادور ضد ثوار «فارابوندو مارتى» أو مباشرة فى جرينادا عندما غزاها الجيش الأمريكى لإسقاط نظام يسارى منتخب ديمقراطياً. ولم يحارب ريجان فى أفغانستان، بل كانت حرباً بالوكالة وكانت ناجحة فى إنهاك واستنزاف الاتحاد السوفيتى حتى انتهى احتلاله لافغانستان ثم انهار وتفكك كلية فيما بعد. أما الرئيس بوش. فبحسب بوكانان . ذهب بجيشه بعيداً إلى العراق ليغزو ويحتل بلداً لم تشكل أى تهديد للولايات المتحدة ويسقط المئات من الأمريكيين قتلى بدون أمل حقيقى فى نصر سريع أو قريب. وعلى الصعيد الداخلى، يطرح . بوكانان . المفارقة بين ريجان الذى حقق نهضة صناعية وتجارية بعد سنوات الأزمة الاقتصادية فى السبعينيات، خاصة فى عهد الرئيس الديمقراطى جيمى كارتر، وبين تراجع الاقتصاد الأمريكى فى عهد الرئيس بوش الابن وتزايد معدلات البطالة وتراجع معدلات النشاط الاقتصادى وذلك بعد سنوات من الفائض فى الموازنة ومن الرواج الاقتصادى وتضاعف فرص العمل المتاحة فى عهد الرئيس الديمقراطى السابق كلينتون. ولا ينسى «بوكانان» أن يدعو إلى إحياء اليمين المثالى والحقيقى الذى مثله ريجان وذلك عبر تمرد أو ثورة تضم كلا من المحافظين المبدئيين (أنصار ريجان) والشعبويين المحافظين (أنصار بوكانان) ضد السلطة الهرمية التى تحكم الحزب الجمهورى حالياً وتسيطر عليه متمثلة . بحسب رأيه . فى المحافظين الجدد، ولكنه لا يذكر كيف سيتم هذا التمرد وبواسطة من، خاصة بعدما ظهر خلال مؤتمر الحزب الجمهورى فى نيويورك فى نهاية أغسطس ومطلع سبتمبر ٢٠٠٤ من شبه توافق عام حول دعم برنامج الرئيس بوش ونائبه تشينى.





ولكن الرد الأقوى على القائلين بالامتداد بين ريجان وبوش الابن يأتى بشكل أشمل وأكثر اتساقاً فى منهجيته من «هالبر وكلارك». فهما يتهمان المحافظين الجدد بمحاولة خلط الأوراق عبر «ادعاء» التواصل بين الرئيسين، ويتهمانهم بتجاهل الفوارق الأساسية: فريجان كان نموذجاً للعمل على نزع السلاح والالتزام به وبالاتفاقات الدولية بشأنه، كما انه قلل بشكل كبير فى استخدامه الفعلى للقوة المسلحة فى العلاقات الدولية والذى يكاد يقتصر على حالة «جرينادا». كما أنهما يشيران إلى رفض ريجان المبدئى للمذاهب الخاصة بتوظيف السلاح النووى للآباء الروحيين لفكر المحافظين الجدد مثل Albert Wohlstetter . كما أن المحافظين الجدد تجاهلوا سياسة ريجان المرنة إزاء الصين وإزالة الكثير من العقوبات المفروضة على الاتحاد السوفيتى السابق، وهى مواقف اتخذها ريجان من منطلق إيمانه بأن هذه القرارات ستؤدى الى حوار ذى معنى ومضمون بشكل بناء بما يساعد فى تحقيق الالتزام المشترك بالتوصل إلى سلام عالمى شامل ودائم. كذلك لا يتحدث المحافظون الجدد عن صفقة «إيران جيت» والتى قدم ريجان بموجبها أسلحة لإيران ولا عن فشله فى لبنان والخروج المخزى للقوات الأمريكية من هناك بعد أحداث ١٩٨٢. ويذهب «هالبر وكلارك» بعيداً فى اتهام المحافظين الجدد بـ «تزوير التاريخ» والقيام بعملية «نصب سياسى» لنسبة أنفسهم إلى الرئيس ريجان وحقبته وربطهما بالرئيس بوش الابن، وذلك من منطلق نسبة أنفسهم إلى ماض مجيد فى نظر الكثير من الأمريكيين، وبالتالى يظهرون كحملة شعلة الريجانية الحقيقيين ومشاركين فى نجاحات ذلك العهد مما يؤهلهم للحصول على دعم شعبى على أمل تحقيق أمجاد أخرى فى عهد بوش الابن وتحت ولايته.

وتتصل بتلك الملاحظات ملاحظة خامسة وهى الصلة بين الرئيس بوش الأب والرئيس بوش الابن ليس على المستوى الشخصى والعائلى بل فيما يتعلق بالمستوى السياسى.

فنلاحظ فى كتاب «فرام وبيرل» انتقادات ضمنية لعدم وجود الحسم الكافى فترة حكم الرئيس بوش الأب خاصة تجاه الوضع فى العراق وعدم استكمال الحرب حتى إسقاط النظام العراقى بعد احتلال بغداد أو على الأقل لعب دور نشط فى دعم التمردين الكردى والشيعى فى شمال وجنوب العراق. وهذا بخلاف كتاب «بيتر وروشيل شفايزر» اللذين يريان أن بوش الابن تأثر بتدين أبيه وبقناعاته الدينية بضرورة مساعدة من يحتاج إلى مساعدة ومن يخضع للقمع. وقد واصل بوش الابن قناعات أبيه الدينية بل وتعززت لديه اكثر نتيجة ما واجهه من مواقف أدت الى تهذيبه وتهدئة ردود أفعاله، دائماً بحسب مؤلف الكتاب.

ونعود الى كتاب الديمقراطى «مورين دود» الذى رأى فى «ديك تشينى» المعلم الذى أوكل اليه الوالد مهمة تعليم وتدريب وتوجيه النصح للابن، وهو نفس ما يذهب اليه «مان» مع اختلاف عدم افتراض وجود تطابق فكرى أو أيديولوجى بين بوش الأب وتشينى. ويرى «دود» أن تناقضاً حكم موقف بوش الابن تجاه أبيه، فمن جهة يسعى للحصول على احترامه وتقديره، ومن جهة أخرى فان لديه رغبة رمزية بداخله فى إثبات أنه الأفضل والأخلد بسياساته وبتصحيحه للسياسات الخاطئة لوالده بدلاً من اتهامه بتخريب ما قام به والده. وتصدق نفس ملاحظة «مان» السابق الإشارة إليها بشأن العلاقة بين بوش الابن وريجان على علاقة بوش الابن بأبيه من الناحية السياسية والفكرية.

أما «هالبر وكلارك» فيريان وجه الخلاف بين بوش الأب وبوش الابن، ويركزان هنا على الموقف من المحافظين الجدد والموقف من الحرب فى العراق دون تجاهل الصلة بين المسألتين. فالمحافظون الجدد الذين كانوا متحمسين لدعم العراق بالسلاح خلال ثمانى سنوات من الحرب ضد إيران، انقلبوا عليه بعد ذلك وسعوا لإسقاط النظام العراقى، ولكن الرئيس بوش الأب احتوى تأثيرهم وحيده لما اعتبره من أنه لا يتفق مع المصالح القومية الامريكية. فبينما كان المحافظون الجدد يروجون لمقولة أن الإطاحة بحكم صدام حسين سيجعل الولايات المتحدة قادرة على جعل منطقة الشرق الأوسط أكثر تجاوباً من الناحية السياسية مع الرغبات والمخططات والطموحات الأمريكية، أدرك الرئيس بوش الأب بحرصه أن دخول بغداد كان سيزيد الدور الأمريكى فى المنطقة تعقيداً ويهدد الائتلاف



يركز «بات بوكانان» من جانبه على الشخصيات اليهودية ضمن المحافظين الجدد والذين يصفهم بـ «صناع الشر» وهو يلقى بتبعية الحرب على العراق على هؤلاء «اليهود»

الدولى الواسع الذى تشكل بقيادة الولايات المتحدة وتحت مظلة الأمم المتحدة ممثلة للشرعية الدولية، وبالتالى تجنب بوش الأب ما أقدم عليه بوش الابن بعد ذلك بأكثر من عقد من الزمان، ربما أيضاً - ولو جزئياً - بتأثير من المحافظين الجدد.

وإذا تناولنا الملاحظة السادسة نجد أنها تتعلق بما ورد فى الكتب محل العرض والتحليل هنا بشأن موقع إسرائيل فى الحكم على فترة حكم الرئيس بوش الابن. وبينما يرى «كلارك» أن إدارة الرئيس بوش لم تبد أى حساسية تجاه التحرك بجدية للظهور بمظهر المهتم بالصراع العربى/ الإسرائيلى، أو حتى الفلسطينى/ الإسرائيلى أو بمظهر الساعى للتوازن فى رؤيته باعتبار الولايات المتحدة مفترض أنها الوسيط فى هذا الصراع، كما اتهم الإدارة الحالية بأنها فى أفضل الأحوال لم تمنح هذا الصراع سوى اليسير من الاهتمام والوقت، وهو ما يمثل فرصة لأعداء الولايات المتحدة فى العالم العربى والإسلامى للإشارة إلى هذا النقص وإبراز أن واشنطون لا تهتم بأهم قضية تهم العرب والمسلمين.

أما «هالبر وكلارك» فيتساءلان فى كتابهما إن كان من المصادفة أن تكون المجموعة التى دفعت باتجاه الحرب على العراق عام ٢٠٠٣ هى نفس المجموعة تقريباً من المحافظين الجدد التى أعدت بقيادة «ريتشارد بيرل» و«دوجلاس فايث» تقريراً رفعته إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى اليمينى الليكودى حينذاك «بنيامين نيتنياهو» فى النصف الثانى من التسعينيات من القرن الماضى تدعو فيه إلى تعاون أمريكى/إسرائيلى فعال، سواء معلن أو سرى، لإسقاط الحكومات القائمة فى سوريا والعراق، وتساءلا عما إذا كانت حرب العراق تفيد الولايات المتحدة أكثر أم إسرائيل.

ويركز «بات بوكانان» من جانبه على الشخصيات اليهودية ضمن المحافظين الجدد والذين يصفهم بـ «صناع الشر» Evil Doers وهو تعبير انجيلى كما ذكرنا من قبل - ولكن دون أن يشير إلى دور قياديين فى مجموعة المحافظين الجدد من غير اليهود، وهو يلقى بتبعية الحرب على العراق على هؤلاء «اليهود» من المحافظين الجدد. أما «بيتر ورووشيل شفايزر» فيتحدثان عن الإرث اليهودى المسيحى المشترك فى المكون الدينى للرئيس بوش الابن، ويركزان على تأثير العهد القديم على بلورة الرئيس للعديد من آرائه واستراتيجياته السياسية.

ونلحظ فى كتاب «مان» هنا وهناك إشارات إلى الارتباطات اليهودية أو الصهيونية أو الإسرائيلية لهذه الشخصية أو تلك من الشخصيات القيادية فى الأمن والدفاع والسياسة الخارجية فى إدارة الرئيس بوش الابن. ومن جانبهما، فإن «بيرل وفرام» يصفان ضمنياً أحياناً وصراحةً أحياناً أخرى العداء لإسرائيل بما يساوى العداء للولايات المتحدة، مشيرين إلى أن على الولايات المتحدة التزاماً بالحفاظ على أمن إسرائيل ودعمها - ودوماً بالشكل الذى تراه الأخيرة - ومرددين المبررات التقليدية لتلك المقولة، خاصة تلك ذات الطابع الحضارى والثقافى المتصلة بوحدة الانتماء للحضارة الغربية الحديثة وقيمها من جهة ووحدة المرجعية التراثية اليهودية/المسيحية من جهة أخرى مع ما يتضمنه ذلك من إشارة إلى الديمقراطية الإسرائيلية (الوحيدة فى الشرق الأوسط) وربط أى دور أمريكى فى عملية السلام بين العرب والإسرائيليين بوقف العداء للسامية ولإسرائيل أو التحريض عليها بين العرب وبناء نظم «ديمقراطية» فى الدول العربية، وغير ذلك من معايير مكررة من جهة ولكنها تزداد تكبيلاً من جهة وتمتلئ بالثقوب المتزايدة فى الاتساع لإسرائيل من جهة أخرى.

وآخر ملاحظاتنا فى هذا المقال النقدى التحليلى هى تلك المتعلقة بمجمل الموقف من العرب والمسلمين، وبالطبع تناولنا أجزاء منها فى الملاحظات الخاصة بحرب العراق والحرب على الإرهاب والصراع العربى/ الإسرائيلى. ولكننا نضيف إليها هنا فى الإطار العام للرؤية. فـ «كلارك» يؤكد الحاجة للاقتداء بما قامت به الولايات المتحدة فى حربها ضد الشيوعية عندما ساعدت الأحزاب الديمقراطية المسيحية فى أوروبا الغربية وأمريكا اللاتينية على التصدى لأفكار الشيوعية بل وعندما أيدت حركات إسلامية ضد الاتحاد السوفيتى ونظم يسارية أخرى كما فى أفغانستان. وتكون الحملة الجديدة موجهة لإعلاء قيم التسامح بين الديانات المختلفة ومعالجة الظروف الاقتصادية والثقافية التى تغذى مشاعر الكراهية والحث على توسيع رقعة المشاركة السياسية، وهى أفكار تذكرنا بأفكار ومبادرات الإدارة الأمريكية الحالية بشأن الدعوة لـ «الإصلاح» فى الشرق الأوسط والإعلان عن حملة امريكية لدعم التحول نحو الديمقراطية من جانب الدول العربية والإسلامية. ويتناول «كلارك» فى السياق نفسه موضوعى إصلاح نظم التعليم وتقديم المساعدات الاقتصادية، ويؤكد أن التنوع والحرية والأمن قيم مشتركة للبشر. وهو ما يردده الرئيس بوش أيضاً، ولكنه يبرز أن الولايات المتحدة بمحاولاتها فرض أيديولوجيتها عبر الحرب تفتقد الحجة لمقارعة الإسلاميين المتطرفين الذين يسعون هم أيضاً لفرض أفكارهم بالعنف، ويحذر من تحرك واشنطون ضد نظم عربية وإسلامية أخرى بعد العراق لأن هذا سيحقق نبوءة «صمويل هنتنجتون» الخاصة بصدام الحضارات حيث مشاهد العنف فى العراق تعمق كراهية العرب والمسلمين للولايات المتحدة. وحث «كلارك» الإدارة الأمريكية على التشاور مع أصدقائها فى صفوف العرب والمسلمين.

وبالمقابل يواجهنا «بيتر ورووشيل شفايزر» بصدمة القول أن الإرهاب ناتج عن صعوبات يواجهها الإسلام فى التأقلم مع النظام القيمى الغربى السائد فى العالم حاليا. وبالرغم من اعتراض «بوكانان» على الحرب فى العراق، فإنه يتحدث بشكل سلبى عن النخب الثقافية غير المسيحية فى العالم، ويتحدث عن تخوف المسلمين من الثقافة الأمريكية المهيمنة عالمياً أكثر من الخوف من الاحتلال العسكرى، كما انه - وبدون مناسبة - يشيد بالحملات الصليبية التاريخية ضد العالم الإسلامى. أما «فرام وبيرل» فيشيران الى ما على العالم الإسلامى عمله للحاق بركب الحداثة والتحضر والديمقراطية والتسامح. ويعودان بالكثير من مشاكل العالم الإسلامى بل العالم بأسره على الأفكار السائدة والثقافة المهيمنة فى بلدان المسلمين وهى نظرة تجمع بين «الحس الرسالى» من جهة و«النظرة إلى أدنى» من جهة ثانية وتأكيد التمايز مع إنكار المسئولية عن معاناة الآخر من جهة ثالثة.

وأخيراً، كيف ستنعكس هذه الكتب وما ورد بها على الانتخابات الرئاسية الأمريكية وما سيصاحبها من انتخابات تشريعية ومحلية فى نوفمبر ٢٠٠٤؟ ويبقى هذا سؤالاً مفتوحاً تجيب عليه الأيام القادمة. ولكن الثابت أن حسابات الماضى لن تكون المرجعية للمواطن الأمريكى العادى عندما ينتخب بل سيحكمه واقع يعايشه، سواء فيما يتعلق بأوضاع اقتصادية أو خدمات اجتماعية أو مطالب قانونية ودستورية، أو حالة الأمن الداخلى، أو الوضع فى العراق، وبدرجة أقل فى أفغانستان، لتشكل هذه الاعتبارات أطراف المعادلة الانتخابية القادمة. ■

استراتيجية الحرب الاستباقية الأمريكية..

الرئيس الأمريكى جورج بوش مشهور بصفات عديدة مثيرة للجدل، حتى لا نقول مرفوضة، أبرزها العناد والتشبث بالرأى. ورغم أن تطورات الأحداث فى العراق أثبتت خطأ استراتيجيات كثيرة طبقتها الإدارة الأمريكية وفى مقدمتها استراتيجية الحرب الاستباقية إلا أن بوش أصر، فى بداية سبتمبر الماضى خلال كلمته فى مؤتمر الحزب الجمهورى الذى رشحه للرئاسة، على أنه غير نادم وسينفذ هذه الاستراتيجية مرة أخرى لو تطلب الأمر.

كاتب هذا المقال يخلص بعد تحليل معمق عسكريًا وسياسيًا إلى أن عقيدة الحرب الاستباقية تموت الآن فى العراق.

المحــرر

■■ يبدو التناقض شديداً فى صورة الولايات المتحدة على جانبى يوم التاسع من أبريل ٢٠٠٣ وهو اليوم الذى شهد أرتال المدرعات الأمريكية تهدر فى الرصافة والكرخ دون رقيب أو حسيب أو مقاوم فى إعلان صريح لنصر أسطورى خاطف احتلت فيه بغداد، وتلاشى معه نظام حكم سلطوى بغيض، وتأكدت معه سطوة لامعة غير مسبوقة لقوة عظمى فريدة فى قوتها وفى نزعتها لتوظيف العنف أداة رئيسية فى سياستها الخارجية، وإدارة شئون علاقاتها الدولية.

الصورة قبل يوم احتلال بغداد تتداخل فى خلفياتها مشاهد الولايات المتحدة فى مطلع التسعينيات، قوة عظمى وحيدة خرجت منتصرة فى حربها الباردة الكونية أمام الاتحاد السوفيتى الذى انهار وتفكك فى أواخر العام ١٩٩١، وقبلها فى حربها الساخنة الإقليمية ضد العراق فى أوائل ذات العام، والتى استعرضت فيها قدرات عسكرية غير مسبوقة ودشنت لعصر ثورة جديدة فى الشئون العسكرية كانت قد بشرت بها منذ مبادرة الدفاع الاستراتيجى SDI التى تبناها الرئيس الأسبق رونالد ريجان فى منتصف الثمانينيات، وفى ذات الخلفية أيضاً تتراءى مشاهد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وتهاوى برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك، ومعها كان الغضب الذى أصاب العالم عاصفاً على الإرهاب الفاعل، والتعاطف كان بالغاً مع الضحية وبدا آنذاك أن العالم قد احتشد صفاً واحداً خلف الولايات المتحدة لمواجهة الذين نفذوا هذه الجريمة البشعة.

الصورة التى لم تكن فى الحسبان هى صورة الولايات المتحدة فى اليوم التالى لدخول قواتها بغداد، قوة عظمى تبدو شبه وحيدة فى حربها ضد الإرهاب، تفنن رئيسها وإدارته فى تمزيق صفوف المؤيدين فى أنحاء العالم وبعثرتها على نحو مذهل، فقد حل مصطلح «الإرهاب» محل وصمة «الشيوعية» كتهمة تلصق بمن يناهض الهيمنة الأمريكية، وعلى المستوى الدولى فالتهديد الأمريكى قائم للجميع من ليس «معنا» فهو «ضدنا» ولا مجال لحيادية أو تجنب لعواقب عاتية، وعلى المستوى المحلى أصبح معياراً لامتحان الولاء، والتعاون، والخير والشر وسوية النفس، فليست هناك منزلة وسط، فالحرب على «الأشرار» واجب أخلاقى على كل إنسان متحضر، والغريب أن «الإرهاب» الذى تحاربه الولايات المتحدة ما يزال دون تعريف أو نهاية محددة، بينما «الأشرار» انحصروا فى المسلمين/ العرب مهما حاول الرئيس التظاهر باحترام دياناتهم وثقافتهم. وهكذا تبدو المشاهد الخلفية لصورة اليوم التالى لدخول الأمريكيين بغداد تحتوى آثار دمار ورائحة موت لثلاث حروب شنتها إدارة بوش خلال أقل من عامين: الحرب فى أفغانستان التى أزالت نظام طالبان الحاكم والمتواطئين معه فى تنظيم القاعدة، و«الحرب على الإرهاب» الأوسع نطاقاً لتمزيق الشبكات والخلايا الإسلامية «الإرهابية» حول العالم من إندونيسيا شرقاً إلى أراضى الولايات المتحدة غرباً باستخدام قدرات المخابرات وقوة فرض القانون. ثم الحرب على العراق، فيما يزعم ظاهرياً أنه لتغيير نظام حاكم يحوز أسلحة دمار شامل ضخمة ويملك إرادة استخدامها، وعلى صلات وثيقة بمنظمات إرهابية دولية، وتبدو وسط تلك المشاهد لقطات لافتة شديدة الوضوح عميقة الأثر منها مكان البرجين فى نيويورك وقد تمت إزالة الحطام عنه وأصبح ساحة كبيرة مهيأة للبناء عليها، وكذلك مبنى البنتاجون وقد عاد إليه رونقه بعد إعادة بناء الجناح المدمر فيه، بينما فى المدن العراقية تبدو سحب الدخان الناجمة عن انفجارات العبوات الناسفة التى زرعت على جوانب الطرق مصحوبة بهياكل معدنية لآليات أمريكية مدمرة، وضحايا من المدنيين ومن قوات التحالف الذى شكلته وقادته الولايات المتحدة، إضافة إلى طائرات النقل الضخمة التى تعود بنعوش هؤلاء الجنود إلى وطنهم دليلاً دامغاً على أن وجود أكثر من ١٣٨ ألفاً من قوات التحالف منهم حوالى ١١٤ ألفاً من القوات الأمريكية لم يكن ضامناً. وربما لن يكون. لإدامة نصر بدا بريقه لامعاً وأسطورياً فى صباح يوم ربيعى بغدادى خادع للرئيس الأمريكى وشلة الرجال الخطرين المحيطين به فى البيت الأبيض وفى البنتاجون على وجه التحديد.

التناقض بين الصورتين على جانبى اليوم التاسع من أبريل ٢٠٠٣ يطرح تساؤلاً حول ذلك التحول الدراماتيكى المذهل من عنفوان تقدم عسكرى أمريكى حاسم وسريع عبر الأرض العراقية استغرق قرابة ثلاثة أسابيع من صفوان فى أقصى الجنوب إلى تكريت مسقط رأس الرئيس العراقى مروراً بالعاصمة بغداد قاطعاً مسافة تزيد على ٨٠٠ كم كاسحاً ومدمراً بقايا آلة عسكرية متقادمة للخصم، إلى تعثر عسكرى أمريكى واضح على الأرض هناك فى ضبط الأمن وفرض القانون ووقف نزيف الخسائر البشرية فى الجنود الذين يتهيأون كل لحظة لاستقبال هجوم خاطف أو تفجير لافح. من غطرسة أمريكية مترفعة أدارت ظهرها للمجتمع الدولى ومؤسساته وقررت الانفراد بشن حرب وغزو دولة دون صك دولى يبيح ويبرر لها ذلك العمل، إلى هرولة أمريكية منهكة بين مبنى البيت الأبيض فى واشنطن ومبنى الأمم المتحدة فى نيويورك فى سعى دءوب لاستصدار قرارات دولية من مجلس الأمن توفر لها غطاء شرعية دولية للاحتلال كما فى القرار ١٤٨٣ فى الثانى والعشرين من مايو ٢٠٠٣، وانتهاء بالقرار ١٥٤٦ فى الثامن من يونيو ٢٠٠٤ الذى ينهى حالة الاحتلال شكلياً ويحول قوات التحالف الغازية إلى قوة متعددة الجنسيات تنعش الآمال الأمريكية فى استجلاب قوات من دول أخرى تبدو حذرة حتى الآن فى إعانتها على الخروج من ورطتها فى هذا البلد.

السعى لسبر غور هذا التناقض يقودنا لتلك الإجابة الأمريكية الخاطئة والمتأخرة فى بدايات العام ٢٠٠٢ على أسئلة صحيحة وملحة طرحت فى بدايات العام ١٩٩٢ وتحديداً بعد التفكك المدوى للاتحاد السوفيتى فى ديسمبر من

جاءت عقيدة بوش محصلة لتقاطع عوامل ثلاثة فى لحظة تاريخية لتؤكد على انفرادية غير معهودة بتحديد العدو واتهامه. وعلى معاقبته، وعلى استباقية غير مسبوقة فى مهاجمته وضربه من حيث لا يحتسب وفى أى مكان فى العالم

الأفـــول مبكـــرا فى العـــراق!

صـــفـــوت الـــزيـــات

العام ١٩٩١ والانفراد الأمريكى بقمة نظام دولى بدت فيه القوى الدولية الأخرى عند السفوح البعيدة، وهو ما عبر عنه آنذاك جوزيف ناى المفكر الأمريكى الشهير بقوله «ستستمر معاناة روسيا كنتيجة للضعف الاقتصادى وإصلاحاتها مسألة ستأخذ عقوداً وليس سنوات، والصين دولة نامية وعلى رغم معدلات نموها المرضية فإنها ستستمر كذلك حتى القرن القادم، أما أوروبا التى تتكافأ تقريباً مع الولايات المتحدة سكانياً واقتصادياً فإنها تفتقد الإدارة السياسية الواحدة التى كان يمكن فى حالة توفرها أن تجعل منها قوة دولية عظمى، وبالنسبة لليابان فهى تملك قوة اقتصادية وتكنولوجية مرموقة، ولكنها تفتقر إلى القوة العسكرية.

إذا كانت الأسئلة حول كيفية إدارة نظام دولى جديد وغير مسبوق تقوده قوة عظمى وحيدة وفريدة أيضاً فى حجم ونوعية قوتها القومية؟! وهى أسئلة صحيحة بل ومشروعة لهذه القوة العظمى بحكم الدور وباعتبار المسئولية، لكن الإجابة التى جاءت متأخرة بمسافة عقد كامل من الزمن وهى استراتيجية جديدة للأمن القومى، أطلق عليها ما اصطلح على تسميته باستراتيجية «الحرب الاستباقية» Pre-emptive War كانت الإجابة الخطأ التى بدأت إرهاصات صياغتها على لسان الرئيس الأمريكى فى خطاب حالة الاتحاد فى يناير ٢٠٠٢ بقوله «لن أنتظر على الأحداث فيما يدلهم الخطر، ولن أقف متفرجاً فيما تقترب منا التهلكة.. إن حربنا على الإرهاب قد بدأت فعلاً، ولكنها ما تزال فى بدايتها. إن هذه الحملة قد لا تنتهى فى زماننا، ولكنها يجب أن تشن فى زماننا. إننا لا نستطيع أن نتوقف فجأة.. إن التاريخ يهيب بأمريكا وحلفائنا أن نعمل، وأنه لمن مسئوليتنا وخصائصنا أن نحارب حرب الحرية». هذه الكلمات امتزجت فيها الدعوة لنشر القوة الإمبراطورية فى العالم بديلاً عن الدبلوماسية، وفكرة الحرب الاستباقية بديلاً عن الاحتواء والردع، والاعتقاد الراسخ بأن الولايات المتحدة فى مهمة أخلاقية لنشر وتعزيز قيم الحرية كلفها بها التاريخ!

إن التناقض فى صورة القوة العظمى الوحيدة على جانبى يوم التاسع من أبريل ٢٠٠٣ يشير إلى استراتيجية الأمن القومى الجديدة التى صدرت وثيقتها الرسمية من البيت الأبيض فى ١٧ سبتمبر ٢٠٠٢، وأطلق عليها فيما بعد عديد من الأسماء كـ«مبدأ بوش» وعقيدة «الحرب الاستباقية» أو «الضربات الاستباقية»، وجاء تطبيقها العملى الأول فى الحرب التى شنتها الولايات المتحدة وبريطانيا ضد العراق فى ربيع ٢٠٠٣ والتى وضح من نتائجها الوهن الشديد لهذه العقيدة والتى ربما تقود إلى موتها أو على الأقل تجميد العمل بها فى ظاهرة سياسية غير مسبوقة عند مراجعة تطور السياسات الخارجية للقوى العظمى فى التاريخ المعاصر الأمر الذى يدفع لتناول هذه العقيدة الاستراتيجية الظاهرة وما آلت إليه من خلال استعراض العوامل الدافعة لإطلاقها، ومعوقاتها الأساسية، وصولاً إلى ماهية الجدل الذى أثارته، والوهن الذى أبرزته فى ساحة الحرب الأمريكية ضد العراق.



عـوامـل دافـعـة:

ثلاثة عوامل أخذت مسارات مختلفة جاءت للتقاطع فى لحظة تاريخية لتنتج هذه العقيدة الاستراتيجية فى خريف العام ٢٠٠٢، وقد تكون نقطة بدء مسار كل منها مختلفة من حيث الزمان والمكان، لكن المؤكد أن نقطة التقاطع للجميع كانت واحدة.

العامل الأول: وجود استراتيجية أمن قومى أمريكية متقادمة تأسست ووظفت

لإدارة الصراع فى عصر الحرب الباردة ونظام القطبين على مدار أربعة عقود وأكثر، اعتمدت من جانب الولايات المتحدة على فكرة الاحتواء المرتكز على ردع الخصم عن القيام بعمل أو تصرف يضر بأمن ومصالح الولايات المتحدة، وذلك بدفع الخصم ذاته إلى استنتاج أن التكلفة التى سيدفعها سوف تزيد على تلك المنافع التى سيجنيها من وراء هذا العمل أو التصرف. وقد تطور الردع من جانب واحد . وهو الولايات المتحدة . إلى ردع متعادل بين القطبين الأمريكى والسوفيتى بدءاً من منتصف الستينيات عندما حاز كل منهما قدرات الثالوث النووى (القاذفات الاستراتيجية . الصواريخ الباليستية عابرة القارات . الغواصات النووية) مما يكفل إمكانية تلقى الضربة الأولى من الخصم والقيام بالضربة المضادة التى ستوقع بالخصم عقابًا على هيئة إبادة وطنية، وهى الاستراتيجية التى سميت بالردع القائم على الدمار المؤكد المتبادل mutual assured distraction، مع تفكك الاتحاد السوفيتى وتباعد شبح الصراع فى مستوياته الكونية أمام الولايات المتحدة، وانحصاره فى المستويات الإقليمية فإن مثل هذه الاستراتيجية القائمة على ردع الخصم عبر آليات التهديد بالانتقام، أو الحرمان من تأثير قوته العسكرية عبر إجراءات دفاعية إيجابية وسلبية، أو الإقناع بالعدول عن العمل dissuasion عبر إدراكه لقدرات وإرادة الطرف الرادع، تصبح جميعها غير ذات جدوى باعتبار الخصائص الشخصية والاستراتيجية للخصوم الإقليميين والتى لا تتسم بالعقلانية أو الرشد التى كان عليها القادة السوفييت فى تقدير حسابات العائد والتكلفة أو المكسب والخسارة والتى حكمت مسار الردع المتبادل فيما بينهم وبين الولايات المتحدة، فهذه الأخيرة أصبحت تواجه الآن أنظمة إقليمية خارجة على القانون، أو ما اصطلح على تسميته بالدول المارقة Rogue States الأكثر استعداداً . من وجهة نظر أمريكية! . على المخاطرة والتضحية بالثروات الوطنية، ثم إن عدداً منهم يمتلك أسلحة دمار شامل ينظرون إليها . خاصة الكيماوية والبيولوجية منها . باعتبارها أسلحة خيار قد تستخدم فى الفترات المبكرة من الصراع لمواجهة تفوق الغرب عامة والولايات المتحدة على نحو خاص فى مضمار الأسلحة التقليدية، كما أبرزته نتائج حملة عاصفة الصحراء المدوية فى شتاء العام ١٩٩١، ومن ثم فهى ليست ولن تكون أسلحة الملاذ الأخير كما كان الحال إبان الحرب الباردة بين القوتين العظميين.

كان كل ذلك يشير إلى احتمالات عالية لإخفاق استراتيجية الاحتواء القائم على الردع فى مواجهة خصوم إقليميين. ومعها كانت الحاجة تبدو ملحة أكثر إلى تبنى صياغة جديدة لاستراتيجية أمن قومى أمريكى جديدة تتعامل مع هذه التحديات بحقائقها ومخاطرها، وتوفر الحفاظ على السلام العالمى وعلى النفوذ الأمريكى معاً دون حدوث نتائج خطيرة وكوارث غير متوقعة. وعلى مدار عقد التسعينيات لم تكن العوامل الأخرى قد تقاربت لتضغط بقدر كاف لإنتاج استراتيجية جديدة، كما أن الإدارات الأمريكية آنذاك قد رأت ممارسة الهيمنة والنفوذ العالمى بأدواتها الخاصة التى لا تتطلب تغييراً دراماتيكيًا فى الاستراتيجية القائمة، فإدارتا بوش الأب وبيل كلينتون استخدمتا الدبلوماسية التعسفية عبر توظيف الأمم المتحدة لتأمين غطاء شرعية دولية قبل الإقدام على استخدام القوة عبر تحالف دولى . أيضًا . ضد الخصوم الإقليميين على النحو الذى شهده العالم فى حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١، وفى الصومال العام ١٩٩٣، وفى البلقان عامى ١٩٩٥ و ١٩٩٩ وجميعها أحداث تؤشر إلى سطوة القوة والنفوذ الأمريكى المصحوب بمبدأ التعددية الدولية multilateralism المحكوم بقيادة أمريكية.

العامل الثانى: وصول إدارة أمريكية جديدة إلى سدة الحكم فى يناير ٢٠٠١ يقودها رئيس قدم بحكم قضائى بدلاً من انتخابه لا تسعفه الذاكرة السياسية سوى بأفكار رسالية يقينية عن دور تكليفى إلهى بنشر القيم الأمريكية حول الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان فى أرجاء العالم ليس فقط كدور تاريخى للولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة المكلفة بذلك، ولكن كالتزام أخلاقى فى الأساس. أما غير ذلك من رسم لسياسات وإدارة لعلاقات دولية مع العالم الخارجى فقد ترك إلى مجموعة «المحافظين الجدد» neoconservatives التى تمكنت من النفاذ إلى مقاعد حاكمة فى صناعة القرار السياسى هى واشنطن بدءاً من نائب الرئيس ديك تشينى، ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد، ونائبه بول ولفويتز، ورئيس مجلس سياسات الدفاع ريتشارد بيرل، ومساعد وزير الدفاع للسياسات دوجلاس فيث، ونائب وزير الخارجية ريتشارد أرميتاج وآخرين تمرسوا فى مقاعد الإدارة الخلفية، أو فى مراكز الأبحاث اليمينية مثل «هدسون إنستيتوت» Hudson Institute، و«أمريكان انتر برايز إنستيتيوت» American Enterprise Institute، و«المعهد اليهودى للأمن القومى» الذى يطلق عليه للاختصار «جينسا» Jinsa وهو المعهد المناصر لسياسات الليكود اليمينى الإسرائيلى والذى ضم فى مجلس مستشاريه لاعبين نافذين فى إدارة بوش الابن منهم ديك تشينى، ريتشارد بيرل، ودوجلاس فيث، جون بولتون وكيل وزارة الخارجية، وجيمس وولس مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأسبق، والذى أسسه فى منتصف السبعينيات مجموعة من المحافظين الجدد المولعين بأمن إسرائيل.

هذه الشبكة للمحافظين الجدد المتأثرة بنفوذ مصالح الجناح اليمينى فى إسرائيل، والتى تعود بأصولها إلى بدايات الحرب الباردة، سواء عبر «لجنة الخطر الماثل» التى تأسست فى العام ١٩٥٠ لمواجهة الخطر الشيوعى، أو «الفريق ب» الذى أنشئ فى العام ١٩٧٦ بقرار من الرئيس جيرالد فورد لتوفير تقديرات مستقلة عن القدرات السوفيتية بعيداً عن تقديرات وكالة الاستخبارات المركزية الأكثر تعقلاً والتزاماً، وكان يرأس الفريق ريتشارد بايبس Richard Pipes أحد أبرز الصقور المحافظين آنذاك وأستاذ التاريخ الروسى فى جامعة هارفارد، والذى تعزز موقفه بعنوان لأحد مقالاته وهو «لماذا يظن الاتحاد السوفيتى أنه قادر على خوض وكسب حرب نووية؟»، وفى وقت متقارب من ذلك أنشأ مجموعة من هؤلاء المحافظين الجدد منظمة «جينسا» Jinsa التى أشرنا إليها، وحينما تولى رونالد ريجان الرئاسة فى عام ١٩٨١ كانت فرصتهم لإدخال مزيد من السياسات اليمينية المتشددة تجاه الاتحاد السوفيتى وكذلك تجاه أعداء إسرائيل.

فى أوائل عقد التسعينيات استمر المحافظون الجدد يشغلون مواقع فى إدارة بوش الأب عندما تفكك الاتحاد السوفيتى ووضح أن الخطر التاريخى الذى أشعل قلقهم قد خبا، وكان عليهم السعى من جديد لصناعة خطر آخر وأعداء آخرين فالولايات المتحدة فى قناعتهم . لا تزال تواجه أخطاراً عديدة من اتجاهات عدة، والغريب أن ما تصوره المحافظون الجدد من تهديد آنذاك وطرحوه فى وثيقة استراتيجية للبنتاجون فى العام ١٩٩٢ أعدها بول ولفويتز مساعد وزير الدفاع للسياسات فى ذلك الوقت تركز حول خطر احتمال ظهور قوة عظمى منافسة للولايات المتحدة تهدد المصالح الأمريكية فى مناطق أوروبا الغربية، وأقاليم الاتحاد السوفيتى السابق، إضافة إلى شرق آسيا وجنوب غرب آسيا، لذا فإن اليابان وألمانيا وروسيا الاتحادية تبدو خصوماً محتملة، ووجه الغرابة أن الصين لم تذكر، وكذلك «الإرهاب» الذى لم يكن قد برز بعد كخطر مفهوم، ولا كان الشرق الأوسط أو العالم الإسلامى قد أظهر بروزًا فيما عدا واحد من السيناريوهات التى تتطلع إلى حرب ضد الإرهاب إذا ما هاجم «جارته الجنوبية» التى يفترض أنها العربية السعودية، باختصار كان صقور اليمين

السياسة الخارجية للقوة العظمى الوحيدة صنعت من قبل قلة لا تمثل سكان الولايات المتحدة أو التيار السائد فى مؤسسة الخارجية

أو المحافظون الجدد يبحثون عن تهديدات فى كل الأماكن الخطأ! عندما غادروا مع بوش الأب مبانى البيت الأبيض والبنتاجون والخارجية فى يناير ١٩٩٣ يرقبون عن كثب سياسات الإدارة الجديدة لـ كلينتون التى اعتمدت مفاهيم العولمة الاقتصادية كوسيلة أيديولوجية قوية لاحتواء المعارضة للهيمنة والنفوذ الأمريكى الكونى، واعتمدت آليات العولمة التى تتضمن «مجموعة الدول الثمانى الكبار» G-٨، ومنظمة التجارة العالمية، وصندوق النقد الدولى، والبنك الدولى كأسلحة أمريكية للتسلط فى عالم وحيد القطب، ولطالما نظر المحافظون الجدد، الذين أسرعوا فى العام ١٩٩٧ لتأسيس منظمة «مشروع القرن الأمريكى الجديد» New American century Project إلى سياسات كلينتون باعتبارها مفرطة فى التنازل عن دور أمريكى مطلوب لقيادة العالم، وبكونها تتسم بالجبن والخوف على نفس النحو الذى كانت تنظر به مجموعة ريجان لسياسات إدارة كارتر الديمقراطية السابقة لها واعتبرته آنذاك «رعديداً».

ما يهمنا فى السنوات تلك التى سبقت العودة الثالثة للمحافظين الجدد مع إدارة بوش الابن ذلك التوجه السائد لديهم فى إدارة شئون السياسة الخارجية إذا ما أصبحوا متنفذين عليها والذى ضمنوه «إعلان المبادئ» التى صدر عن منظمتهم المذكورة فى ٣ يونيو ١٩٩٧ والذى دعا إلى «سياسة ريجانية تعتمد القوة العسكرية والوضوح الأخلاقى من أجل البناء على إنجازات هذا القرن الماضى وعلى عظمتنا فى القرن التالى»، كما دعا إلى اعتماد الانفرادية الأمريكية American Unitateralism فى إدارة شئون السياسة الدولية وليس التعددية multilateralism التى تفترض التفاوض مع قوى دولية أخرى بما فيها الأمم المتحدة، وإلى توافر قوة عسكرية هائلة للولايات المتحدة تتطلب زيادة ضخمة فى الإنفاق الدفاعى ولو كان ذلك على حساب تحسين الخدمات الاجتماعية للشعب الأمريكى! كان ذلك إذاً جدول أعمال راديكالياً ولج به المحافظون الجدد عتبات مبانى الإدارة الأمريكية فى العاصمة واشنطن برفقة الرئيس بوش الابن، وكان عليهم أن يتمركزوا أولاً فى مناصبها الحساسة وأن يتهيأوا لانتهاز لحظة تاريخية معينة لفرض ذلك الجدول، وهى اللحظة التى ستجىء سريعة ومذهلة فى صباح يوم صيفى بدا هادئاً ومشمساً فى كل من نيويورك وواشنطن، كان تاريخ اليوم هو الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وكانت اللحظة ارتطام الطائرات ببرجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك، ومبنى البنتاجون فى واشنطن العاصمة والتى عندها كشف النقاب عن حقيقة الدور وقوة التأثر وعمق الأثر الذى سيحدثه هؤلاء المحافظون الجدد وليس فى الولايات المتحدة فقط ولكن فى أصقاع عديدة من العالم، وهو ما عبر عنه ميخائيل ليند مدير مشروع «الاستراتيجية الأمريكية» فى «مؤسسة أمريكا الجديدة» بقوله «نتيجة لعدد من المصادفات الغريبة وغير المتوقعة، مثل اختيار جورج بوش بدلاً من انتخابه للرئاسة وأحداث ١١ سبتمبر، فإن السياسة الخارجية للقوة العظمى الوحيدة صنعت من قبل قلة لا تمثل سكان الولايات المتحدة أو التيار السائد فى مؤسسة الخارجية.. فلمعظم منقفى المحافظين الجدد فى وزارة الدفاع جذور فى اليسار، وليس فى اليمين. وهم بمعظمهم من اليهود الأمريكيين المنتمين إلى حركة الثلاثينيات والأربعينيات التروتسكية التى تحولت إلى ليبرالية معادية للشيوعية بين الخمسينيات والسبعينيات، ثم أصبحت أخيراً شكلاً يمينياً ذا نزعة إمبراطورية عسكرية لا سابق لها فى تاريخ الثقافة السياسية الأمريكية.

العامل الثالث: هجمات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ التى زودت الرئيس بوش الابن فرصة نادرة لتبرير سياسة خارجية ومجالاً لدور أمريكى جديد فى القرن الحادى والعشرين كانت بالفعل جاهزة ومتأهبة فى أجندة المحافظين الجدد المتمركزين حول الرئيس خاصة فى البيت الأبيض ووزارة الدفاع، ففى خضم هذه الفاجعة المأساوية غير المسبوقة، لن يتردد الرئيس باستدعاء المعنى الرسالى الإلهى لدور أمريكا التاريخى ليس فقط فى نشر قيم العدالة والحرية وبناء الديمقراطية فى المناطق التى انطلق منها الإرهاب، وإنما فى نشر القوة الإمبراطورية الماحقة بديلاً عن الدبلوماسية وفن إدارة الدولة لعقاب وتدمير دول مارقة منهكة القوى تؤوى الإرهابيين والبداية ستكون أفغانستان، ودول مارقة تمتلك أسلحة دمار شامل ووسائط إطلاقها على قائمة «محور الشر» التى أفرزتها تلك الهجمات وأعلنها الرئيس فى خطاب حالة الاتحاد فى يناير ٢٠٠٢ والبداية ستكون فى أضعف حلقاتها العراق. ووسط هذا الجو الصاخب المفعم بحريق الغضب والتعطش للانتقام الذى ساد الجمهور الأمريكى المصدوم وغير المتحسب لعواقب محتملة، جاءت الفرصة التاريخية للرئيس ورجاله من المحافظين الجدد ليس فقط للقفز فوق المحرمات الدستورية الأمريكية التى تحكم إطلاق آلة الحرب الأمريكية الجبارة، أو التى تؤمن الحريات المدنية والحقوق الدستورية للأمريكيين عامة وللمسلمين العرب منهم بشكل خاص، ولكن لتمرير استراتيجية جديدة للأمن القومى من أجل هيمنة دائمة وسيادة مطلقة على العالم تمنح فيها الولايات المتحدة نفسها تخويلاً مطلقاً باستباق استخدام القوة العسكرية ضد مصادر الخطر الذى تقوم هى بتعريفه وتمييزه!



هكذا جاءت عقيدة بوش محصلة لتقاطع عوامل ثلاثة فى لحظة تاريخية لتؤكد على انفرادية غير معهودة بتحديد العدو واتهامه. وعلى معاقبته، وعلى استباقية غير مسبوقة فى مهاجمته وضربه من حيث لا يحتسب وفى أى مكان فى العالم. كان ذلك ما بدا تعبيراً فى خطاب الرئيس فى الأول من يونيو ٢٠٠٢ بأكاديمية ويست بوينت العسكرية «لا يمكن كسب الحرب على الإرهاب بالاقتصار على الدفاع. يجب نقل ساحة المعركة إلى حيث يوجد العدو، ويجب تعطيل خطته ومواجهة أسوأ الأخطار قبل أن يذر قرنها. إن أمننا يتطلب إعادة صياغة للقوة العسكرية التى تقودها، قوة عسكرية قادرة خلال دقيقة على أن تضرب فى أى بقعة مظلمة من هذا العالم.

العناصر الأساسية

تنسب عقيدة الحرب الاستباقية أو ما يعرف بعقيدة بوش Bush Doctrine إلى مجموعة السياسات الخارجية المعدلة ومنهج تنفيذها التى تبناها الرئيس الأمريكى وضمنها وثيقة استراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة صدرت فى ١٧ سبتمبر ٢٠٠٢، فى إعلان عن أكبر تغيير فى السياسة الخارجية الأمريكية خلال نصف قرن، استبدلت فيها الولايات المتحدة عقيدة الاحتواء القائم على الردع للدفاع عن أمنها ومصالحها، بعقيدة تعتمد الهجمات الاستباقية ضد تهديدات ناشئة وهو ما يعنى الاستخدام الهجومى للقوة العسكرية كأداة للسياسة الخارجية الأمريكية بديلاً عن الاستخدام المؤسس على الردع بالتلويح بالانتقام والعمل على حرمان الخصم من أى جدوى لاستخدامه قوته العسكرية وهو ما يعنى فى النهاية منعه من القيام بأى عمل أو تصرف يضر بأمن ومصالح الولايات المتحدة والملاحظ أن صياغة العقيدة الجديدة مرت بثلاث مراحل، الأولى وهى الصياغة الأولية التى بادر بها الرئيس الأمريكى مباشرة فى أعقاب هجمات الحادى عشر من سبتمبر والتى تركزت حول فكرة عدم التمييز بين الإرهابيين وبين الذين يؤوونهم فى إشارة إلى الدول التى تتواجد على أراضيها منظمات إرهابية حسب قول الرئيس «إن الولايات المتحدة لن تميز بين الإرهابيين الذين ارتكبوا

هذه الأفعال، وهؤلاء الذين يؤوونهم، وجاء التطبيق الفورى لهذه الصياغة الأولية بغزو أفغانستان فى أوائل أكتوبر ٢٠٠١ فى أعقاب ممانعة حكومة طالبان فى تسليم قادة تنظيم القاعدة إلى الولايات المتحدة لمحاكمتهم، المرحلة الثانية وهى الصياغة الأوسع التى أفصحت عن تغيير كبير فى السياسة الخارجية للعب دور جديد للولايات المتحدة باعتبارها قوة عظمى وحيدة تتحمل أعباء ومسئوليات السلم والأمن الدوليين، وقد جاءت هذه الصياغة فى خطوط عامة أعلن عنها الرئيس الأمريكى فى خطابه الشهير فى كلية وست بوينت العسكرية فى الأول من يونيو ٢٠٠٢ والتى وعد فيه بقرب إصدار استراتيجية جديدة للأمن القومى سوف يقوم بإرسالها إلى الكونجرس فى غضون الشهور القادمة. المرحلة الثالثة وتمثلت فى الصياغة النهائية لوثيقة «استراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة، التى احتوت نصوص استراتيجية جديدة غير مسبوقة تعدت أهدافها مسألة الدفاع عن الولايات المتحدة إلى إعادة تشكيل عالم جديد ليس آمناً فقط، وإنما مثالى وطوباوى من وجهة النظر الأمريكية، فى نزعة غلبت عليها الدعائية لإبراز الجوانب الأخلاقية والقيمية على خلاف واقع الممارسة الكونية للولايات المتحدة المدفوعة بمصالح ذاتية وسعى دءوب للنفوذ والهيمنة.

إن القراءة الفاحصة لعبارات الوثيقة، وبعيداً عما احتوته من استعراض لنزعة مثالية تبشيرية ممزوجة برائحة غطرسة القوة وفكرة الدحر التى حلت الآن محل سياسة توازن الرعب النووى التى سادت زمن الحرب الباردة أيام الاتحاد السوفيتى السابق، تدفع المرء إلى استخلاص أربعة عناصر رئيسية لهذه الوثيقة الاستراتيجية العقائدية.

العنصر الأول: تعريف الخطر، حيث حددت الوثيقة مصادر الخطر فى كل من الجماعات الإرهابية والدول المارقة، حيث ركزت «التحديات القاتلة الجديدة تلوح الآن من الإرهابيين ومن الدول المارقة»، وركزت الوثيقة على خطورة قيام هذه الدول المارقة التى تمتلك أسلحة دمار شامل بتوفير أنواع هذه الأسلحة الفتاكة إلى المنظمات الإرهابية حول العالم بذكرها «إن الخطر المأساوى الذى تواجهه أمتنا يقع عند تقاطع الراديكالية والتكنولوجيا معاً».

العنصر الثانى: الاستباقية Preemption، وهى سياسة الحرب الاستباقية، التى بشر بها بوش الابن فى خطاب وست بوينت لأول مرة عندما أعلن عن «نقل المعركة إلى أرض العدو، وتشويش خططه ومواجهة أسوأ التهديدات قبل أن تظهر»، ثم أعيدت صياغتها بتوسع وتركيز أكبر فى وثيقة الاستراتيجية التى حددت أن «الدفاع عن الولايات المتحدة، وعن الشعب الأمريكى، وعن مصالح فى الوطن والخارج سيكون بتمييز التهديد وتدميره قبل وصوله إلى حدودنا»، واستطردت تؤكد على أن «أمريكا ستعمل ضد هذه التهديدات الناشئة قبل أن تتشكل فى صورتها الكاملة».

العنصر الثالث: الانفرادية Unilateralism، ويعنى حق الولايات المتحدة فى القيام بعمل عسكرى منفرد فى الأزمات التى لا تتوافر لها حلول دولية أخرى متعددة الأطراف ومقبولة لدى الولايات المتحدة، وقد شددت الوثيقة على هذا النهج الانفرادى فى نصها على أنه «بينما ستسعى الولايات المتحدة بدأب لحشد الدعم من المجتمع الدولى، فإننا لن نتردد فى التصرف بمفردنا إذا كان ذلك ضرورياً، لممارسة حقوقنا فى الدفاع عن النفس، وذلك بالعمل الاستباقى ضد هؤلاء الإرهابيين، لمنعهم من الإضرار بشعبنا وبلدنا».

العنصر الرابع: قوة عسكرية مهيمنة Strength beyond challenge، وتعنى أن الولايات المتحدة ستعمل على إدامة وضعها كقوة عسكرية غير مسبوقة فى التاريخ، مع عدم إتاحة الفرصة لبروز قوة عالمية أخرى يمكنها تحدى هذه القوة العسكرية الأمريكية، الأمر الذى يوفر تأمين مكانة مستقرة للولايات المتحدة على قمة العالم كقوة عظمى وحيدة، وقد نصت الوثيقة على ذلك بذكرها أن «الولايات المتحدة لديها الآن، وترغب فى الحفاظ على وضع القوة العسكرية التى لا نظير لها.. وعلى العسكرية الأمريكية إثناء الآخرين عن أى تنافس عسكرى فى المستقبل».

العنصر الخامس: نشر مبادئ الديمقراطية الليبرالية Promoting liberal democratic Principles، وهى مسألة يبدو فى ظاهرها الالتزام الأمريكى بالسعى لنشر قيم الديمقراطية والحرية لجميع الشعوب فى كل أنحاء العالم، حيث «لا توجد دولة فى العالم مالكة لهذه التطلعات، ولا توجد دولة مستثناة منها»، وهى إشارة واضحة إلى أن نشر هذه القيم لن يستثنى دولة ما أو نظاماً حاكماً ما فى العالم، وتعاود الوثيقة التأكيد على أن الولايات المتحدة ستناضل بحزم من أجل توفير متطلبات الكرامة الإنسانية التى تشمل من وجهة نظر الوثيقة «حكم القانون، تقييد السلطة المطلقة للدولة، حرية التعبير، حرية العبادة، المساواة فى العدل، احترام المرأة، التسامح الاثنى والدينى، واحترام الملكية الخاصة»، إن ما تطرحه الوثيقة يحمل فى جوهره مبررات تغيير النظم الحاكمة سواء فى الدول المارقة أو فى غيرها، فى حال اعتبارها أنظمة لا تعنى تقييم الحرية والديمقراطية، أو بمتطلبات الكرامة الإنسانية لأفراد شعوبها التى قررتها الوثيقة، وقررت معها أنه لا استثناء لدولة ما منها!

إن المحافظين الجدد الذين أعدوا هذه الوثيقة فى عام ١٩٩٢، لم يدركوا حجم الخطر المتصاعد من الجماعات الإسلامية الأصولية كما قصروا التهديد العراقى فى احتمال مهاجمته لدول الجوار الجنوبية

الجذور عام ١٩٩٢

يبدو التطابق قوياً بين وثيقة «استراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة، التى أصدرت رسمياً فى ١٧ سبتمبر ٢٠٠٢، وبين مسودة وثيقة خطيرة أعدها بول ولفوتيز فى أوائل العام ١٩٩٢ عندما كان يشغل آنذاك مساعد وزير الدفاع (ديك تشينى!) للشئون السياسية تحت مسمى «إرشاد التخطيط الدفاعى»، هى وثيقة تصدر عن وزارة الدفاع كل عامين لتوفر لكبار المدنيين والعسكريين فى الوزارة إطاراً جيوبولتيكياً لتصور الولايات المتحدة لالتزاماتها الدولية والأخطار المحتملة فى مواجهتها، وهو ما يوفر دليلاً يتولى على أساسه المسئولون تقييم قواتهم واحتياجاتهم لفترة خمسة أعوام قادمة، وتعتبر وثيقة العام ١٩٩٢ ذات أهمية خاصة باعتبارها أول إرشاد للتخطيط الدفاعى الأمريكى يصدر بعد انتهاء حقبة الحرب الباردة وأول سعى جدى لتطوير استراتيجية دفاعية جديدة للولايات المتحدة فى ظل انفرادها بقمة وقيادة العالم.

عودة إلى مسودة الوثيقة التى وزعت على كبار مسئولى البنتاجون فى ١٨ فبراير ١٩٩٢، وتسربت مقتطفات مطولة منها إلى الصحافة الأمريكية فى ١١ مارس ١٩٩٢، فقد حددت مسودة ولفويتز ثلاثة أهداف رئيسية للاستراتيجية السياسية والعسكرية الأمريكية هى بالترتيب:

أولاً: منع ظهور قوة عظمى منافسة للولايات المتحدة، وقد صاغت المسودة استراتيجية مقترحة لتحقيق هذا الهدف من خلال عدد من الإجراءات من أبرزها الحفاظ على وتطوير قوة عسكرية أمريكية مهيمنة قادرة على ردع المنافسين المحتملين من الطموح للعب دور أكبر على المستويين الإقليمى والعالمى، كذلك منع أى قوة منافسة محتملة من السيطرة على أقاليم ذات موارد كافية لدعم قوة عالمية أخرى (حددت المسودة هذه الأقاليم بأوروبا الغربية، شرق آسيا، جنوب غرب آسيا، أراضى ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى السابق)، وكان الأكثر حساسية فى هذا الموضوع إشارة المسودة إلى كل من روسيا، واليابان، وألمانيا،

والهند باعتبارها خصوماً إقليميين محتملين يمكنها أن تطور قواها لتحدى الولايات المتحدة على الأقل إقليمياً، وقد يصل بها الأمر إلى مستوى القوة العظمى المنافسة دولياً!، والغريب أن المسودة لم تذكر الصين ضمن هذه القوى الصاعدة المنافسة التى يلزم الأمر العمل على تحجيم دورها كما نصت مسودة الوثيقة!

ثانياً: حماية مصالح الولايات المتحدة ونشر القيم الأمريكية: ركزت المسودة على دور القوة العسكرية الأمريكية فى تأمين هذه المصالح على المستوى الكونى، مع تشجيع نشر أشكال الديمقراطية فى نظم الحكم بدول العالم وأنظمة الاقتصاد المفتوح، وقد حددت المسودة أربعة تهديدات رئيسية للمصالح الأمريكية شملت إعاقة الوصول للمواد الخام الحيوية وانتشار أسلحة الدمار الشامل والصواريخ الباليستية، وتهديد مواطنى الولايات المتحدة من قبل الإرهاب أو الصراعات الإقليمية والمحلية، وتهريب المخدرات إلى داخل الأراضى الأمريكية، كما وضعت المسودة تصوراً لـ ٧ سيناريوهات لمواجهة أزمات إقليمية محتملة، خصت منها الشرق الأوسط بمواجهة تهديد عراقى لجيرانه الجنوبيين. ومن الملاحظ فى هذا المجال أن المحافظين الجدد الذين أعدوا هذه الوثيقة فى العام ١٩٩٢، لم يدركوا حجم الخطر المتصاعد من الجماعات الإسلامية الأصولية كما قصروا التهديد العراقى فى احتمال مهاجمته لدول الجوار الجنوبية، وعلى ذلك فقد كان ولفوتيز ورفاقه فى عامهم الأخير فى إدارة بوش الأب يحلقون فى الفضاء الخطأ!

ثالثاً: تهيؤ الولايات المتحدة للعمل منفردة عند الضرورة: لم تأت الورقة على ذكر العمل الجماعى دولياً عبر الأمم المتحدة، بل طرحت فكرة تكوين تجمعات الغرض المحدد ad hoc assemblies التى تتشكل للتعامل مع أزمة محددة، ووفقاً لخصائص ومتطلبات تتناسب وطبيعة تلك الأزمة، والتى قد لا تستمر حتى انتهاء حل الأزمة (لاحظ التحالف الذى قادته الولايات المتحدة فى غزوها للعراق واحتلاله بعيداً عن المنظمة الدولية!)، وقد شددت الورقة على استعداد الولايات المتحدة للعمل منفردة عندما يصعب تنسيق عمل جماعى، أو فى حالة ما إذا لزم الأمر رد فعل سريع، كما أظهرت المسودة اعتزام الولايات المتحدة العسكرى فى استباق أو معاقبة استخدام أسلحة الدمار الشامل من قبل أى دولة حتى فى تلك الصراعات التى لا تمس أمن أو مصالح الولايات المتحدة.

لقد أثارت هذه المسودة فور تسريبها إلى الصحافة الأمريكية جدلاً عنيفاً فى داخل الولايات المتحدة وخارجها، وهو ما دفع الرئيس بوش الأب آنذاك إلى طلب إعادة صياغتها مرة أخرى من وزير الدفاع (نائب الرئيس الحالى بوش الابن) ديك تشينى، وقد صدرت مسودة معدلة جديدة فى ١٦ أبريل ١٩٩٢، سربت مقتطفات منها إلى الصحافة الأمريكية فى ٢٤ مايو ١٩٩٢، اتسمت بلغة أكثر دبلوماسية اختفت منها هدف «منع ظهور قوة عظمى منافسة للولايات المتحدة فى المستقبل» إلا أنها احتوت عبارات غامضة تتيح نفس الأفكار أعدها بعناية سكوتر ليبى نائب ولفوتيز آنذاك (ورئيس طاقم موظفى تشينى نائب الرئيس الحالى)، على غرار «أن الولايات المتحدة ينبغى أن تحتفظ بعمقها الاستراتيجى، وأن تتصرف فى الخارج بغية تشكيل البيئة الأمنية» فى صياغة يفهم منها وجوب استمرار الولايات المتحدة قوة عظمى وحيدة ومهيمنة باعتبار أن «العمق الاستراتيجى» يعنى مراكمة مقدراتها العسكرية وشبكة قواعدها الواسعة إلى حد يحول دون إمكانية وجود منافس لها!، كما يفهم منها أيضاً فى مسألة «تشكيل البيئة الأمنية» أن الولايات المتحدة لن تنتظر حتى ترى منافساً لها يظهر أمام عينيها، بل عليها أن تتصرف لضمان تحرك الأحداث فى اتجاه يلائم مصالحها بدءاً من العمل فى مهمات حفظ السلام ووصولاً إلى الحد من انتشار أسلحة الدمار الشامل، وهكذا فإن وزير الدفاع آنذاك (ونائب الرئيس الحالى) أسهب فى استخدام مفهومى «عمق أمريكا الاستراتيجى»، و«تشكيل البيئة الأمنية» فى جلسات الكونجرس المعنية بالموازنة الدفاعية فى هذا العام إعجاباً بالمهذبين وقناعة بدور أمريكى قادم تقود فيه الولايات المتحدة العالم وفقاً لشروطها. لقد كان ما نجح مسئولو البنتاجون من المحافظين الجدد فى فعله، خلال أشهر بعد الانهيار السوفيتى، هو رسم المخطط الأساسى لعالم جديد هيمنت وتهيمن وستهيمن عليه القوة العسكرية الأمريكية.

إن مسودة وثيقة «إرشاد التخطيط الدفاعى» فى العام ١٩٩٢ ووثيقة «استراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة» فى العام ٢٠٠٢، يوضحان درجة عالية من التطابق فيما بينهما، فالمحافظون الجدد هم نفس اللاعبين الأساسيين فى كلتا الوثيقتين، والأفكار تتطابق فى مساحات كبيرة، والقليل جداً من الاختلاف الظاهر بفعل أن منظور وزارة الدفاع فى العام ١٩٩٢ جاء محصوراً فى التهديدات العسكرية بالدرجة الأولى وفى وقت لم يكن شكل العالم الجديد عقب الحرب الباردة قد اكتمل بعد، بينما أن منظور البيت الأبيض فى العام ٢٠٠٢ وبذات اللاعبين جاء أكثر اتساعاً ليشمل تهديدات غير تقليدية ودعوات رسالية أمريكية تختفى وراءها ذات الأيديولوجية المحافظة الجديدة بجناحيها قوة عسكرية لا حدود لاستخدامها فى السياسة الخارجية، وزهو بنقاء وتفوق أخلاقى، المطلوب توزيعه خيراً وصدقة على العالم!



بين التبرير والنقد

لم تثر عقيدة استراتيجية فى التاريخ السياسى المعاصر مثل هذه الضجة المصاحبة لجدل عنيف بدأ منذ لحظة ولادتها ومازال بين نفر قليل من الداعمين لهذه الاستراتيجية وهم الدائرون فى فلك المحافظين الجدد من مراكز بحث وأجهزة إعلام يمينية أمريكية متطرفة يدعمها لوبى يهودى وجد عوائد أرباح هائلة وراء هذه الاستراتيجية لصالح المشروع الصهيونى فى الشرق الأوسط، وفى المقابل جمهور كبير من الناقدين لهذه الاستراتيجية بمحاذيرهم المتكررة والمتشنجة معاً حول المدى الذى ذهبت إليه هذه العقيدة فى تنصيب القوة العسكرية الأمريكية المهيمنة أداة أساسية فى السياسة الخارجية وانتقال وظيفتها فى الردع التى استمرت لمدى يقارب نصف القرن إلى الهجوم المسبق وفقاً لرؤية وشروط دولة واحدة عظمى تقرر مصير الحرب والسلام العالمى من منظور رؤية أيديولوجية لعدد من قاطنى البيت الأبيض ومبنى البنتاجون!

وستحاول أن نعرض لمبررات أصحاب العقيدة والداعمين لها، كما سنعرض لنقاط النقد التى وجهها الرافضون لهذه العقيدة، والتى استخدمها كلا الطرفين فى قتالهم الأدبى والفكرى على أمل كسب المعركة ولو بالنقاط على الأقل فى الفترة الزمنية التى امتدت ستة أشهر كاملة بين ١٧ سبتمبر ٢٠٠٢ عند إعلان وثيقة العقيدة الجديدة، وحتى ١٩ مارس ٢٠٠٣ لحظة اندلاع عملية «حرية العراق» أول تطبيق ميدانى لتلك العقيدة الاستراتيجية.

أولاً: مبررات الداعمين للحرب الاستباقية، يركز هؤلاء على عدد من معطيات الأوضاع الدولية القائمة، وطبيعة التهديدات الكامنة فيها والتى تدفع جميعها كمبررات نحو الأخذ بهذه الاستراتيجية لحماية أمن ومصالح الولايات المتحدة داخل الوطن الأمريكى وعبر العالم بأسره، وتتضمن هذه المبررات:

. عدم جدوى استراتيجية الاحتواء القائم على الردع التى سادت حقبة الحرب الباردة، باعتبار أن الولايات المتحدة تواجه أعداء راغبين فى المجازفة مهما كانت

عواقبها سواء على مستوى الدول «المارقة»، أو المنظمات «الإرهابية»، على عكس أعداء «الأمس» الذين حكمت حسابات العائد والتكلفة سياساتهم الخارجية وفرضت حالة السلم العالمى القائم على قناعة كاملة بتوازن الرعب النووى المؤسس على قدرة الخصم فى تحقيق دمار مؤكد متبادل ليس فقط فى الترسانة العسكرية، وإنما يتجاوزها لمستوى الإبادة الوطنية (مراكز سكانية واقتصادية وسياسية).

ـ أسلحة الدمار الشامل التى كانت تمثل قطبى النظام الدولى إبان الحرب الباردة أسلحة الملاذ الأخير، هى الآن فى يد أعداء «اليوم» الإقليميين أسلحة اختيار قد تستخدم فى افتتاحية الحرب لمواجهة ما شهدوه فى حرب الخليج الأولى من تفوق تقليدى مطلق للولايات المتحدة أطاح بواحدة من أقوى الترسانات العسكرية فى دول العالم الثالث.

ـ الخسائر البشرية والمادية غير المحتملة من قبل الولايات المتحدة فى حالة استخدام الأعداء «الإقليميين» و«الإرهابيين» لأسلحة دمار شامل، وهو مستوى من الأضرار سيكون غير مسبوق وغير محدود.

فى دراسة مقارنة لتأثير الأسلحة الكيماوية والبيولوجية والنووية على مناطق حضرية ذات كثافة سكانية بين (٣٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠) نسمة/ كم٢ باستخدام رأس حربى صاروخ باليستى زنة (١٠٠٠) كجم فإن نسبة الوفيات فى حالة رأس كيماوى به ٣٠٠ كجم من غاز الأعصاب السارس تكون فى حدود (٦٠ ـ ٢٠٠) نسمة، وفى حالة رأس بيولوجى به (٣٠) كجم من الإنثراكس تكون فى حدود (٣٠٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠٠)، وفى حالة رأس نووى قدرة (٥,١٢) كيلو طن يكون فى حدود (٢٣٠٠٠ ـ ٨٠٠٠٠).

وقد أشار الرئيس بوش إلى تلك المخاوف بقوله: «تخيلوا مختطفى الطائرات التسعة عشر، أولئك ومعهم أسلحة أخرى وخطط أخرى، هذه المرة وقد سلحهم صدام حسين. لن يحتاج الأمر إلا لتسلل قارورة واحدة، أو علبة معدنية واحدة، أو قفص واحد إلى داخل هذا البلد ليجلب علينا يوم ذعر لم نعرف مثيلاً له».

ـ أعداء «الأمس» كانوا يستخدمون وسائل تقليدية مرئية للعمل ضد الولايات المتحدة، وهو الأمر الذى يمكن رصده ومهاجمته استباقياً وفقاً لقواعد القانون الدولى التى توفر حق الدول فى الدفاع عن نفسها فى حالة وجود خطر هجوم وشيك عليها كالحشود العسكرية المتأهبة قرب الحدود. أما أعداء «اليوم» فيستخدمون أسلحة دمار شامل من السهل إخفاؤها، وكذلك إطلاقها فى سرية ودون إنذار مسبق، الأمر الذى لا يتطلب الانتظار كما فى «الأمس» حتى يتم تشكيل التهديد وبروزه على العيان مرئياً، بل يفرض الاستباق فى التعرف عليه ومهاجمته قبل أن يتشكل، مما يعنى إعادة تكييف مفهوم الخطر الوشيك ليتضمن الإمكانيات المتاحة لدى الخصوم المحتملين على النحو الذى ذكرته وثيقة العقيدة بنصها «علينا تكييف مفهوم التهديد الوشيك ليشمل إمكانيات وأهداف الخصوم الحاليين»... هكذا مجرد امتلاك الخصم لإمكانيات قد تسبب ضرراً للقوات الأمريكية أو المجتمع الأمريكى فإن ذلك سيكون عقابه تهديداً وشيكاً يبرر الهجوم الاستباقى ضد ذلك الخصم!

ثانياً: حجج الناقدين للحرب الاستباقية: من جانب الجمهور العريض من رجال السياسة والفكر الاستراتيجى المعارضين للحرب، تبرز حجج قوية تدحض مبررات هذه العقيدة الاستراتيجية فى أساسها نسوق تالياً بعضاً منها:

ـ إن هذه الاستراتيجية فى مضمونها تعنى الحرب الوقائية Preventive War التى تهاجم فيها دولة ما دولة أخرى تحت دعوى الدفاع الوقائى عن النفس دون توافر عنصر التهديد الوشيك من قبل الخصم، حيث تبرير شن هذه الحرب هو احتمال قيام الدولة الخصم بالهجوم فى المستقبل، ومن ثم فالمبادأة بالهجوم عليها يصبح مبرراً لمنع هذا الاحتمال المستقبلى، وعلى ذلك فإن قواعد القانون الدولى لا تمنح حق شن مثل هذا النوع من الحروب التى تفتقر لأى مبررات أخلاقية أو قانونية فى غياب أى خطر هجوم وشيك من قبل الخصم وهى ذات الحالة التى تطرحها هذه العقيدة الاستراتيجية الأمريكية الجديدة للمحافظين الجدد التى تقرر أن مجرد توافر الإمكانيات لدى الخصم يبرر شن الهجوم عليه وهنا يصبح الأمر «وقائياً» وليس «استباقياً»، حيث الحرب الاستباقية Pre-emptive War تشن فى محاولة لدفع أو هزيمة هجوم أو غزو وشيك أو لكسب ميزة استراتيجية فى حرب وشيكة يصعب منعها ويتوافر فيها التهديد مرئياً كالحشود العسكرية قرب حدود الدولة، أو اتخاذ أنظمة القتال أوضاعها القصوى تأهباً لشن هجماتها. وهذا النوع من الحرب يصبح مشروعاً كدفاع عن النفس ويستند على أسس أخلاقية تبرر هذا العمل الهجومى المسبق، وهو النوع الذى لم تتناوله العقيدة الجديدة رغم نسبتها إليه كـ «عقيدة حرب استباقية». فالواقع يقرر بلا جدال أنها «عقيدة حرب وقائية» غير مبررة وغير قانونية.

ـ إن نهج الانفرادية فى العمل العسكرى دون الرجوع إلى مؤسسات الشرعية الدولية، يعنى إثارة فوضى غير مسبوقة فى النظام الدولى تؤكد فكرة أن الحرب نتاج منطقى لمقولة «القوة تصنع الحق»، الأمر الذى سيتيح لقوى دولية أخرى فى النظام فرصة المبادرة بحل أزماتها مع الدول الأخرى بشن الحرب عليها طالما تأسست سابقة تغييب الشرعية الدولية، وفرضية قيام الدول من وجهة نظرها بتعريف التهديد وتحديد مستوى الخطر الوشيك كما تطرحها هذه العقيدة بقوة، وقد تنتهجها أيضاً بنفس منطق القوة دول كالهند، وإسرائيل، وروسيا الاتحادية، وربما إيران!

ـ إن مفهوم الحرب «الوقائية»، وليس «الاستباقية»، الذى تطرحه العقيدة مناهض لمفهوم الحرب العادلة Just War الذى أسس للقواعد الأخلاقية لشن الحرب منذ ما قبل قوانين الحرب التى سنها النظام الدولى المعاصر بشكله الحالى، إن من بين أبرز القواعد الأخلاقية التى تشن على أساسها الحرب العادلة هو أن تكون الحرب الملاذ الأخير الذى استنفدت قبله كل الحلول السلمية لمنعها دون جدوى، وأن تكون من أجل قضية خطيرة، وأن تتم بـ «نية سليمة» بمعنى ألا تشن من أجل خدمة مصالح سياسية ضيقة، أو من أجل تحقيق أهداف مادية، وأن تتناسب درجة العنف المستخدم فيها مع حجم الضرر والمعاناة التى عانتها الدولة القائمة بشن الحرب من جانب الخصم. إن كل معايير الحرب العادلة تلك لا توفرها مثل هذه «الحرب الوقائية» التى تبرر شنها الولايات المتحدة بكل سطوتها العسكرية وبطشها، وهو الأمر الذى طرحه بإصرار الرئيس الأمريكى الأسبق فى رسالة مفتوحة إلى الرئيس بوش الابن قبيل شن حربه على العراق قائلاً فيها: «... بصفتى مسيحياً ورئيساً سابقاً طالما استفزته الأزمات العالمية، فقد أدركت إدراكاً تاماً ما تعنيه مبادئ الحرب العادلة، ومن الواضح أن هجوماً أحادياً إلى حد كبير مثل الذى يخطط له الآن على العراق لا تنطبق عليه هذه المبادئ والمعايير، وليست هذه قناعتى وحدى وإنما هى تكاد تكون قناعة كافة القادة الدينيين على نطاق العالم باستثناء أولئك القلة الذين يتحدثون باسم رابطة الكنائس المعمدانية الجنوبية الذين طالما يتأثرون فى مواقفهم بما يمليه عليهم التزامهم تجاه إسرائيل اعتماداً على إيمانهم بلاهوت الأخرويات».

ـ تأكيد العقيدة الاستراتيجية الجديدة بأن الولايات المتحدة ستبقى وتحتفظ بقوة عسكرية غير قابلة للتحدى، وقادرة على «إثناء الآخرين عن أى تنافس عسكرى مستقبلى»، يعنى أن الولايات المتحدة لن تستثنى أى دولة فى العالم من العمل على إرغامها أو إقناعها بتقبل تفوق عسكرى أمريكى غير محدود وغير مسبوق عليها، وهو ما سيطرح حساسية فائقة وشكوكاً عميقة حول نوايا ودور الولايات المتحدة تجاه الدول الكبرى الأخرى فى النظام الدولى خاصة الصناعية المتقدمة منها مثل ألمانيا وفرنسا واليابان، وتلك القوى الواعدة

لقد كان ما نجح مسئولو البنتاجون من المحافظين الجدد فى فعله، خلال أشهر بعد الانهيار السوفيتى، هو رسم المخطط الأساسى لعـالم جـديد هيمنت وتهيمن وستهيمن عليه القوة العسكرية الأمريكية

دولياً كالصين والهند وروسيا الاتحادية.

هكذا كانت تبريرات الداعمين، وحجج الرافضين لاستراتيجية «الحرب الاستباقية» التى هى فى الواقع الأكاديمى والعملى استراتيجية «الحرب الوقائية». وإذا ما تمعنا فى النقاط الرئيسية التى عرضنا لها لكلا الطرفين، ثم حاولنا أن نحمل معنا عناصر هذه الاستراتيجية الأربعة الرئيسية، وهى الاستباقية، والانفرادية، والقوة العسكرية المهيمنة، ونشر قيم الديمقراطية والحرية إلى حيث ساحة الاختبار الأولى لها على المسرح العراقى لعلنا نستطلع على الأرض نتائج هذا الاختبار ثم يكون عندئذ اختيارنا أى الفريقين كان الصواب حليفه!

فى المسرح العراقى تأكد أن الاستباقية، التى تعتمد على توافر خطر التهديد الوشيك، لم تجد على الإطلاق ما يبررها، فالعراق لم تكن لديه آنذاك أسلحة دمار شامل ولم ينشر ميدانياً أى أنظمة إطلاق لها فضلاً عن استخدامها، ومن ثم فإن الولايات المتحدة وحليفتها بريطانيا لم يوفرا دليلاً واحداً على تلك الحيازة المزعومة رغم عمليات المسح المحمومة والشاملة لكل مرافق وأراضى هذا البلد منذ اللحظة الأولى لاحتلاله وسقوط نظامه. لقد كان هذا الخطر المزعوم بتهديد وشيك أداة الإدارة الأمريكية ومحافظيها الجدد لشن حرب لها أهدافها الأخرى عبر بناء إجماع وطنى داخلى مشحون بعاطفة وروح انتقام لأحداث الحادى عشر من سبتمبر، ولعل هذا ما أكده مهندس غزو العراق نائب وزير الدفاع الأمريكى بول ولفوتز بقوله «إن قرار اختيار أسلحة الدمار الشامل كمبرر للغزو اتخذ لأسباب بيروقراطية، لأنه المبرر الذى يمكن أن يوافق عليه كل فرد»!!

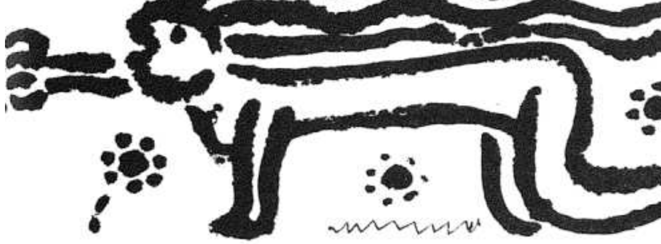
فى المسرح العراقى تأكد وهن العمل الانفرادى والخروج عن الشرعية الدولية وازدراء المؤسسات الدولية، منذ اللحظة الأولى لانتهاء عملياتها العسكرية الرئيسية فى العراق عندما بدأت تواجه سلسلة مآزق متتالية دفعتها فى كل مرة إلى الإسراع إلى مجلس الأمن سعياً لإيجاد حلول لها والخروج بقرارات دولية تغطى بها ما بدا إخفاقاً واضحاً فى مواجهة مواقف لم تتحسب لها، بدءاً من مأزق الشرعية فى احتلالها للعراق والتصرف باسمه فى المحافل الدولية وهو ما وفره لها قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣ فى الثانى والعشرين من مايو ٢٠٠٣، ثم مأزق الاعتراف الدولى بصيغة «مجلس حكم انتقالى» للعراقيين وهو ما وفره لها قرار مجلس الأمن رقم ١٥٠٠ فى الرابع عشر من أغسطس ٢٠٠٣، ثم مأزق الخسائر المتصاعدة فى القوات الأمريكية بفعل المقاومة العراقية والسعى الأمريكى لتدويل هذه القوات ومشاركة دول أخرى، وهو ما وفره مجلس الأمن رقم ١٥١١ فى السادس عشر من أكتوبر ٢٠٠٣، والذى أذن بتشكيل قوة متعددة الجنسيات تحت قيادة موحدة لتوفير الأمن والاستقرار فى العراق، ومن ثم منح غطاء دولياً لدول العالم التى قد ترغب فى إرسال قوات إلى العراق بعيداً عن وضع الاحتلال القائم، ثم أخيراً القرار ١٥٤٦ فى الثامن من يونيو ٢٠٠٤ والذى يعيد تشكيل حكومة عراقية مؤقتة تتولى كامل المسئولية والسلطة بحلول ٣٠ يونيو ٢٠٠٤ وقت انتهاء الاحتلال وانتهاء وجود سلطة الائتلاف المؤقتة، كما أعاد التأكيد على الجدول الزمنى المقترح للانتقال السياسى للعراق إلى الحكم الديمقراطى بحلول ٣١ ديسمبر ٢٠٠٥، إضافة إلى تنظيم عمل القوة متعددة الجنسيات وفقاً لرسالتى كل من وزير الخارجية الأمريكى ونظيره العراقى إلى مجلس الأمن الدولى حول إنشاء ترتيبات لإقامة شراكة أمنية بين حكومة العراق ذات السيادة والقوة المتعددة الجنسيات. وفى كل ما سبق فإن ما بدا فى أيام التحشد العسكرى الأمريكى على حدود العراق الجنوبية قبل عملية الغزو من قدرة الدولة العظمى على تجاوز غطاء الشرعية الدولية والمضى قدماً فى العمل منفردة، قد تأكد ليس فقط صعوبته ولكن استحالته، وهذا ما أوضحته سلسلة القرارات الدولية التى هرولت الولايات المتحدة لاستصدارها من مجلس الأمن، الأمر الذى أقر به الرئيس الأمريكى أخيراً بقوله «أعترف بأن كل أصدقائنا عارضوا قرارنا فرض تطبيق قرارات الأمم المتحدة وإبعاد صدام حسين عن السلطة، لكننا لا نستطيع أن نترك خلافات الماضى تعرقل واجباتنا.. إن قرار اللجوء إلى المنظمة الدولية اتخذ لأن بعض الدول طلبت تفويضاً دولياً قبل إرسال قواتها إلى العراق» !

فى المسرح العراقى أيضاً تأكد وضع القوة العسكرية المهيمنة الصعب عندما تواجه بيئة «الحرب غير المتناظرة» asymmetric Warfare، التى تدار بأسلوب حرب العصابات غير التقليدى، فهذه القوة التى شنت حرباً تقليدية سريعة وحاسمة دمرت فيها قوة الخصم العسكرية واقتحمت عاصمته فى فترة لم تتجاوز ثلاثة أسابيع وبخسائر بشرية بالغة التدنى فى صفوفها (١٣٧ قتيلاً منهم ١٢٦ قتيلاً فى عمليات قتالية)، تواجه الآن على الصعيد الأمنى وضعاً حرجاً بفعل عمليات المقاومة (وكذلك الإرهاب) التى تشهدها المدن العراقية والتى لم تستطع معها فرض الأمن وإقامة القانون العام فى الوقت الذى تستمر فيه خسائرها البشرية فى التصاعد (وصلت الخسائر البشرية من القتلى فى صفوف الجنود الأمريكيين فى نهاية شهر مايو ٢٠٠٤ إلى ٨٧٤ قتيلاً) حتى أن شهر أبريل ٢٠٠٤ كلف القوات الأمريكية ١٥٧ قتيلاً، وهو رقم يزيد عن كلفة القتلى الأمريكيين إبان فترة العمليات العسكرية الرئيسية التى بدأت فى ١٩ مارس ٢٠٠٣ وانتهت فى أول مايو ٢٠٠٣ والتى أشرنا إليها سابقاً (١٣٧ قتيلاً).

فى المسرح العراقى كذلك تأكد وهن نشر قيم الديمقراطية والحرية، والتى تستوجب تغيير النظم الحاكمة فى الدول المارقة وغيرها. فالتفكير الرغبوى للمحافظين الجدد الذى يتصور أن مجرد تغيير النظام الحاكم سيوفر فى المقابل نظاماً بديلاً حضارياً وإنسانياً متقدماً يراعى تلك القيم المطلوب نشرها قد وضح خطؤه فى العراق الذى يبدو غارقاً فى فوضى عارمة لتيارات متضاربة ومتصارعة تستدعى العصبيات المذهبية والإثنية والعشائرية على حساب مفهوم «الدولة، الأمة، والمواطنة»، وهاهى تنهمك فى السعى لمكاسبها السياسية سواء شمل ذلك اقتسام السلطة على أسس طائفية وإثنية وجغرافية، أو التهيؤ لحكم ذاتى يمهد الطريق إلى انفصال قادم عن الوطن كما فى الحالة الكردية مهما تلونت العبارات والتوت فى داخلها النوايا. ثم إن متطلبات الكرامة الإنسانية التى بشرت بها الوثيقة الاستراتيجية للأمن القومى الأمريكى والتى أكدت على حرية التعبير، وحرية العبادة، والتسامح الإثنى والدينى، وحكم القانون، إلى جانب أشياء أخرى عديدة، ضلت طريقها فى ساحة العراق، بل وتأكد عدم مصداقيتها من قبل أصحابها الذين بشروا بها، ويكفى فقط أن نراجع ما حدث من إهانة إنسانية فى سجون العراق التى أشرف عليها ومارسها قادة وجنود الولايات المتحدة فى أسلوب منهجى تم التخطيط له مسبقاً وبعلم ودراية كاملة من قبل كبار المسئولين فى وزارة الدفاع الأمريكية، وهو ما كشف عنه تقرير الجنرال «تاجوبا»، وكشفت عنه أيضاً جلسات الاستماع التى عقدها الكونجرس الأمريكى بمجلسيه.

هكذا تبدو تبعات تطبيق استراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة التى تعتمد مبدأ «الحرب الاستباقية»، التى هى فى واقع الأمر «الحرب الوقائية»، التى لا تستند لمبررات قانونية أو أخلاقية فى شن الحرب ليس على أساس تهديد قائم وشيك دائماً على أساس افتراضات باحتمال نشوء مخاطر مستقبلية، وهى ذات الاستراتيجية التى تضع تصوراً للعمل المنفرد بعيداً عن مؤسسات الشرعية الدولية، الأمر الذى جعل العالم أجمع بلغات مختلفة وعلى مستويات عدة يحلق تحليقاً أعمى، طالما أن العمى قد أصاب من يقود سرب طيرانه المحلق، وهى ذات الاستراتيجية التى حددت واجبات دور إلهى للولايات المتحدة يضطلع بتوفير متطلبات الكرامة الإنسانية لكل البشر، فجاء إهدار الكرامة الإنسانية فى سجون العراق على نحو لم يشهده بشر.. الواقع يقول إن هذه الاستراتيجية تموت الآن! ■





الصراع ضرورة حياتية

يحيى الرخاوى

■■ فيم يتنافس العالم الآن؟ كيف يتنافس؟ لأى غرض؟ لأى مدى؟ البقاء لمن؟ للأقوى؟ للأشطر؟ للأذكى؟ للأنفع؟ (أنفع لمن؟). للأكثر مالا؟ للأمضى سلاحا؟ ماذا نقدم لأطفالنا ليكونوا أحسن؟ أحسن من من؟ أحسن من ماذا؟ لماذا؟ لمن البقاء؟

هل ما زال تاريخ الحياة سلسلة من الصراعات المتتالية أو المتصلة أو المتناوبة؟ وهل ما زالت قوانين الصراعات هى هى لم تتغير على مر تاريخ التطور؟

بعد كل هذه التغيرات الرائعة الرهيبة: هل يستمر الصراع كما هو بما هو؟ هل كل ما تعلمناه من انهيار الاتحاد السوفيتى هو أن نقدس صراع الأسواق بديلا عن تقديس صراع الأيديولوجيات؟ هل كل ما تعلمناه من فشل الحروب الدينية هو أن نقلبها حروبا تقنية تتذرع بأوهام جديدة تحت عناوين صراع الحضارات أو نهاية التاريخ؟ ليكن الصراع هو قانون الحياة، وليكن العدوان غريزة أساسية لحفظ الذات فالنوع، لكن لكل مرحلة تفاصيلها الفرعية التى تستوعب القانون الأصل لتقوم بتحديثه بما يجعله يؤدى وظيفته الجديدة بما يليق بما أنجز.

حين انهار الاتحاد السوفيتى وتفككت أوربا الشرقية اختفى نوع من الصراع (الحرب الباردة) كان يقربنا من نبل صراع الحيوانات «من النوع الواحد»، والتى تكتفى بعلامات الإذعان بديلا عن القتال حتى موت أحد أطراف النزاع. اقرأ الحديث الشريف الذى معناه أن المتقاتلين المسلمين (القاتل والمقتول) هما كلاهما فى النار (لأن المقتول كان ينوى قتل القاتل)، اقرأه بتعميم يشمل كل البشر. صانعو ١١ سبتمبر وغزاة أفغانستان والعراق وفلسطين (لعلهم واحد. ولسوف ترى!!) هم جميعا فى النار (نار الدنيا والآخرة معا).

متى يعلن العمر الافتراضى للحروب؟

إذن ماذا؟ هل يمكن أن نضع فرضا يقول: إن الحروب (بما فى ذلك الإرهاب فهو حرب من نوع آخر) قد اقترب عمرها الافتراضى من نهايته؟ ومن ثم فعلينا أن نبحث عن بديل عنها يحتوى حتمية الصراع وغريزة العدوان، وفى نفس الوقت يرتقى بإنسانية الإنسان بما يليق بمرحلته التطورية، وأيضا بإنجازاته الرائعة الأحدث فالأحدث؟

أحسب أن إلحاح هذا السعى (البحث عن بديل) قد مر على وعى البشر بشكل أو بآخر عبر التاريخ، ربما من هنا بدأ تقليد ما يسمى الألعاب الأولمبية سنة ٧٧٦ قبل الميلاد، كانت الفكرة هى البحث عن تنافس أرقى. فكان على كل ولاية أن ترسل أفضل رياضييها ليتنافسوا على شرف الإله زيوس بديلا عن الحرب. هل قام هذا الإبدال أو الإزاحة أو التسامى بالواجب بديلا عن الحرب؟

الذين عاشوا أربعينيات مصر والعالم، وعاصروا حلم الاشتراكية وهو يخرج إلى التطبيق، يعرفون ماذا كانت تعنى حركة «أنصار السلام» عبر العالم. منذ ذلك الحين، وقبله بقرون طبعا، وحلم السلام يعاود كل البشر بلا استثناء، حتى مجرمى الحرب الحاليين يقومون بإبادة الأبرياء دون رحمة ودون محاكمة وهم يرفعون شعار السلام. لا يمكن أن يتحقق حلم السلام هذا - رغم إلحاح وظاهر مشروعيته - بمجرد أن نتنازل عن الحرب أو نخاف منها أو نتبين فشل الإرهاب فى تحقيق ما نتصور أنه يمكن تحقيقه بهذا الدمار والقتل. الحرب تنتهى حين ينتهى عمرها الافتراضى، (الذى يمكن تحريكه بجهودنا نحو حمل مسئولية إبداع البديل). والإرهاب يختفى حين تزول أسبابه ويتكرر فشله التطورى (وليس فقط الواقعى أو المرحلى). ربما يكون فى تلاحق المصائب والكوارث هكذا - مع تواكب الشفافية الملاحقة - ما يسمح بأن يدرك جميع الأطراف (بما فى ذلك أقوى الدول وأغباها) أن الحرب بكل تنويعاتها وتبريراتها الأحدث هى عاجزة عن تحقيق إنسانية المنتصر، بل إنها تعمل فى عكس الاتجاه، أليس القاتل والمقتول فى النار، نار الدنيا هى أن يعيش القاتل (المنتصر) أدنى من أى حيوان نبيل لا يقتل بنى نوعه مكتفيا بعلامات الإذعان. بهذه الصورة، وبتطوير الحلم البشرى اللحوح يمكن أن نقول إن الحروب على وشك بلوغ غاية عمرها الافتراضى، وأنه لم يبق إلا أن يعلن النبأ حين نكون أهلا له، حالة كوننا قد وجدنا البديل الأرقى القادر على أن يحتوى تركيبنا الغائر المبنى على دوام الصراع لاستمرار الحياة.

الحرب الباردة كانت أنبل

كان المأمول أن تصلنا هذه الرسالة بدرجة كافية بعد انهيار وتفكك الاتحاد السوفيتى، وهى إعلان يقول: إن ترسانة هذا المعسكر المتهاوى، بكل ما فيها من أسلحة وذخيرة وتعصب (دون استثناء النووية منها) لم تزد ناسه (ولا ناسنا) إنسانية كما وعدت نظريتهم الرائعة. كان المأمول أن يتعلم القاتل فى أقصى الناحية الغربية (أعنى المنتصر على الجانب الآخر) أن ترسانته هو أيضا من سلاح وأوهام أيديولوجية هى من نفس النوع، خاصة بعد أن احتوتها راديكالية أصولية سلفية ظاهرة وخفية، كان المأمول أن يتعظ المنتصر وقد أصبح مسئولا عن تعديل مسار العالم باعتباره الوريث الأوحد للقوة المنهارة. الذى حدث للأسف هو عكس ذلك تماما: أصابهم الغرور، فأعلنوا، وتحدثوا وروجوا لما يسمى صراع الحضارات، وراحوا يبحثون عن أعداء حقيقيين حتى لو كانوا تحت الأرض، كما راحوا يصنعون ثم يحاربون أعداء وهميين حتى القتل الجماعى، قتل البشر دون قتل الأوهام.

تصور كثير من الناس أن العالم قد تقدم خطوة أو خطوات نحو السلام مع اختفاء الحرب الباردة، الذى حدث هو العكس تماما. مع اختفاء الحرب الباردة (الأرقى) قفزت على السطح أعداد



والعدوان غريزة بقائية

البحث عن الحرب «البديل»

متزايدة من الحروب الساخنة جدا: حروب بين الصغار والصغار، جنبا إلى جنب مع «حروب» الكبار لإبادة الصغار، ومن ثم اكتسبت الجريمة الصريحة مكسبا سمح لها أن تتسمى بأسماء حركية أو أسماء تدليل مثل «الحرب الاستباقية»، أو «الدفاع عن النفس»، أو«في سبيل الديمقراطية»!!!! إلخ.

الصورة - في ظاهرها - تبعدنا عما يسمى السلام المأمول، ولكن برغم ذلك فنحن نقترب مما أتصوره توقيت إعلان انتهاء العمر الافتراضي للحروب حتى القتل.

الحركية الإيجابية المضادة

برغم كل ما ذكرنا مما يشير إلى تسارع خطير نحو التدهور فالانقراض، فإن حركية الناس معا عبر العالم في مواجهة السلطات الغاشمة على ناحية، وفي محاولة احتواء دوافع الإرهاب على ناحية أخرى، هذه الحركية التلقائية المتشابكة تتزايد باستمرار بفضل إنجازات العقل البشري العلمية فالتقنية مؤخرا.

إن الناس، كل الناس، بالأصالة والنيابة، يتواصلون مع بعضهم البعض مباشرة لأول مرة في التاريخ. هذه الحركية الجماهيرية الجارية فعلا في الوقت الحالي ليس لها أية قوة اقتصادية أو عسكرية أو إعلامية قادرة تطمئننا أنه يمكن أن يكون لها أي أثر قريب، لكن الذي لا شك فيه أنها تتكون، وتتمادى، وأن عبثيتها الضرورية تتراجع لحساب جدية تتزايد قدرتها بقدر ما تتسع وعودها. إن ما يجري على هذا المستوى هو أشبه بالحمل الذي يتخلق منه مولود غير مضمون سلامته إلا أنه يتشكل، إنه البنية الأساسية التي يمكن أن تمثل أساسا صالحا لوراثة فشل القشرة السلطوية الصلبة، التي يسمع حفيف تشققها في كل موقع، رغم جبروت قوتها على جانب، (الحروب الإبادية) وجنون اندفاعها على الجانب الآخر (الإرهاب).

افتراضات وفروض

يمكن تلخيص الافتراضات الأساسية مع الفروض التي تولدت منها حتى هذه المرحلة على الوجه التالي:

أولا: ما زال الصراع ضرورة حياتية، بقدر ما أن العدوان غريزة بقائية.

ثانيا: إن الشكل القديم للصراع لم يعد صالحا لخدمة النوع.

ثالثا: التحايل لإنكار الصراع تحت مزاعم الحوار الشكلي، والسلام السلبي فشل وسيفشل أكثر.

(لا بد من التوقف طويلا قبل أن نأمل في أوهام الشعارات الكلامية عن قبول الآخر أو حوار الأديان، هذا كله تسكين كاذب مهما حسنت النوايا، لأن المطلوب هو صراع الإبداع الشريف إلى غاية مشتركة: انظر بعد).

رابعا: إن تجليات الصراع في صورتي الحرب الظالمة على ناحية، والإرهاب المتفجر على الناحية الأخرى، يؤكد اقتراب إعلان نهاية العمر الافتراضي لهذه الانحرافات السلبية (الحرب والإرهاب).

خامسا: إن ابتداع عداوات مهددة، وتجييش فرق جديدة، واصطناع معارك باعتبارها حتمية، (صراع الحضارات، والخطر الأخضر بعد الخطر الأحمر وتجنيبا للخطر الأصفر..إلخ) هي محاولة لتأجيل صور الصراع التناحري الأدنى والأغبى.

سادسا: إن ميكانزمات الإزاحة، والتسامي، والإبدال...إلخ. (بمحاولات مثل حفز التنافس الأكاديمي، أو الرياضي، أو المهاراتي عامة) أصبحت عاجزة عن استيعاب طاقة غريزة العدوان الكامنة وراء الصراع البقائي الحتمي.

سابعا: إن إدراك الوعي العام (البشري عبر العالم) لخطر كل هذا موجود ومتفاعل ونشط ويتزايد تماسكا، وتعاونا، وتفاهما، وتكاملا، مع أنه شديد البطء، ضعيف التأثير حتى الآن.

ثامنا: إن علامات فشل الانحراف بالصراع عن أصله، وتمادي أشكاله السلبية تظهر باستمرار من داخله، فصراع بورصات المال يحذر منه «سورس» نفسه، وإعلان نهاية التاريخ بانتصار نظام أوحد يتبعها نفس المؤلف «فوكوياما» بتحذير من «نهاية الإنسان»، وحرب العراق تعري المنتصر أكثر من معايرة المهزوم، وسجن أبو غريب يكشف تنازل المعتدي عن إنسانيته بقدر ما يعلن سلب المعتدى عليه من إنسانيته...إلخ

بأي لغة يمكن أن نقرأ هذه الافتراضات أو نفهم هذه الفروض، وعلى مدى أي وحدة زمنية؟

الرد على هذا التساؤل يتطلب التذكرة ببعض الأساسيات.

معلومات وتاريخ

تاريخ الحياة (التطور) تاريخ حافل بما لا نعرف، وما نعرفه عنه هو حافل أيضا بما لا نستفيد منه، وبعض ما نحاول أن نستفيد منه نجهضه قبل أن يأخذ دورا إيجابيا في مسيرتنا التطورية. الإنسان عامة، المعاصر خاصة، أصبح شريكا فاعلا أكثر فأكثر في مسيرة التطور، شريكا له مواصفات وقدرات لم يعرف مثلها فيما سبقه من أحياء. من هنا أصبح تطوره معرضا للتأثر بأخطائه مساهما في هذه الشراكة، ومرتبطا بمسئوليته وقدرته على الإسهام في تقرير مصيره.

تاريخ الانقراض تاريخ أخطر من تاريخ البقاء، هو تاريخ غير معروف أيضا على وجه التحديد، بل ولا على وجه التقريب. كلها اجتهادات هامة، وفروض جيدة لا أكثر، ومع ذلك فما نعرفه عنه وعن الطبيعة البشرية، ينبغي أن يسدد خطانا أكثر فأكثر نحو تحمل مسئولية حياتنا ومصيرنا.

الصراع بين الأنواع موجود عبر التاريخ، والصراع داخل أفراد نفس النوع موجود أيضا خاصة بين الذكور، وفي أحوال محدودة ينشأ مثل هذا الصراع عندما تضيق الموارد

فتعجز عن الوفاء بحاجات البقاء لمجموع أفراد النوع، ظل هذا الأمر كذلك حتى ظهر ما (من) يسمى بالإنسان.

الإنسان حيوان يحتوى تاريخه. وهو يعيش أغلب وجوده بوعيه الأحدث، بقدر ما هو مشروع وعى يتخلق باستمرار: «بالتناوب» من خلال الإيقاع الحيوى، و«بالجدل» من خلال الإبداع على كل المستويات، بينه وبينه (بين مستويات وعيه وبعضها)، وبينه وبين «الآخر البشرى»، حالة كون هذا الآخر يمارس نفس الإيقاع ذى الحركية النابضة. وبينه وبين الطبيعة: خاصة إذا ما استشعر خطرها، أو خشى من انسلاخه عنها. من هذا المنطلق، لا يكون الإنسان إنسانا إلا إذا أضيف هذا البعد الذى يسمى الوعى (بكافة مستوياته) إلى كل نشاطاته ووظائفه وغرائزه، ليحقق من خلال هذه الإضافة تجليات حضور تركيبه القديم فى تشكيل جديد لا يلغى أو يهمل ما يحتوى من قديم لكنه لا يستسلم له ولا يدعه يقوده.

الرقم الخطير الذى يعلنه علماء التطور وعلماء الباليونتولوجيا (الباحثون فى أشكال الحياة فى العصور القديمة) يقول: إنه من بين ٥٠ بليون نوع من الحيوانات والنباتات التى ظهرت على الأرض لا يوجد حيا إلا ما يقرب من ٤٠ مليون نوع، أى أن نسبة انقراض الأنواع على مدى تاريخ الحياة هى ٩٩.٩٪. هذا الرقم لا يدعو للاستسلام بقدر ما ينبه إلى أن دور الجنس البشرى، بما نعرفه عنه حتى الآن، ليس هينا فى منع هذا الاحتمال الغالب.

الكائن البشرى، فيما نعلم، قد أصبح مشاركا أكثر فأكثر فى مساره باكتسابه كلا من الوعى والإبداع «معا».

مواجهة ومراجعة

من أهم المناطق الواجب مراجعتها بشجاعة مناسبة منطقة التاريخ الحيوى الذى تحتويه نحن البشر «هنا والآن». إن بعض هذا التاريخ يزعجنا مع أننا لا نكون بشرا بدونه، من بين ذلك ما نسميه «الغرائز»، ومن أهم ما لم نتصالح معه من بين هذه الغرائز غريزة العدوان التى هى المحور الأساسى لهذه الأطروحة.

نحن نحتاج إلى أن نعرف عن هذه الغريزة أشمل وأعمق وخاصة أنها أهملت وهمشت وشوهت أكثر بكثير من الغرائز الأخرى بما فى ذلك غريزة الجنس. ولكن قبل أن نبين بعض ذلك دعونا أولا نراجع إشكالية علاقتنا السيئة بغرائزنا عامة.

نبدأ بمراجعة أشمل لماهية الغرائز وما آلت إليه مما يعد مهربا علميا (شبه علمى) لا يليق.

أين موقع ما هو «غريزة» الآن؟

كاد الغرور الإنسانى (العلمى) يصيب «نظرية الغرائز» فى مقتل دون وجه حق، وذلك منذ ثارت نزعة مضادة ضدها، وقد توالت الضربات عليها من مصدرين أساسيين، هما الاتجاه السلوكى من ناحية، والاتجاه الاجتماعى من ناحية أخرى. إن مواقف اتجاهات علم النفس المعاصر، فى أغلبها، لم تدعم نظرية الغرائز بقدر ما حطت من قدرها أو أهملتها، وحتى غريزة الجنس كما هى، أو كما قدمها فرويد، لم تأخذ حقها فى الاستيعاب البيولوجى / الوجودى المناسب. إن سيجموند فرويد نفسه لم يعطها حقها على الرغم مما شاع عن فكره، بل جعل كبتها والتسامى فوقها (فيما هو «موقف أخلاقى» أولصناعة حضارة ما) هو السبيل إلى التحكم فيها، ثم إنه بالغ فى عقلنتها (فيما هو نظرية) على حساب إحيائها باعتبارها لغة تواصل ارقى وأشمل، حتى ليمكن أن نأخذ نقد هـ. لورانس مأخذ الجد إذ يقول... «إن تناول فرويد للعمليات الغريزية فى الإنسان كان محملا بثقل الشعور بالذات لدرجة خليقة بأن تكتفى بإعلان الميل الشبقى بعيدا عن (فعل) الحياة، لتطيح باحتمال أن يحقق الإنسان براءته التلقائية وانبعاثه الخلاق بحق»، ثم يمضى لورنس فيقول «... إن نظرية التحليل النفسى قد أعدت لتصيبنا بحالة من «الجنس فى الرأس» (الدماغ)، ولا أحسب أن هذا هو المكان اللائق به».

برغم كل ذلك فإن غريزة الجنس لها مجال ومتنفس وتجليات كادت تستوعبها أكثر من غريزة العدوان بكثير، ولكن تظل المحاولات لتهميش الغرائز تتمادى تحت مبرر أخلاقى أو مثالى لاشعورى عادة عند أغلب المفكرين (فالناس)، الأمر الذى ترتبت عليه عقلنة أو تشويه الأصل البيولوجى للطبيعة البشرية، بما يحول دون تطورها التلقائى.

برغم كل ذلك فإن فيما نالته غريزة الجنس من الانتباه والقبول والعناية والدراسة ما جعلها تصلح مرجعا للنظر المقارن فيما لم تنله غريزة العدوان بالمقابل. الجنس يجد مخرجا شرعيا واجتماعيا ودينيا مباشرا فى الزواج (قبل وبعد فرويد). وهو يجد كذلك مخرجا اجتماعيا (ومدنيا أحيانا) فى صورة العلاقات التلقائية قبل وخارج منظمات الأسرة فى كثير من المجتمعات شديدة البدائية وفى المجتمعات المتقدمة على حد سواء، كما أن الحديث عن الميل الجنسى بما يحمل من فرص التنفيس والإرضاء الجزئى يعتبر حديثا مقبولا ومحببا، بل وأحيانا فخرا وزهوا. غبيا للرجال على الأقل. وللجنس حضور كاف ومطلوب ومرحب به عادة، فى صورته الصريحة أو المحورة، فى كثير من الأعمال الأدبية والفنية وحتى فى بعض مظاهر التدين (العشق الإلهى والغزل فى الأنبياء والأولياء... الخ).

أما غريزة العدوان فسمعتها سيئة على طول الخط، وبالتالى فإن إنكارها جاهز وفورى، فإن لم ينجح فإن ميكانزمات الإبدال والإحلال والإزاحة والترميز جاهزة ونشطة دائما أبدا. وقد بدا مؤخرا أن ما يسمى التنافس بكافة تجلياته هو الأقرب إلى احتواء طاقة العدوان بشكل أو بآخر.

الصورة - فى ظاهرها - تبعدنا عما يسمى السلام المأمول، ولكن برغم ذلك فنحن نقترب مما أتصوره توقيت إعلان انتهاء العمر الافتراضى للحروب حتى القتل

عن التنافس

تتجه التربية عموما، إلى حفز التنافس لاستيعاب طاقة غريزة العدوان بشكل أو بآخر، يشمل ذلك التنافس الأكاديمى، والتنافس الرياضى، والتنافس الاجتماعى (الشهرة)، والتنافس الجوائزى (التقدير الرسمى وشبه الرسمى)، لكن يبدو أن كل ذلك ليس (أو لم يعد) كافيا لامتصاص طاقة العدوان، فضلا عن احتمال الضرر من الإفراط فى التنافس حتى الانشقاق أو الاغتراب أو كليهما. فالتنافس الرياضى. مثلا. لا يشمل إلا نسبة ضئيلة من الناس، فهو - حتى لو نجح فى احتواء طاقة العدوان - لا يشارك فيه عامة الناس إلا بتقمص المتنافسين من الوضع «جلوسا» مصفقين على أحسن الفروض (١١)، وهذا غير كاف. فضلا عن احتمال الخداع والتشويه.

الأمر يبدو وكأنه لا توجد فى عالمنا المعاصر أية فرصة حقيقية لإطلاق غريزة العدوان ولا للتنفيس عنها أو حتى لمجرد الاعتراف بما يسمح باستيعابها، كما أنه يثبت كل يوم أكثر فأكثر أن التنافس - هكذا - لم يعد يكفى، وكأننا يمكننا إعلان أن درجة الكبت والمنع والإنكار لغريزة العدوان قد وصلت إلى أضعاف ما أزعج فرويد بالنسبة لغريزة الجنس وآثار كبتها.

تذكرة من غريزة الجنس

إن الغريزة، باعتبارها سلوكا أوليا مطبوعا، ومن ثم موروثا للنوع كافة، وموروثا للفرد، مع بعض التفاصيل المختلفة بين الأفراد، هى تنظيم «خلوى نيورونى» قائم فى ذاته، ثم إن لكل غريزة تعبيراً بدائياً مباشراً، كما أن لها فى نفس الوقت، من خلال ارتباطات تنظيمها النيورونى والخلوى، تعبيرات محورة تخدم أيضا المستويات الأعلى من الوجود الحيوى للنوع أو الفرد على حد سواء. إن الغريزة لا تظهر فى صورتها البدائية الأولية الفجة تماما إلا إذا انفصلت عن سائر الغرائز الأخرى من ناحية، وكذلك إذا انفصلت عن سائر الوظائف الأعلى من ناحية أخرى. ومتى عجزت الغريزة عن التكامل فى الارتباطات الأعلى والأشمل فإن وظيفتها تقتصر على دورها الدافعى الأدنى، وهو دور هام جدا لكنه لا يكون كافيا إلا فى أحياء لم تتطور إلى ما تطور إليه الإنسان. وبما أن الإنسان لم يصل بعد إلى التكامل المناسب مع تاريخه فإنه يعامل احتمال شطط غرائزه بالميكانزمات المناسبة لضبطها مرحليا على الأقل.

المسار الطبيعى لأى غريزة هو أن تتسع ترابطاتها مع اتساع وشمولية نمو الوعى حتى تصبح قادرة على الالتحام الولائى فى حركية التكامل الجدلى، سواء كان ذلك مع ما يبدو نقيضها من غرائز أو مع وظائف أخرى أحدث وأقدر (فلا تعود تحتاج إلى التعامل بالميكانزمات المناسبة بقدر جسيم أو طول الوقت).

من خلال هذه الافتراضات المبدئية يمكن إعادة النظر فى التصورات والمعلومات والمظاهر المتعلقة بغريزة الجنس بوصفها نموذجا نال حظا وافرا من الدراسة، وكذلك بوصفها معرضة لاتهامات أقل بأنها مجرد تعلم مكتسب!!

إن الغريزة الجنسية، بكل صورها البدائية والتالية، موجودة فى التركيب البشرى بتاريخه الحيوى كله، من أول

مضاجعة المحارم حتى أجمل أشكال الحب المبدع «معا» (وليس مجرد الغرام)، ولقد زعم فرويد أن الميكانزم الإبدالى السليم، لحركية الغريزة الجنسية هو «التسامى» الذى اعتبره فرويد بشكل ما أساسا لكثير من مظاهر الحضارة، ومازال هذا التصور يمثل نوعا من الترضية لغريزة الجنس مع أنها ترضية تتم على حسابها وليس لحساب نموها وتكاملها. ليست هذه الغريزة هى موضوعنا الأول هنا على أى حال، نحن نتناول غريزةالعدوان اساسا.

قـــيــــاس واجـــب

لا يوجد مبرر علمى (أو حتى أخلاقى) للتعامل مع غريزة العدوان بشكل مختلف عن تعاملنا (الميكانزماتى والحقيقى) مع غريزة الجنس. إن غريزة العدوان فى صورتها البدائية (القتل والالتهام) موجودة فى التركيب البشرى بتاريخه الحيوى. وقتل الأكبر سنا (مثلا: الوالد) لتوفير الطعام وإعطاء فرصة للاستمرار الحيوى قد يفسر بعض جذور السلوك البشرى دون حاجة للتمحك فى تفسيرات درامية ذكرياتية فرويدية أوديبية تثبيتية خاصة. إن وظيفة غريزة العدوان (البدائية) الرئيسة هى حفظ الحياة (الاستمرار الفيزيائى) ولو بالقتل، أما وظيفتها الأرقى نسبيا فهى السيطرة للتنظيم الطبقى التمييزى المرحلى بالضرورة. إن من أهم أشكال التعبير المعاصر عن هذه الغريزة هو «تأكيد الذات» فى مواجهة الأخرين، كما أن الميكانزم الإبدالى فى حالة عجز هذه الغريزة (النسبى أو المطلق) عن التعبير المباشر وغير المباشر هو التعويض التفوقى بالنجاح والمكسب والسيطرة والانتصار بكل صوره (كما ذكرنا فى البداية)، لكن كل ذلك يمكن أن يندرج تحت الحلول التعويضية أو التوفيقية وهى حلول لا تنتمى إلى التطور الحقيقى الذى أنتج الإنسان ويعد بإنتاج ما بعده. هذه الحلول ربما كانت تصلح حين كنا نتصور أن العقل هو أرقى ما وصل إليه الإنسان وأنه قادر على تنظيم حياتنا وحل مشاكلنا بمنطقه السليم وحساباته الجاهزة، أو حين أملنا أنه متى انفصل الدين السلطوى عن الدولة (السلطة) فإننا - نحن البشر - سنصبح أحرارا قادرين على التخطيط المطلق دون وصاية كهنوتية فوقية، أو حين تصورنا أن العلم الحديث هو على درجة من الموضوعية كافية لحل مأزق الإنسان المعاصر الآن ومستقبلا (تطورا). كل هذا بدأ يتبين أنه ليس كافيا من واقع المسار الواقعى لمجريات الأمور.

الذى حدث ويحدث هو ثورة معرفية إبداعية، ليست فقط تقنية علمية، ثورة حقيقية شاملة تعد بتصحيح ما، لعله ينفع.

الوعى أشمل من العقل والمعرفة أرحب من العلم

إن ما يطلق عليه «العقل» لم يعد هو أكثر ما يميز الإنسان ليفخر به كل هذا الفخر. الأرجح أن ما نسميه العقل هو ليس إلا بعض ما يتجلى ظاهرا مما يسمح به التواصل الممكن بين البشر، أما عمق الوجود فهو يتمثل أكثر فأكثر فيما يسمى الوعى الذى يشمل عقولنا الكثيرة معا، كما يشمل ما هو أكثر. هذا ما حقق بعضه ما يسمى العلم المعرفى، والعلم المعرفى العصبى خاصة، والتحليل النفسى التركيبى (وليس التحليل النفسى الفرويدى)، كل هذه العلوم تشير إلى أن لنا أكثر من عقل، تتضفر معا، جنبا إلى جنب مع مستويات الوجدان والجسد ليتكون منها الوعى البشرى المتخلق باستمرار.

أعلم أن هذا تكثيف مخل، لكنها إشارة شديدة الأهمية للتنبيه إلى ضرورة تجاوز اختزال الإنسان إلى أنه «حيوان عاقل» أو «حيوان ناطق» أو «حيوان مفكر». هذه التعريفات (بما وراءها من موقف تنظيرى) هى التى همشت الجسد وسطحت دور الغرائز خاصة فى مجال المعرفة والتكامل الجدلى فالتطور.

تـــاريـــخ الانقـــراض تـــاريـــخ أخـــطـــر مـــن تـــاريـــخ الـــبـــقـــاء، وهـــو تـــاريـــخ غـــيـــر مـــعـــروف أيـــضـــا عـــلـــى وجـــه الـــتـــحـــديـــد، بـــــل ولا عـــــلـــى وجـــــه التقـــريب

حتى لا تحل الوسيلة محل الغاية

الجهود البشرية المتواصلة العلمية والممارساتية تجرى- دون اتفاق مسبق - فى اتجاهات مختلفة، اتجاهات ضامة فى النهاية، إلى ما يبدو أنه يمكن أن يعد بإنقاذ نوعنا من الانقراض ما أمكن ذلك. إن مستقبل الإنسان لن يتوقف على كم الإنجازات الرائعة المتلاحقة، ولا على الإسراع بالحركة فى أى اتجاه، وكل اتجاه، ولا على مدى تمتع أفراد البشر بما يسمى الرفاهية (أو السعادة أحيانا!!)، ولا على إطالة عمر الإنسان فى صحة بدنية متميزة، ولا على كم الأدوات ودقتها التى تتاح للشخص العادى، ولا على تهويمات تصور حرية انطلاقنا (فى كل مجال)، ولا على تنمية مهارات افراد أو جماعات لتحقيق إنجازات نادرة غير مسبوقة (فى الرياضة أو فى أى مهارة كانت)..إلخ. كل هذا غير مرفوض، شريطة أن يكون وسيلة لما يليق بالإنسان، فلا يعيقنا بالتوقف عنده، ولا ينحرف بنا وهو يتعملق فيختزل ما هو أشمل منه.

إننا لن نتطور بدون كل هذا، وأيضا إننا لن نتطور بهذا فحسب!!

حركية التطور وجدل الآتى

إنما يتوقف مستقبل الإنسان على مدى استيعاب وعيه لحركية التطوتم وقوانينه، ثم نجاحه فى كف إعاقتها بانحرافات إنجازاته الجزئية (الاختزالية مثل العقل - العلم - التكنولوجيا..إلخ)، ثم على مدى قدرته على الإسهام فى دفعها (دفع قوانين التطور) إلى ما هى، وما تعد به.

لا يمكن بداهة أن أقدم أية توصيات مفصلة كافية أو مفيدة فى هذا الصدد، كل ما أستطيع حالا هو تقديم خطوط عريضة يمكن أن تكون ملاحظات لبدايات محتملة، فى اتجاه المحافظة على حركية جدل التطور ثم ليكن ما يكون، ومن ذلك:

١- رفض التسليم لمقدسات شائعة، والا يقتصر الرفض على مسلمات جامدة تمثلها سلطات ميتة فعلا. لا مفر من أن يمتد الرفض إلى أية مسلمات تقدمها لنا السلطة. أية سلطة. على أنها مسلمات منتهية، مهما بلغ حسن سمعتها، أو بداهة مشروعيتها، وأيضا مهما افتقدنا بديلا جاهزا لها (أهم مسلمات معروضة الأن مما يحتاج بحثا مبدعا فى اتجاه نقدها فرفضها فتطويرها أو تحديثها أو إبدالها: ما يسمى الديمقراطية وحقوق الإنسان المكتوبة). يشمل ذلك أيضا كثيرا من المسلمات التى تهبط علينا من أنفسنا، ومن افراد حولنا حين نكسل أو نتراجع.

٢- تجاوز التقسيمات المرحلية (الاستقطابية عادة) التى أدت دورها بنجاح حقيقى، لكن يبدو أنها لم تعد قادرة على استيعاب النقلة التطورية الحالية التى تهددنا فعلا بالانقراض إذا نحن لم نستوعبها، والتى - فى نفس الوقت. تعد بالطفرة إذا نحن تحملنا مسئوليتها. من أشهر ذلك تلك التقسيمات إلى عقل فى مقابل عاطفة، ودين فى مقابل علم، وفن فى مقابل منطق، وجسد فى مقابل روح، كل هذه التقسيمات أصبحت غير مفيدة، وغير حقيقية، بل ومختزلة، ثم معيقة، برغم دورها الرائع حين كانت لازمة لمرحلة ظهورها.

٣- مع تجاوز ذلك الاستقطاب إلى جسد وروح، يعود الجسد إلى موقعه المحورى فى التطور، بدءا بدوره المعرفى (الذى استعاد بعضه من خلال العلم المعرفى الحديث)، فيتخلص من كونه مجرد أداة لغيره، أو مجالا لما هو فوقه، أو منفصلا عما يقوم به. الجسد هو وعى حركى مشتمل يتخلق مع، وبما، يقوم به من جنس وحركة ومعرفة وإبداع.

٤- إعادة النظر فيما تصورنا أنه نهاية قوانين البقاء، نعيد النظر بشجاعة المهدد بالانقراض، فننظر -مثلا فى الزعم بأن «البقاء للأقوى» بالمعنى الذى يؤكد على أهمية الأنانية الفردية الدالة على التفوق الظاهر، فنكتشف أنها ليست هى وحدها التى تحافظ على الفرد فالنوع، إن الإيثار هو أيضا غريزة تؤكد أن البقاء للأحرص على صغار (وكبار) نوعه، ولو على حسابه مرحليا. إن الأبحاث الجارية فى هذه المنطقة تعلن بكل وضوح أن ثمة ما يسمى «الإيثار البيولوجى»، وإن ثمة ما يسمى «تطور التعاون» (بيولوجيا) وأيضا أن ثمة علاقة وثيقة بين الاخلاق والتطور بالمعنى البقائى والمؤكد لهارمونية الجمال وليس فقط لاستمرارية الوجود المادى. إن مواجهة الإشكالية الداروينية بمزيد من البحث فيها وفى بدائلها جدير بأن يقدم لنا مجالات أرحب للنظر والمراجعة، لعلنا نفيق ونحن نتعرف من جديد على معنى كيف يكون القاتل والمقتول فى النار، للمسلم وغير المسلم.

٥- أن يصبح إسهام الوعى فى حركية كل الوظائف (والغرائز) جزءا لا يتجزأ من سلامة تلك الوظيفة أو هذه الغريزة. لا أقصد بحركية الوعى أن نكون واعين (عندنا علم شعورى بـ!) بما يجرى، بل إن مثل هذه العقلنة الشعورية يمكن أن تكون وصية على حركية الوظيفة أو الغريزة حتى تشوهها أو تعوقها، وإنما أعنى بالوعى تلك الإحاطة الكلية الغامضة الفعالة بما هو حالة الوجود المشتمل، بما فى ذلك الإسهام الفعلى فى حركية النشاط المعين فى أى اتجاه، والإسهام الإدراكى لكلية التعامل مع المحيط (يستحيل التفصيل هنا بداهة).

٦- مع إسهام حضور الوعى بالمعنى السابق فى كل وظيفة (وغريزة) على حدة، ثم فيها مجتمعة، تتضفر الوظائف مع بعضها البعض من عمق معين. إن ذلك إنما يسهم فى تجاوز الاستقطاب الذى أشرنا إليه فى بند «٢» حالا. من ذلك كيف يتضفر الجسد مع ما يسمى العقل فى مجال المعرفة، وهذا بعض إنجازات العلم المعرفى الأحدث كما ذكرنا، وأيضا كيف يتضفر التفكير مع برمجة الوجدان، وهذا بعض إنجازات العلم المعرفى العصبى، ومن ذلك أيضا كيف يتضفر الجسد مع الجنس مع العدوان الإيجابى مع المعرفة مع الإيمان وهو بعض ما أظهرته متابعة تطور الوظيفة الجنسية من التناسل إلى التواصل، وأيضا هو بعض ما كشفت عنه الأسس البيولوجية للإيمان، وهكذا.

٧- ما دام الإنسان يتميز أكثر ما يتميز باكتساب الوعى الفائق المتعدد المستويات فى آن، وأن ذلك لا يكون إنسانيا بحق إلا إذا واكب وتجادل مع وعى إنسان آخر، فى طريقهما معا إلى الوعى بدوائر المحيط حتى الكون الأوسع بلا نهاية، فإن الأمل ينمو ويتجدد مع التطور فى هذا الاتجاه بديلا عن استعمال الآخر لتثبيت حوصلة الذات وتفوقها، وأيضا ربما يكون حضور الوعى الكونى مشتملا وعى الأفراد هو السبيل الأرقى لمرحلة تطور الإنسان المأمولة، الأمر الذى يستحيل تفصيله أيضا فى هذه الإشارة.

(لم أقدم فى هذه الخطوط العريضة أية إشارة عن علاقة الإنسان مع الطبيعة حتى لا يقتصر مفهوم الطبيعة على المحيط المادى المحدد، أو للإشارة إلى ما يسمى تجنب تلوث الطبيعة..إلخ. إن هذا البعد شديد الأهمية حين تشمل الطبيعة الإنسان «الآخر» امتدادا إلى الوعى الكونى، مرورا بتجلياتهما معا فى كل آن وموقع، وهذا حديث آخر)

وفى ذلك فليتنافس المتنافسون

اتوقف عند هذه المرحلة لإدراكى مدى ما يمكن أن يترتب على التمادى فيها حتى تبدو شطحا حالما أكثر منها وعدا قائما، ثم إننى إذ أقر وأعترف كيف يمكن أن يكون كل هذا الذى تقدم أبعد عن استقبال الشخص العادى (القارئ العادى) إلا أنه أبعد أكثر عن مدى استقبال العالم المتحذلق، ومع ذلك فقد تصورت أنه - فى نفس الوقت - هو أقرب ما يكون إلى الشخص العادى الذى كتبت له المقال وأنا على يقين من أنه لن يقرأه إلا قليلا.

هذه ليست دعوة للتهوين من شأن إنجازات العلم والتكنولوجيا مثلا، ولا هى دفاع عن قدرة تلقائية لفطرة غامضة.

فى أطروحة سابقة للكاتب عن «العدوان والإبداع» كان الفرض المقترح يزعم أنه يمكن استيعاب العدوان (لا التسامى به أو عنه) فيما أسميته «الإبداع الخالقى» تمييزا له عن «الإبداع التواصلى» القادر على استيعاب طاقة الجنس (كما زعم الفرض السابق). فإذا كان لى أن أنهى هذه الأطروحة الحالية بما هدفت إليه، فإن ذلك قد يكون بدعوة كل من يهمه الأمر (فعلا) للمشاركة فى توجيه تنافسنا فيما بيننا إلى مجال أرحب يستوعب طاقة العدوان لنا جميعا بعيدا عن القتل والعدوان، وربما بديلا عن بورصة الأوراق المالية والأولمبياد (دون التقليل من شأن أى منهما).

إذا كان لنا أن نختبر بعض ما ذهبت إليه هذه الأطروحة فلن يكون ذلك إلا من خلال كل إنجازات العقل والعلم والفن والخبرة الإيمانية الوجودية واحترام دور الجسد والممارسة جميعا، ليس بالإضافة المتجاورة(فن + علم + خبرة + إيمان + جسد..إلخ)، وإنما بالاستيعاب المشتمل القادر على التجلى المتعدد بلغات مختلفة فى مجالات مختلفة.

إن التنافس الذى أتصور أنه يجرى وسيجرى فى مجال التكامل الواعى (وغير الواعى) نحو تجاوز الحلول الحالية الرائعة (التى لم تعد رائعة) هو تنافس آخر يحاول استيعاب التاريخ الحيوى الذى هو بداخلنا كله فى انطلاقة التطور التى تعد جهودنا المعرفيـــة والحياتية (وليس فقط العلمية والتقنيــة) بتحقيقهـا من خلال وعى مشتمل يتنافس إبداعاً فى مجـالات أصبحت لا تحتمل الانتظار.

أمران يعتبران بداية طيبة لما أدعو إليه: الأول: ألا نستسلم للمسلمات الحديثة منها والقديمة على حد سواء، حتى لو لم يظهر لها بديل جاهز الآن، والثانى: ألا نكف عن المحاولة عن البحث عن (إبداع) بديل يمكن أن يكون أقدر على استيعاب تاريخنا الواعد بطفرة لاحت معالمها فعلا.

يقينى - أو لعله أملى الذى يبرر استمرارى - يقول:

إنه فى إمكان إنسان اليوم، من خلال التواصل الأحدث والأسرع والمباشر أن يتجاوز سجن المنهج، وجمود السلف، وأوهام السوق، ووصاية السلطة، وغباء الحرب، بمواصلة الإبداع بوعى فائق فى كل المجالات.

ربمــا. ■

البقـــــاء.. لمـــــن؟!

وأنا أكتب هذا المقال حول «التنافس لإبداع حلول أقدر على استيعاب طاقة العدوان»، لأطور تفصيلا ما جاء فى مقال سابق لى وصل معناه للبعض، وكأننى ضد التنافس الرياضى برغم روعته. وإذا بزميل فاضل يتصل بى ليبلغنى نبأ رحيل أخ كريم. شعرت بثقل يكاد يغوص بى فى مقعدى. سيقان من رصاص وقلب مفعم بكل تلك المشاعر التى لم تقتصر على فجيعة المفاجأة، وصدمة الفقد.

نظرت فى الأوراق أمامى قبل أن أطويها فإذا بها تساؤلات أخرى عن حقيقة الصراعات التى يعيش فيها العالم الآن وعلاقتها بقانون البقاء: صراع الحضارات، صراع السوق، الصراع العرقى، صراع محاور الخير والشر لكل حقيقته!.. إلخ.

تساءلت من جديد: ماذا تعلم أطفالنا ليكونوا أحسن؟ أحسن من من؟ أحسن من ماذا؟ لماذا؟ لمن البقاء فعلا؟

دق جرس الهاتف من جديد فإذا بإحدى من بناتى طالباتى تعزينى فى فقد الزميل الكريم وهى تجهش بالبكاء حتى لم تكمل المكالمة؟ كان من بين ما قالت ذلك التعبير الشائع الذى لم أفهم معناه أبدا «البقية فى حياتك»، رددت بشكل آلى: حياتك الباقية.

وضعت السماعة وأنا أتساءل عن معنى ما اعتدنا أن نردده بصدق فى مثل هذه المناسبات: أى بقية تلك التى نتحدث عنها؟ ما هذا ؟ وكيف أن حياتها - حياة ابنتى تلك - هى الباقية؟ قفزت إلى وعيى مواساة أخرى أقرب إلى نفسى حين نذكر أهل الفقيد - وأنفسنا - أن الله سبحانه استرد وديعته. نحن ودائع. نحن ودائع لأجل، ولكل أجل كتاب، حتى إذا جاء أجلنا لا نستأخر ساعة ولا نستقدم.

رجعت إلى المسودة فوجدت التحدى يحتد من جديد وهو يهز «قانون البقاء» الحيوى الأشهر.

ألا يحتاج هذا القانون الداروينى إلى أن نطالب بتعديله مثلما نطالب بتعديل قانون معاشات أساتذة الجامعات؟ لمن البقاء فعلا بين البشر عبر العالم؟ البقاء للأقوى أم للأشطر أم للأمضى سلاحا؟ أم للأخبث مخابرات؟ أم للأحذق إعلاما؟ وجدتنى أرد بتلقائية دون تفكير أن البقاء لله.

هل هى كلمات عابرة ثم ننساها كما ننسى الحزن والعظة والحكمة بعد كل فقد عزيز أو غير عزيز؟ ألم يئن الأوان أن نتعمق فهم تلك الكلمات القليلة الرائعة لعلنا ندرك من واقع إبداع حلول جديدة، تليق بتاريخ الإنسان الرائع، فهما جديدا لها يصبرنا على فقد أعزائنا ويقربنا من معنى أعمق لحياتنا، ونحن نواصل السعى لنتصاعد بهارمونية التسبيح وهو يقربنا بشرا من بعضنا البعض، إذ نتوجه إلى الحق سبحانه وتعالى بدلا من تصارعنا حتى تبيد كل فرقة الأخرى بلا وعى أو بوعى أعمى، وبشكل لا تمارسه الحيوانات من النوع الواحد حفاظا على بقائها.

حين نتعلم من فقد عزيز، وظلم قاهر متغطرس، وغباء إرهابى، وبلادة مستغل، كيف أن البقاء لله، تصبح التعزية بردا وسلاما على أهل الفقيد ومحبيه، وعلينا.

يحيى ..



لما تتكلم دولي مع المصرية للاتصالات
هتوفر أكتر من أي شبكة تانية.

الدول	تعريفة	
	الفترة النهارية	الفترة المسائية
جميع الدول العربية	٣,٠٠	٢,٢٥
الولايات المتحدة الأمريكية	٣,٠٠	٢,٢٥
كندا - أوروبا - دول الكاريبي	٣,٥٠	٣,٠٠
باقى الدول	٤,٥٠	٣,٥٠

تطبق التعريفة المسائية المخفضة
يومى الجمعة و السبت طوال اليوم

الوحدة الزمنية للحساب بعد الدقيقة الأولى ١٠ث

للاستعلام اتصل برقم ١١١

www.telecomegypt.com.eg

المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
شبكة واحدة .. بتقربنا كلنا

نَحْنُ والشِّمْبَانْزِى

أحمد مستجير

■■ حدثت هذه الواقعةُ فى جامعة اكسفورد يوم السبت ٣٠ يونيو ١٨٦٠، بعد ستة أشهر من صدور كتاب «أصل الأنواع» لتشارلس داروين C.Darwin. انعقد اجتماعُ المؤتمرِ السنوى للجمعية البريطانية لتَقَدم العلوم فى هذا التاريخ، وحضره نحو ٧٠٠ شخص، وكان الموضوع هو «التطور». بدأ الاجتماع بمحاضرة للدكتور جون و. دريبر W. J. Draper الأمريكى، وكانت عن «التطور الفكرى لأوروبا» بالإشارة إلى أفكار المستر داروين». استغرقت المحاضرةُ ساعةً، ثم بدأ غيرُه يتحدثون يعالجون نفسَ القضية. على المنصة كان يجلس عددٌ من رجال الكنيسة، من بينهم الأسقفُ صمويل ويلبرفورس S.Wilberforce. عُرِفَ عن هذا الرجلِ أنه محاورٌ بارع. طَلَب الجمهورُ منه أن يتحدث، فحاول التملصَ. لم يكن الرجلُ متعمقاً فى العلوم البيولوجية، ولم يكن على ما يبدو قد قرأ كتاب داروين بالعناية الكافية. كل ما كان يعرفه قد جاء عن جلوسه واستماعه إلى السير ريتشارد أوين R.Owen، عالم التشريح الشهير، وأحد كبار معارضى داروين. عندما وقف ويلبرفورس ليتحدث، انتقد النظرية بشكلٍ ساخرٍ للغاية، وجعلها تبدو سخيفةً مضحكةً. وفى نهاية حديثه الْتَفَتَ إلى الشابُ توماس هنرى هَكسلى T. H. Huxley، وكان يجلسُ بجواره على المنصة، وسألَه فى تهكم:

«تقولُ إنك من سلالة القرود، فهل يا تُرَى وصلَكَ منها الإرثُ عن طريق جَدتك أم عن طريق جَدك؟».

هنا ضرب هكسلى بيده على ركبتيه وتمتم لنفسه «لقد سَعَيتَ إلى حَتفكَ بظِلْفك. لن أتركَكَ!».

جلس الأسقفُ وعاصفةٌ من التصفيقِ والضحك تملأ القاعةَ. طَلب الحضورُ من هَكسلى أن يتكلم. نَهَضَ متحدياً. بدا وكأنه قد تجاهلَ أنْ الأسقفُ لم يكنْ يهاجم فكرةَ التطور، وإنما يهاجمه هو شخصياً. شرح هكسلى الأفكارَ الأساسيةَ للنظرية، وفضَح ما رأى أنه جَهلٌ فى حديث ويلبرفورس. وفجأة تحول ليواجه الأسقفَ المغرور. تَفَحّصَهُ بعينيه أولاً كما لو كان أحفورةً قديمةً غريبةً، ثم قال:

«إننى لا أخجلُ من أن يكونَ القردُ من أسلافى، لكننى أخجلُ من أن أرتبطَ برجلٍ يستغلُ مواهبَه وفصاحَتَهُ فى أن يُعَهِّرَ الحقيقةَ ويُخفيها، ويُشَوِّهَ صورةَ علماء أفنوا حياتَهم يبحثون عنها!».

كانتْ هذه هى المعركةُ الأولى فى حرب طويلة، مستمرةٍ. لا زالت. حتى اليوم. القضيةُ لم تَمُتْ، بل إنها فى الحق تزداد اشتعالاً، تذكيها نتائجُ علميةٌ جديدةٌ، يأتى معظمُها عن علم الوراثة الجزيئية الحديث، الذى حَوَّلَ كثيراً من اهتمامه الآنَ إلى دراسة جينومات الرئيسات primates، ولاسيما الشمبانزى Chimpanzee (أو الشِّمْب Chimp).

«من» يكون الشِّمْبَانزى؟

هناك من الشمبانزى نوعان يمثلان أرقى القردة العليا: بان تراجلودايتس Pan traglodytes وهو الشمبانزى الشائعُ المعروفُ ويستوطن الضفةَ اليمنى من نهر الكونغو، وبانِ بانيسكَص Pan paniscus أو البُونُوبُو Bonobo، ويسمى الشمبانزى القزم، أو شِمبانزى الضفة اليسرى لنهر الكونغو. يعتقد علماءُ البيولوجيا أن الشِّمْبَ هو أقربُ أقاربنا فى سجل التطور، وأنه قد جاء عن انشعابٍ من سَلَفٍ شائعٍ معنا منذ ٤ - ٧ ملايين عام، وأنه يُشَاطِرُنا فى ٩٨٪ من المادة الوراثية كما قالتْ مارى كلير كينج C.M. King عام ١٩٧٥. الأمر الذى حدا بجاريد دياموند J. Diamond أن يطلقَ على البشرِ اسمَ «الشمبانزى الثالث».

ينتشرُ الشمبانزى فى الغابات الاستوائية والسافانا المطيرة بغرب ووسط أفريقيا، لكن موطنَهُ قد اختُزِلَ كثيراً فى السنين الأخيرة، وأصبحَ النوعُ مهدداً بالانقراض، إذ يبلغ تعداده الحالى ما بين ١٠٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠٠ فرد، وكان منه الملايين منذ مائة سنة!

بنيةُ الشمبانزى أقوى كثيراً من بنية البشر، ويصل طول الأنثى البالغة إلى ٦٦ - ١٠٠سم، أما الذكر البالغ فما بين ٩٠ و١٢٠سم. أما وزنُ الأنثى البالغة فيتراوح ما بين ٢٦ و ٥٠كجم، والذكر البالغ ما بين ٣٥ و٧٠كجم. يُغطى الجسمَ شعرٌ أسود داكن خشن، فيما عدا الوجه (إلاَّ من لحيةٍ بيضاءَ قصيرةٍ فى البالغين من الذكور والإناث) وأصابع اليد والقدم وراحة اليد وباطن القدم وتحت الإبط. الإبهامُ وإصبعُ القدمِ الكبيرِ يُمَكِّنَان الحيوانَ من القبضة المتينة بيديه ورجلَيه. وهو بلا ذيل وذراعاه طويلان أطول من رجليه.

يصل الذكرُ إلى النضج الجنسى فى عمر ٧ - ٨ سنوات، والأنثى فى عمر ٦ - ١٠ سنوات. تبلغ فترةُ الحمل نحو ثمانية أشهر، ويندر أن يُولَدَ توائم. تُفْطَمُ الصغارُ على عمر ٣ سنوات، وإن بَقِيَتْ ملازمةً للأم سبع سنوات أو نحوها. يبلغ متوسط طول العمر فى الأسر نحو ٦٠ عاماً، أما فى الغابة فيتراوح ما بين ٣٥ و٤٠ عاماً.

الشمبانزى حيوانٌ اجتماعى للغاية يعيش فى مجاميع أو مجتمعاتٍ تتراوح أعدادها ما بين ٢٠ و ١٥٠ فرداً. على أنه يتحرك معظم الوقت فى مجاميع صغيرة من بضعة أفرادٍ لا أكثرٍ (٦ أو ٧ أفراد). وهو حيوان نهارى شَجَرى وأرضى، يُنفق وقتاً متساوياً فى الأشجارِ وعلى الأرض. يمشى الحيوان طبيعياً على أربع، لكنه يستطيع المشى على اثنتين لمسافاتٍ قصيرة. يَسْتَخدم الحيوان تعبيراتِ الوجه والصوتَ ولغةَ الجسد، حتى الأحضان والقُبَل، للتواصل مع أفراد جماعته، بل ولقد يَسْتَجدِى الفرد الطعامَ من زميله، فيقترب منه مُسْتَعْطفاً. مفتوحَ اليدين!

غذاءُ الشمبانزى أساساً نباتىٌ (الثمار والأزهار والبذور والسوق والقلف والدرنات) مع بعضِ الحشراتِ والفرائس الصغيرة. وقد رُصِدَتْ حالاتٌ يقومُ فيها بالصيد، إن تكن على ما يبدو حالاتٍ وقائيةٍ يحركها الجوعُ. على أن أفرادَ الشمبانزى قد يتجمعون لاصطياد قردٍ وأكْلِ لحمه، الأمر الذى قد يعنى أن الشمبانزى قادرٌ كالبشرِ على الصيد الجماعى، وأنه يَسْتَطعِمُ اللحمَ.

الشمبانزى حيوانٌ اجتماعى للغاية يعيش فى مجاميع أو مجتمعاتٍ تتراوح أعدادها ما بين ٢٠ و ١٥٠ فرداً. على أنه يتحرك معظم الوقت فى مجاميع صغيرة من بضعة أفراد لا أكثر (٦ أو ٧ أفراد)



قصتُنا مع الشمْبانزى

فى تسعينيات القرن السابع عشر، قام العالم الإنجليزى إدوارد تايسون E.Tyson بتشريح أول شمبانزى، ولاحظ أنّ بين مخّه ومخ الإنسان تشابهاً «مدهشاً»، لكن عالم التشريح السير ريتشارد أوين، فى القرن التاسع عشر، قال إن هناك بين المخّين فارقاً واضحاً للغاية، وليس بين البشر من يمكن اعتباره شمبانزى محوّراً. كان أوين معارضاً عنيفاً لآراء داروين فى التطور، ولآراء الفرنسى جان بابتيست لامارك B. J.Lamarck من قبله، ومن ثم فقد بحث عن شىء يتفرد به مخ الإنسان ولا يوجد له مثيل فى بقية الرئيسات. وقد وجد ضالته فى طيّة صغيرة توجد بمؤخر المخ البشرى ولا توجد فى غيره، واعتبرها مركز العقل والفطنة، حتى ليضع بسببها الإنسان فى مرتبة رفيعة وحده. إلى أن جاء خصمه اللدود توماس هنرى هكسلى، لينفى الرواية ويقول إن أوين قد أهمل فى حماقة وجود «الطية البشرية» فى القردة العليا.

وعلى بداية القرن العشرين، بدأ العلماء ينتبهون إلى الرابطة البيوكيماوية بين البشر والشمبانزى، فاكتشفوا أن شكل الكثير من بروتينات الشمب يشبه بروتينات البشر، بل ويكاد يطابقها. وعلى أوائل ثمانينيات ذلك القرن، تحول العلماء من البروتينات إلى مادة الوراثة. واكتشفوا أن مادتنا الوراثية تشبه المادة الوراثية للشمب كثيراً: فى الكروموزومات وفى التشريح الجزيئى.

الكروموزومات

يحمل الكائن الحى جهازه الوراثى فى نواة كل خلية فى خلاياه. يتألف هذا الجهاز أساساً من عدد (مزدوج) من الكروموزومات chromosomes محدد فى كل نوع (هو فى الإنسان مثلاً ٢٣ زوجاً فى الشمب ٢٤ زوجاً وفى ذبابة الفاكهة ٤ أزواج)، يأتى نصف العدد من الأب (فى الحيوان المنوى) والنصف الآخر من الأم (فى البويضة). الكروموزومات أجسام عصوية تتكون أساساً من دنا DNA ملفوف لفاً مضاعفاً، مع بروتينات مرافقة، وبه منطقة منقبضة تسمى السنترومير centromere تقسم الكروموزوم إلى ذراعين غير متساويتين عادة، واحدة قصيرة (ق= p) والأخرى طويلة (ط= q). فى كل من طرفى جديلتى كل كروموزوم يوجد تتابع من القواعد يسمى التيلومير telomere وظيفته حماية الجديلة أثناء الانقسام. يتآكل التيلومير مع توالى الانقسام وقد يعاد تطويله ويكون ذلك عن طريق إنزيم يسمى التيلوميريز. فإذا ما أصبح التيلومير



قصيراً للغاية فى الخلايا الجسدية غدا عرضة عند الانقسام للأخطاء التى قد تؤدى إلى السرطان.

إذا صبغت الكروموزومات فى المعمل بصبغة جيمسا Giemsa اتخذت نمطاً معيناً من التشريط (شرائط داكنة وفاتحة متعاقبة ذات أحجام مختلفة) يمكن به تمييز الكروموزومات عن بعضها بعضا. للبشر ٢٣ زوجاً من الكروموزومات يسمى كل منها أوتوزوماً، فيما عدا اثنين، هما كروموزوما الجنس، واحد يسمى س X (ومنه اثنان فى الإناث وواحد فى الذكور) والآخر يسمى ص Y (ومنه فى الذكور نسخة واحدة). ترقم كروموزومات الإنسان حسب طولها من ١ (الأطول) حتى ٢٢، بجانب كروموزومى الجنس. ويطلق على الذراع اسم ق أو ط حسب طوله كما ذكرنا. فإذا قلنا ٧ ط 7q، فإن هذا يعنى الذراع الطويلة للكروموزوم السابع، كما تقسم كل ذراع إلى ٣ مناطق: ١، ٢، ٣، ويبدأ الترقيم فى كل من السنترومير فى اتجاه التيلومير. وعلى هذا فإن ٧ط١ 7q1 تعنى المنطقة الأولى (الملاصقة للسنترومير) من الذراع الطويلة للكروموزوم السابع. وهناك تقسيمات أدنى من ذلك، تقسم فيها كل منطقة إلى شرائط داكنة وفاتحة ترقم هى الأخرى. وقد يقسم الشريط إلى تحت شرائط.

الطفرات للكروموزومية

كثيراً ما يحدث أثناء عملية الانقسام الاختزالى للخلايا أن يعاد ترتيب مقاطع كاملة من الكروموزومات، فتتحرك داخل نفس الكروموزوم، أو إلى كروموزوم آخر، الأمر الذى يتسبب فى تغيرات فى مورفولوجيا الكروموزوم نفسه. يطلق على هذه الحالات اسم الشذوذ الكروموزومى aberrations، ومنه صور عديدة. فالانقلاب inversion، يعنى أن ينكسر الكروموزوم فى مكانين منه، ثم ينقلب هذا المقطع المكسور ويستقر مقلوباً فى نفس موضعه. والاقتضاب deletion يعنى أن يفقد الكروموزوم قطعة منه. والإيلاج insertion يعنى أن يضاف إلى الكروموزوم مقطع من مصدر مجهول ويصبح بعضاً منه. أما الانتقال translocation فهو أن يتحرك جزء من مادة الكروموزوم إلى مكان آخر، قد يكون بنفس الكروموزوم أو يكون فى غيره.

كروموزومات الشمبانزى متشابهة فى التشريط مع كروموزومات البشر. وأهم اختلاف هو أن للبشر زوجاً من الكروموزومات أقل من الشمبانزى (وكل القردة العليا)، وهناك اختلافات أخرى بين البشر والشمبانزى، إذ توجد انقلابات فى مقاطع كروموزومية لكروموزومات البشرية: ١، ٤، ٥، ٩، ١٢، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، بجانب طفرة انتقال، واختلافات أخرى غير هذه ضئيلة.

الدنا DNA

المادة الوراثية التى تحملها الكروموزومات هى الحمض النووى الديوكسى ريبوزى، أو الدنا، وفيه تخزن المعلومات الوراثية. وكما يقول ليد أدلمان Led Adleman فإن المعلومات بالجرام الواحد من الدنا تعادل ما يحمله مليون مليون قرص مضغوط CD.

وجزئ الدنا عبارة عن جديلتين، كل يتألف من تتابع sequence طويل لأربع قواعد bases، أو نوتيدات nucleotides. هى الأدنين (أ) والثايمين (ث) والجوانين (ج) والسيتوزين (س). والقاعدة أ على جديلة تقابلها القاعدة ث على الجديلة الرفيقة المكملة (والعكس بالعكس)، أما القاعدة س فتقابلها القاعدة ج (والعكس بالعكس). والجين gene هو امتداد من أزواج القواعد على طول جديلتى دنا الكروموزوم، ويقاس طوله بعددها. فيقال إن طول هذا الجين مثلاً هو عشرة آلاف من أزواج القواعد (أو ١٠٠٠٠ زق)، أو عشرة آلاف نوتيدة. ومتوسط طول الجين البشرى يبلغ نحو ثلاثة آلاف زق، وإن كان هناك جين يصل طوله ٢.٤ مليون زق (جين اسمه dystrophin). يشفر الجين لبروتين معين، وذلك بأن ينسخ الجين بحامض نووى آخر. هو الحامض النووى الريبوزى، أو الرنا RNA. يخرج من نواة الخلية إلى السيتوبلازم لينفذ التعليمات. توجد التعليمات فى الدنا فى صورة كودونات codons متتابعة، والكودون عبارة عن ثلاث قواعد متتابعة تشفر لحمض أمينى (وأول كودون فى أى جين هو أ س ج، الذى يشفر لحمض المثيونين الأمينى). والبروتين سلسلة من الأحماض الأمينية، ترتيبها يناظر ترتيب الكودونات بالدنا المشفر له. وفى وجود أربع نوتيدات فقط (أ،ث،ج،س) سيكون لدينا ٦٤ كودوناً ممكناً: ثلاثة منها تحدد نهايات الجينات، والباقى يشفر لأحماض أمينية. ولما كان عدد الأحماض الأمينية عشرين فقط، فقد يشفر للحمض الأمينى الواحد عدد من الكودونات. فحمض البرولين مثلاً يشفر له أربعة كودونات هى: س س ج، س س أ، س س س، س س ث، أما حمض المثيونين فيشفر له كودون واحد (أ س ج).

قد تحدث بالجين طفرة نقطية point mutation تتحول بها قاعدة إلى قاعدة أخرى، فتتحول القاعدة أ مثلاً إلى س أو ج أو ث. وقد يغير هذا من حمض أمينى بالبروتين الذى يشفر له الجين، وربما تسبب هذا فى أن يصبح البروتين الناتج مختلفاً.

وقد يحدث أن تحذف نوتيدة أو أن تضاف نوتيدة، ومن شأن مثل هذا الاقتضاب أو الإيلاج أن يحور كل الكودونات التالية إذا وقع فى الدنا المشفر. فإذا كان الترتيب الأصلى لمقطع ما داخل جين هو (أ س ج س س ث ج ....) وبه الكودونان أ س ج (يشفر لحمض الثرايونين) يليه الكودون س س ث (يشفر لحمض البرولين)، ثم اقتضبت أى حذفت القاعدة أ فسيكون الباقى س ج س س ث ج ويصبح الكودون الأول هنا هو س ج س (يشفر للأرجنين) والثانى هو س ث ج (يشفر لليوسين) وتتغير أيضاً كل الكودونات التالية لينتج بروتين جديد يختلف عن البروتين الأصلى. ومن الواضح أن إضافة حرف ستؤدى إلى نفس النتيجة. حرف واحد يضاف أو يحذف يكفى لتغيير البروتين!

سقط الدنا

تشكل الجينات نسبة ضئيلة من دنا الكائنات العليا، أما بقية الدنا، الذى يسمى سقط الدنا Junk DNA. فلا تعرف له حتى الآن وظيفة واضحة، وإن كانت نتائج الأبحاث التى ظهرت مؤخراً (عام ٢٠٠٤) تشير، كما سنرى، إلى أن لهذا السقط وظائف لم تكتشف بعد. يبلغ طول الجينوم البشرى نحو ٣١٠٠ مليون قاعدة، لا تشكل الجينات منه أكثر من ٣٪. وقد يتخلل السقط الجينات نفسها، فى مناطق منها تسمى الإنترونات introns تمييزاً لها عن الدنا المشفر الذى يسمى عندئذ بالإكسونات exons. يبلغ طول جينوم نبات البصل ١٢ ضعف طول الجينوم البشرى، ويفترض أن هذا يرجع إلى زيادة نسبة السقط فيه، أما جينوم السمكة الكروية Pufferfish، الذى يتميز بخاصية بقلة محتواه من سقط الدنا، فلا يزيد طوله عن تسع طول جينومنا، لكنه يحمل تقريباً نفس عدد جيناتنا. يبدو أن نسبة سقط الدنا تختلف اختلافاً واسعاً بين الأنواع. أما سبب وجود كل هذا السقط، فيعزوه البعض إلى أن ثمة جينات قد فقدت وظيفتها وأصبحت «جينات كاذبة»، فتشظت وبقيت عبئاً فى الجينوم، بينما يرى آخرون أنه مجرد مستودع من الدنا يمكن أن تنشأ منه جينات أخرى مفيدة، فيما يعتقد البعض الآخر أن له وظيفة فى التنامى أو فى تعبير جينات تجاوره.

الدنا المصون

يكتسب الدنا عادة طفرات عشوائية، فإذا وقعت هذه الطفرات فى مناطق من الدنا ذات وظيفة أساسية هامة، تسببت فى موت الأفراد. هذا يعنى أن التتابعات الدناوية الأساسية للبقاء لابد أن تبقى محفوظة بلا تغيير، حتى بين الأنواع. وعلى هذا فعندما يقارن الوراثيون جينومات أنواع مختلفة، ثم يجدون مناطق من الدنا ثابتة فيها، فإنهم يعتبرون أن لهذه المناطق وظيفة حيوية أساسية. من المستبعد بناء على هذا أن يجد العلماء

على بداية القرن العشرين، بدأ العلماء ينتبهون إلى الرابطة البيوكيماوية بين البشر والشمبانزى، فاكتشفوا أن شكل الكثير من بروتينات الشمب يشبه بروتينات البشر، بل ويكاد يطابقها

مناطق مصونةً داخل سقط الدنا، إذا كان هذا بالفعل بلا وظيفة. لكن الحقيقة هي أن بعض العلماء قد وجد في السقط مثل هذه المناطق المصونة من الدنا واقترح أنها تؤثر في تعبير الجينات المجاورة لها.

وتتابعُ التيلومير (في طرفي كل كروموزوم) تتابعٌ مصونٌ للغاية في المجاميع المختلفة من الكائنات. وعلى سبيل المثال فإن للفقريات تتابعاً .هو: ث ث أ ج ج ج. يتكرر مراتٍ ومراتٍ يصل تعدادها إلى ما بين ٥٠٠ و ٣٥٠٠ مرةً في الرئيسات (يبلغ طولُ التيلومير في كروموزومات البشر نحو عشرة آلاف زق، أما في الشمبانزى فيصل إلى ٢٣ ألف زق). يلاصق التيلومير، إلى الداخل، مناطقُ بها مكررات دناوية أخرى، إن تكن غير مصونة تماماً، فبها تبايناتٌ عديدة داخل النوع ذاته، لكن يسهل تمييزُها في الأنواع وثيقة القرابة.

نتائج مذهلة

لا يحدث كثيراً أن يلهث الحاضرون في اجتماع علمي وهم يستمعون إلى عالمٍ يتحدث أمامهم على المنصة. لكن هذا هو ما حدث يوم ٣ يونيو ٢٠٠٤، عندما أعلن إدوارد روبين E. Robin، في جلسة اجتماعٍ عقدت بمعمل سبرينج هاربور في نيويورك، أن فريقه العلمي قد اقتضب مقاطع ضخمةً من دنا جينوم الفأر، ولم يظهر أي أثرٍ ملحوظٍ على الفئران التي ولدت «منقوصة الدنا». لم يكن هناك من يتوقع هذه النتيجة، فالتتابعات الدناوية المحذوفةُ كانت تَضُمُّ «مناطق مصونة»، يُظن أن لها وظائف هامة.

كان العلماءُ يفترضون أن التتابعات المصونةَ لابد أن تكونَ أساساً في متن الجينات التي تُشفر للبروتينات. لكنهم ذهلوا عند مقارنة جينومي الفأر والإنسان، إذ وجدوا أن هناك بالفعل تتابعاتٍ كثيرةً مصونةً داخل صحارى سقط الدنا لا تُشفرُ لأي بروتين!

للتوصل إلى وظيفة مثل هذه المناطق المصونة في سقط الدنا بالثدييات، قام فريقُ إدوارد روبين في كاليفورنيا بحذف مقطعين هائلين من هذا السقط في الفئران، مقطعين يحملان ١٠٠٠ تتابع محفوظ شائعة بين البشر والفأر. كان طولُ واحدٍ منهما يزيد على ٨٠٠ ألف قاعدة، أما الآخر فيصل طوله إلى نحو ١.٦ مليون قاعدة. توقع الفريق أن تعاني الفئران الناتجة، من مشاكل مختلفة في الحياة وفي البقاء.

لكن ما حدث هو أن الفئران التي وُلدت لم تُظهر أيّ اختلافٍ واضحٍ عن الفئران الطبيعية في كل الصفات التي قيست: النمو، وظائف الأيض، طول الحياة، التنامي. قال روبين: «لقد ذُهلتُ فعلاً!». أمعقول ألاّ تلعب التتابعاتُ المصونةُ هذه أي دورٍ في النمو والتنامي؟ إذن، فلأيّ سببٍ حفظت؟ ربما كانت هذه التتابعات تخدم غرضاً مراوغاً لم تتطرقْ إليه الاختبارات التي أجراها الفريقُ على الفئران المنقوصة الدنا؟ أم ترى أن تتابعاتٍ أخرى، بمناطق أخرى من الجينوم، قد قامت على الفور بتأدية وظيفة الجزء المُقتضبِ من الدنا، فلم يظهرْ للحذفِ أثرٌ؟

مشروعُ الجينوم الشمبي

في أغسطس عام ٢٠٠٠ طالب لفيفٌ من علماء الوراثة الأمريكيين بإقامة مشروعٍ لجينوم الشمبانزى. وفي يناير ٢٠٠٣ بدأ المشروعُ بالفعل استخدام دنا ستة أفراد، وكان مشروع الجينوم البشرى آنذاك على وشك الانتهاء (انتهى في أبريل ٢٠٠٣). كان من أهم المبررات التي قُدمت لإقامة المشروع، أن مقارنة التفاصيلِ الجزيئية لجينوم الشمبانزى، بمثيلاتها البشرية قد تساعد في الوصول إلى علاجاتٍ بشرية لأمراضٍ خطيرةٍ للغاية. فالشمبانزى مثلاً لا يُصاب بالملاريا التي تقتل ملايين البشر، وهو لا يصابُ بمرضِ الإيدز. وعلى الرغم من أنه يشاركنا في جينٍ يجعلنا عرضةً للإصابة بمرض الألزهايمر، فإنه لا يصابُ به، لأن جينَهُ ينتج بروتيناً مختلفاً بعض الشيء. ثم إن نسبةَ إصابته بسرطانات القولون والمعدة والثدى والبروستاتا منخفضةٌ كثيراً عنها في البشر.

وفي ١٠ ديسمبر ٢٠٠٣ أُعلن عن الانتهاء من خَرْطَنَةِ mapping مُسوَّدةِ جينوم الشمبانزى. الخريطة الكاملة مع بعض فجوات وأخطاء قليلة. ونُشر ذلك في عدد ١٢ ديسمبر من مجلة «ساينس». كانت تكاليفُ السَّلْسَلَةَ قد بلغت نحو ٢٠ مليون دولار. وفي ٢٧ مايو ٢٠٠٤ ظهر بمجلة «نيتشر» تقريرٌ لخمسة وأربعين عالماً يُعلِنُ الانتهاءَ من سَلْسَلَةِ sequencing نوتيدات كروموزوم ٢٢ الشمبى (ويبلغ عددها نحو ٣٣.٣مليون قاعدة) بدقةٍ بلغت ٩٩.٩٩٨٪، نفسِ الدقة التي فُحِصتْ بها كروموزومات الجينوم البشرى. وهذا الكروموزومُ الشمبى هو النظيرُ للكروموزوم ٢١ البشرى. الكروموزوم المسئولِ عن متلازمة داون أو الطفل المغولى (التي تظهر في الإنسان وفي الشمب) ومرضِ الألزهايمر، واللوكيميا الحادة. والمقارنةُ بين الكروموزومين ستساعد في كشف البعضِ من الطفرات التي أدت إلى الفروق بين النوعين، والعواملِ المختلفة التي لعبت دوراً رئيسياً في تطور الرئيسات.

نتائج التشريح الجزيئى لجينوم الشمبانزى

تقول النتائج التي ظَهَرَتْ أن درجةَ تطابقِ تتابعِ النوتيدات في جينومي الشمبِ والإنسانِ تصل إلى ٩٨.٧٪. قد يُشير هذا إلى أن عدداً محدوداً فقط من الجينات هو الذي يُحَدِّدُ جوهرَ «البشرية». رصد العلماء ٧٦٤٥ جيناً مشتركاً بين الإنسان والشمب والفأر، وبحثوا بينها عن الجينات التي كابدت التغير، وميَّزَتْ هذا عن ذاك، فاتضح أن تغيراتٍ سريعةً قد وقعتْ في ١٥٤٧ جيناً بشرياً (ومن ثم في البروتينات التي تُنْتِجُهَا) وفي ١٥٣٤ جيناً شمبياً. وذلك بمقارنة هذين النوعين بالفأر، الأدنى مرتبةً على سُلَّم التطور. يرى البيولوجيون إذن أن الانتخابَ الطبيعي قد حَوّر في البشر ١٥٤٧ جيناً أضفتْ علينا صفةَ البَشَرِيَّة، حُوِّرت لتتلاءمَ مع البيئة التي نحيا بها. وقد قَدَّرَ ديريك وايلدمان .E.D Wildeman وزملاؤه أن عددَ الجيناتِ التي مَيَّزَتْنَا يتراوح ما بين ٢٨٠٠ و٤٠٠٠، وهذه تختلف جوهرياً عن نظيراتِها في الشمبانزى. والبعضُ من هذه الجينات لابد أن قد تَخَصّص في تنظيم عمل جيناتٍ غيرها، فالجيناتُ التنظيميةُ تعمل في فتح أو إغلاق البعضِ غيرها من الجينات، ومن ثَمَّ تُشَجِّعُ أو تُثَبِّطُ انتاجَ بروتينات هذه الجينات الأخرى. وتغييرُ جينٍ مُنَظِّمٍ واحدٍ قد يُغَيِّرُ، ليس فقط من إنتاجِ بروتيناتٍ عديدةٍ، بل وأيضاً من توقيتِ إنتاجِها ومَوقِعِه في الجسم.

فَحَص رُوى بريتِّين Roy J. Britten ٧٧٩ ألف نوتيدة في الشمبانزى وفي الإنسان، وأعلن في تقرير للأكاديمية الأمريكية للعلوم أن ١.٤٪ من النوتيدات قد استُبدلت. جاء هذا التقريرُ نتيجةَ فَحْصِ الطفراتِ النُّقْطِيَّةِ التي تؤثر في نوتيدةٍ واحدة فقط. هناك بالطبع طفراتُ حذفٍ أو إضافةٍ (إنديلات indels) تحدثُ في مقاطع طولها ٢ - ٤ نوتيدات، بل وهناك قِلّةٌ يصلُ طول الإنديل منها إلى أكثرِ من ١٠٠٠ نوتيدة. وضع بريتّين هذا الأمرَ في اعتباره، فجاء تقديره للتطابقِ بين الجينومين: ٩٥٪!. واختلافٌ قَدرُه ٥٪ من الدنا يعني في الحقيقة فارقاً بين النوعين يصل إلى ١٥٠ مليون نوتيدة!

نَتَائجُ كروموزوم ٢٢ الشمبى

وعند مقارنة نتائجِ تحليلِ كروموزومِ ٢٢ الشمبى، الذي تَمَّتْ سَلْسَلَتُهُ النهائيةُ، بنظيراتها على الكروموزوم ٢١ البشرى، اتضح وجودُ فروقٍ قدرها ١.٤٤٪ ناتجةٍ عن استبدالاتٍ لقواعد دنا مفردة. هذا الفارقُ الضئيل كان كافياً لتغيير تتابعِ الأحماض الأمينية في ٨٣٪ من البروتينات التي يُشفَر لها ٢٣١ جيناً وُجِدتْ مشتركةً بين الكروموزومين! والحق أنَّ اختلافَ البروتيناتِ بين النوعين هنا كان في حفنَةٍ ضئيلةٍ من الأحماضِ الأمينية داخلها، ومن ثَمَّ فمن المفترض أن تَظَلَّ وظائفُها متشابهةً للغاية.

اتضح أيضاً أن هناك نحو ٦٨٠٠ منطقة في الدنا. لا يزيد طولُ معظمها

اللغةُ صفةٌ يتفرد بها البشر. من الممكن أن يُدَرَّبَ الشمبانزى على الاتصال بالآخرين باستخدام مجموعة معقدة من الإشارات، لكنه لا يستطيع أن يقوم بحركات الوجه المطلوبة

عن بضع قواعد، وإنْ وَصَلَ طولُ البعض منها إلى ٥٤٠٠ نوتيدة. قد حدث بها إيلاج أو اقتضاب، وكانت هذه كافية لتسبب فروقاً ضخمةً فى تركيب أكثر من ٢٠٪ من البروتينات، وهذا اختلافٌ يزيد كثيراً عما كان متوقعاً. ثم ان البحث فى وقت فتح الجينات ودرجة فتحها قد أوضح أن ٢٠٪ من الجينات قد بَيَّنَتْ «فروقاً معنوية فى نمط نشاطها».

كيف تُحَدَّدُ إذنْ درجةَ التشابه بين الأنواع؟ هذا أمرٌ قد يكون ذاتياً، لا موضوعياً. إذا نظرنا إلى شدةِ التشابه بين نوتيدات الدنا فسنجد تشابهاً قد يصل إلى ٩٨٪ بين جينومى البشر والشمبانزى، فإذا أخذنا فى اعتبارنا المُولَجات والاقتضابات (الإنديلات) تَحوَّلَتْ درجةُ التشابه إلى ٩٥٪؛ أما على مستوى الجينات فقد اتضح أن كل الجينات المعروفة الموجودة على الكروموزوم ٢١ البشرى موجودةٌ أيضاً على الكروموزوم ٢٢ الشمبى. لكنْ كان ثمة اختلافات جزيئية فى الكثير منها. وسنعرض الآن نبذةً عن بعض الجينات الهامة المشتركة، والمختلفة فى نفس الوقت، فى جينومى البشر والشمبانزى.

جيــنُ لـلُّـغــة

عرف المجتمعُ العلمى عن عائلة (أُطلِق عليها اسم K.E) منذ نحو عام ١٩٩٠، كان نصفُ أفرادها، وعلى مدى ثلاثة أجيال، يعانون من مشاكل أوضحها الصعوبة فى الكلام، حتى لَيُصبح حديثُهم غيرَ مفهوم، فيتطلب الأمر تدريبَهُم وهم أطفال على لغة الإشارة. ظهر من البداية أن هذه حالةٌ وراثية، وأنها صفةٌ سائدة أوتوزومية (أى غير مرتبطة بكروموزوم الجنس س X) يعانى فيها المصابون من قصورٍ فى إنشاء الجُمَل وعدم التمكن من تفهم بعض نواحى قواعد اللغة، ومن عدم القدرة على تشكيل كلام مفهوم، وقُصُورٍ فى القدرة على تحريك الفك الأسفل والفم، لاسيما الشفة العليا واللسان، بجانب انخفاض معامل الذكاء (المتوسط = ٨٢ نقطة).

ظهر اولُ بحثٍ عن هذه العائلة فى مجلة «نيتشر» فى ٤ أكتوبر ٢٠٠١، واتضح ان الجينَ المسئول (وقد أُطلِقَ عليه اسم FOXP) موجودٌ على الكروموزوم السابع. وأن طفرةً بهذا الجين تغيرت به نوتيدةٌ واحدة فقط. من بين الخمسمائة نوتيدة التى تؤلف الجينَ. هى المسئولةُ عن المرض بعائلة K.E، إذ فَقَدَ بها هذا الجينُ قدرتَه على تنشيط التتابع الطبيعى للجينات اللازمة للتنامى المبكر للمخ، مما تسبب فى تغير غير طبيعى فى عُقَد عصبية بالمخ تختص بالحركة (ومن هنا صعوبة تحريك الشفتين واللسان).

وقد اتضح أن هذا الجينَ جين تنظيمى مَصُونٌ، يشفر لبروتين يتألف من ٧١٥ حمضاً أمينياً، وتوجد منه صِيَغٌ مختلفة فى الشمبانزى والغوريلا والأورانج يوتان وقرد الريزوس والفأر. وإنْ كُنَّا لا نفهم له وظيفةً لدى هذه الحيوانات جميعاً. تُبَيِّن الصيغةُ البشرية للجين دلائلَ على تغير تطورىٍّ متسارع حدث خلال المائتى ألف سنة الأخيرة، اكتسب به الجينُ وظيفةً جديدةً ساعدت فى إضفاء مَلَكَة الكلام على البشر. فثمة تَحَوُّرٌ طفيف بهذا الجين لم يُعْثَر عليه فى أى ثديى آخر. يتحول فيه حمض ثريونين فى الصِيَغ غير البشرية إلى حمض أسباراجين. قد تَسَبَّبَ فى أن يُطَوِّر الإنسانُ بِنْيَةَ الوجه والفك والقدرةَ على التحريك الرهيف للفم والحنجرة، لتصبح إمكاناتُنا المتفردةُ على الكلام واللغة أمراً ممكناً.

هذا الجين نشط جداً، وهو يعمل فى الكبد والرئة والمخ، وله على الأغلب مهام أخرى فى الجسم، لكنه يبدأ نشاطَه مبكراً جداً فى مخ الجنين أثناء تناميه فى رحم الأم، ويبلغ نشاطه غايتَه فى مناطق المخ التى تتحكم فى الحركة.

يُشكِّلُ هذا الجينُ، على ما يبدو، بدايةَ وضع الأساس الوراثى لِلُّغَة البشرية. هو ليس جينَ «اللغة»، إنما هو جين «لِلُّغَة». واللغةُ صفةٌ يتفرد بها البشر. من الممكن أن يُدَرَّبَ الشمبانزى على الاتصال بالآخرين باستخدام مجموعة معقدة من الإشارات، لكنه لا يستطيع أن يقوم بحركات الوجه المطلوبة. باللغة تَمَكَّنَ الإنسانُ من نَقْل كمياتٍ هائلة من المعلومات بين الأجيال، ومن ثم فقد كانت قوةً دافعةً هامة فى انتشار الإنسان على وجه الأرض وفى قيام الحضارة.

جيــنُ لـلـسَّـمْــع

ربما كانت الجيناتُ التى تُمَكِّنُ الإنسانَ من تفهم اللغة لا تعمل فى المخ وحده، وإنما تعمل أيضاً على حاسة السَّمْع. جاءت الإشارةُ الواضحةُ على هذا من جين، أُطلق عليه اسم ألفا تكتورين alpha tectorin (ويقع على الكروموزوم ١١ البشرى)، يُشَفِّر لبروتين غامض فى الغشاء التكتورى بالأذن الداخلية للإنسان، وتُؤدى طفرةٌ (سائدة) فيه إلى إحدى صور الصَّمَم. وهذا الجين البشرى (وهو أحد ثلاثة، من بين ٢١ جيناً مسئولة عن السمع، كابدت تغيرات متسارعة) يختلف كثيراً عن نظيره فى الشمبانزى، ويُظَن أن الصورةَ البشريةَ قد تطورتْ على الأغلب مع جينات الكلام لتجعلَ حاسةَ السمع فى الإنسان أكثر حدةً وأكثر دقة. فهذا أمر يصبح ضرورياً لتفهم اللغة المعقدة المنطوقة. حتى ليرى البعضُ أن صعوبةَ تدريب حيوانات الشمبانزى على تَفَهُّم لغتنا إنما ترجع إلى أن حاسةَ السَّمْع لديها لا ترتقى إلى المرتبة التى نتمتع بها نحن البشر.



جينٌ لهذا السُّكَّر اللعين

من بين الجينات التى تختلف بين البشر والشمبانزى، هناك الجين CMAH الذى يُشَفِّر لإنزيم يصنع سكَّراً يغلِّف أسطح خلايا الجسم. سكَّراً يُطلَق عليه اسم Neu5Gc. يوجد هذا السكَّر على أغشية خلايا جسم الشمبانزى وغيره من الثدييات التى دُرست، لكنه غير موجود فى البشر. ففينا يصبح هذا الجين بلا عمل؛ ثمة مقطع طويل من سَقْط الدنا قد حَلَّ محلَّ جزء من الجين فأصبح بلا عمل. يتألف البروتين الذى يُشَفِّر له جينُ الشمبانزى من ٥٨٠ حمضاً أمينياً، أما بروتين الجين البشرى فمن ٧٢ حمضاً فقط. هذه الصيغة من الجين العديمةُ الجدوى توجد الآن فى كلِّ إنسان على سطح الأرض، ولا توجد فى أى ثديى آخر.

يوجد هذا السكَّر إذن على أغشية كل خلايا جسم الشمبانزى وغيره من الثدييات، لكن فى مخاخ نفس هذه الحيوانات تعمل جيناتٌ أخرى تبطئ من إنتاج هذا السكر، فلا نجد منه إلا القليل جداً على أسطح الخلايا العصبية (النيورونات). الأمر الذى قد يشير إلى أن لهذا السكر أثراً ما جانبياً ضاراً على خلايا المخ. لا نعرفه (حتى الآن). وعلى هذا يمكن القول إن الإنسانَ قد حظى بنعمةٍ غالية بتوقف الجين CMAH هذا عن العمل بخلاياه، فربما كان هذا من بين أسباب استمرار تطورِ مخه إلى الحد الذى جعله يتميز عن كل مخلوقات الله.

جيناتٌ أخرى مشتركة

هناك فروقٌ أخرى بين البشر والشمب فيما قد يصل إلى ٨٠ جيناً تختص بإعادة تدوير الأحماض الأمينية عند

هضم البروتينات، وهذه الفروق قد تعكس ما حدث من تغير فى الطعام عندما تحول الأسلاف من طعام نباتى أساساً إلى أكل اللحوم.

ثمة اختلافات أخرى قد حدثت فى الجينات التى تعمل على حاسة الشم، الحاسة التى تختلف بوضوح بين البشر والشمبانزى. فالكثير من الجينات الخمسين المهمة المرتبطة بالشم، والتى تشفر لمستقبلات فى الأنف، تبدو فى البشر وقد توقفت تماماً عن العمل، وأصبحت «جينات كاذبة»، ربما لتعكس تضاؤل أهمية الشم فى أسلوب حياتنا مقارنة بالشمب. فى نفس الوقت، هناك من بين هذه الجينات الخاصة بالشم جينات قد تطورت وبسرعة فى البشر، وتضم هذه الجينات اللازمة للعثور على الطعام وتمييز طبيعته وطزاجته (وربما أيضاً لاختيار الرفيق). صحيح أن حاسة الشم قد تدهورت كثيراً فى البشر، لكن الله قد عوضهم عنها برؤية للألوان أفضل، ومقدرة أفضل على التواصل مع الآخرين عن طريق الوجه بديلاً عن الرائحة.

هناك جينات أخرى تختص بتنامى المخ، من بينها جين هام أطلق عليه اسم SEMA3B يساعد فى توجيه المحاور العصبية axons النامية إلى المناطق الصحيحة من الجسم، والفروق فى الصيغة البشرية لهذا الجين مقارنة بالصيغة الشمبية قد تفسر بعضاً من الاختلافات فى الشبكة العصبية بين البشر والشمبانزى.

ولقد حدد الباحثون أيضاً هوية جينين، هما NCAM2 EGRIK، لهما علاقة بوظائف الأعصاب، وكانت الصيغة البشرية لكل منهما تحمل مقاطع طويلة من الدنا لا توجد فى الشمبانزى، يصل طولها فى الجين الأول إلى ١٠٠٠٠ نوتيدة، وفى الجين الثانى إلى ٤٠٠٠ نوتيدة.

عن الكروموزوم البشرى رقم ٢

مثلما وجد الباحثون كل هذه الفروق بين البشر والشمبانزى، فقد وجدوا أيضاً طفرات مختلفة فى هيكل الكروموزومات ذاتها. للشمبانزى جينوم يضم أربعة وعشرين زوجاً من الكروموزومات، ويحمل هذا الجينوم تقريباً نفس عدد النوتيدات الموجودة بالجينوم البشرى المكون من ثلاثة وعشرين زوجاً. اكتشف العلماء بمقارنة أنماط التشريط على الكروموزومات فى كلا النوعين أن الكروموزوم رقم ٢ البشرى قد يكون ناتجاً عن «انتقال» اندمج فيه كروموزومان صغيران من جينوم الشمبانزى (أنظر الشكل٢)، بمعنى أن اختلافنا عن الشمب فى عدد الكروموزومات لم ينشأ عن فقدنا لكروموزوم، وإنما عن التحام اثنين من كروموزومات الشمب ليظهرا ككروموزوم واحد.

فإذا كان هذا صحيحاً، فإن معناه أن تيلوميرى هذين الكروموزومين الصغيرين لابد أنهما قد اندمجا ليمكثا فى وسط الكروموزوم البشرى. والتيلومير هنا يتكون من عدد كبير من مكررات كل منها كما ذكرنا مؤلف من ست نوتيدات هى ث ث أ ج ج ج، ووجود هذه المكررات بالمئات فى وسط الكروموزوم. أى كروموزوم، فى أى كائن. هو أمر مستحيل، فهى لا توجد إلا فى أطراف الكروموزومات وتلاصقها، وقبلها مباشرة، توجد بالطبع المكررات المصاحبة للتيلومير.

بالفحص الجزيئى للتتابعات النوتيدات بوسط الكروموزوم ٢ البشرى اتضح أنه يحمل:

[تتابع ما قبل التيلومير. تتابع التيلومير. تتابع التيلومير مقلوباً. تتابع ما قبل التيلومير مقلوباً].

بهذا الترتيب! ومقلوب تتابع المكرر هنا يعنى س س س ث أ أ، فهذه هى القواعد الست المكملة للمكرر الأصلى (ث ث أ ج ج ج) مقلوباً. ما الذى جاء بهذه المكررات فى وسط الكروموزوم؟ سوى أن يكون بالفعل ناتجاً عن دمج كروموزومين؟

ثم إن سنترومير الكروموزوم٢ البشرى يوجد فى نفس مكانه بالكروموزوم٢ ق الشمبى (الأقصر). كذا يقول تشابه التتابع. كما أن تتابع النوتيدات فى الذراع الطويلة للكروموزوم٢ البشرى تحمل البقايا المؤكدة لنوتيدات السنترومير الأصلى للكروموزوم٢ط الشمبى (الأطول) (وهو بالطبع لا يعمل كسنترومير بالكروموزوم البشرى).

يبدو أن الشواهد على أن الكروموزوم الثانى البشرى قد جاء عن دمج كروموزومى الشمبانزى شواهد دامغة فعلاً.

طفرة انقلاب فى الكروموزوم البشرى رقم ٥

إذا قارنا بين تشريط الكروموزوم البشرى الخامس والكروموزوم الشمبى النظير فسنلاحظ أن الكروموزومين متماثلان، ويتطابقان فى التشريط، وفى موقع السنترومير، إذا قلبنا المنطقة فى الكروموزوم الشمبى ما بين P١٤.١ و١٤.١ q، الأمر الذى يشير إلى أن الكروموزوم البشرى قد جاء عن طفرة انقلاب فى هذه المنطقة من الكروموزوم الشمبى.

ما بين الدنا (DNA) والدين

ثمة شىء من التوتر يسود دائماً العلاقة بين رجال العلم ورجال الدين. العلم يقدم نتائجه، وتفسيرها عادة ما يكون السبب فى هذا التوتر. العلم بالضرورة يقود إلى الإيمان، والدين بالتأكيد يدعو إلى العلم. ومن الصعب أن نجد تبريراً لهذا التوتر إلا إذا كان منشؤه الاختلاف فى وجهات النظر عند تفسير نتائج العلم، أو عند تفسير دلالات الألفاظ فى الكتب المقدسة. عندما نشر جاليليو كتابه «حوار عن نظم العالم الفسيح»، سنة ١٦٣٢، معضداً فكرة كوبرنيق بأن الأرض هى التى تدور حول الشمس. لا العكس. حوكم أمام محكمة تفتيش حكمت عليه بالسجن فى ٢٢ يونيو ١٦٣٣. كانت آراء جاليليو تعارض آراء بطليموس وأرسطو الضحلة، ولم تكن تعارض الإنجيل، سوى أن الكنيسة كانت قد اعتبرت آراء هذين من صلب الدين، وأن الخروج عليها كفر. وبعد ٣٥٩ سنة وفى ٣١ أكتوبر ١٩٩٢ ألغى البابا جون بول الثانى الحكم، بعد أن اتضح له أن الكنيسة قد أخطأت.

أحس الناس عندما ظهر كتاب جاليليو بأن الأرض قد فقدت مكانها الأسمى، ولم تعد هى مركز الكون. ولما نشر داروين كتابه «أصل الأنواع» عن نظرية التطور، أصيب الناس بالفزع، هذه المرة لأنهم أحسوا بأن الإنسان يفقد بها مكانته الرفيعة كسيد للكون. يروى آنئذ أن زوجة أسقف ورشستر عندما سمعت عن نظرية داروين صرخت قائلة: «يا فضيحتى! نحن من نسل القرود؟ أمل ألا يكون هذا صحيحاً. فإذا كان صحيحاً فأرجو من الله ألا يعرف به أحد!». وقفت الكنيسة صراحة ضد النظرية، وربما كان أول صدام علنى هو ما حدث بين ديلبرفورس وهكسلى بعد ستة أشهر من صدور «أصل الأنواع».

يقول معارضو نظرية التطور من رجال الدين. ورجال العلم أيضاً. إنه إذا كانت الأبحاث قد أثبتت صحة ما جاء به جاليليو، فإن نظرية التطور لم تثبت، وأن أحداً لم يلحظ التطور، وليس ثم أحافير انتقالية تمثل كل الصور التى مرت بها الكائنات الحية عبر تطورها، فالسجل الحفرى لا يبين عملية التطور إنما يكشف عن الظهور الفجائى للصور الجديدة من الحياة. ثم إن الوضع مع نظرية التطور مختلف. فالإنجيل قد ذكر صراحة أن الله قد خلق الكون كله فى ستة أيام. والإنسان به. ورجال التطور يدعون أن الإنسان قد تطور عبر ملايين السنين. والمعلومات المضمنة فى الدنا ليست من صنع الدنا. فمن أين جاءت؟ من يكون مؤلفها؟ ثم ماذا يحدث لو اكتشفنا بعض الجينات التى تضفى علينا صفات «البشرية»، ثم رأى بعض العلماء أن يولجوها فى الشمبانزى. من يا ترى سيتحمل نتيجة مثل هذا التهجين الدناوى؟ ومن يا ترى يتحمل نتيجة أن يحاول العلماء هندسة بشر أكثر «بشرية»، يجمعون بهم «أفضل» صيغ الجينات التى نتفرد بها؟ ثم، إذا كان الصحيح أن ١٨ زوجاً من الكروموزومات تكاد تكون متطابقة فى البشر والشمبانزى فإن الكروموزومات ٤ و٩ و١٢ تبين شواهد على أنه قد «أعيد تشكيلها»، تعنى أن الجينات الواسمات markers على هذه الكروموزومات

يروى أن زوجة أسقف ورشستر عندما سمعت عن نظرية داروين صرخت قائلة: «يا فضيحتى! نحن من نسل القرود؟ أمل ألا يكون هذا صحيحاً. فإذا كان صحيحاً فأرجو من الله ألا يعرف به أحد!»

الثلاثة ليست بنفس الترتيب فى النوعين. وبدلاً من «إعادة التشكيل» التى يقترحها التطوريون، لماذا لا نقول إنها فروق جوهرية بسبب «الخلق المنفصل» الذى يقول به الخلقويون؟ هم يؤكدون أن القرن العشرين قد شهد سقوط اثنين من «الثلاثة الكبار» الذين كان لهم أكبر الأثر فى تشكيل الحضارة الغربية: سيجموند فرويد S. Freud وكارل ماركس .K.Marx، وأن القرن الحادى والعشرين سيشهد سقوط الثالث: تشارلس داروين.

لكن فرانسيس كولينز .F.Collins رئيس مشروع الجينوم البشرى يقول: «إننى أرى أن الله بحكمته قد استخدم التطور مخططاً للخلق، ولا أعرف سبباً فى أن تكون فكرتى هذه سخيفة!». ثمة دراسة مثيرة قام بها الصديق الدكتور حسن عطية فى أحد كتبه، فقد حاول تفسير معانى الكلمات: «الناس، البشر، الإنس، الإنسان». كما جاءت بالقرآن الكريم. ورأى باجتهاداته أنها لا تعنى نفس الشئ، وأن تفسيراته لها قد تحتوى اجتهادات العلماء بشأن نشأة الجنس البشرى. أما البابا جون بول الثانى، فقد وجه رسالة فى ٢٣ أكتوبر ١٩٩٦ يقول فيها إن النتائج التى تجمعت عبر الخمسين سنة الماضية قد أدت إلى الاعتراف بأن نظرية التطور هى أكثر من مجرد فرض، وأن الخلقوية creationism والتطور يمكن أن يعملا سوياً دون تضارب، طالما أكدنا أن الله لا سواه هو من ينفخ الروح فى البشر. والواقع أن التطوريين والخلقويين سوياً لا يعملون فى العلم التجريبى عندما يعالجون قضية نشأة الحياة، فهذه لا يمكن أن تكرر، أو أن توضع فى أنبوبة اختبار لتفحص. إن ما يقومون به جميعاً هو تمارين جدلية يحاول فيها كل فريق أن يطرح نظرية حول الماضى ترتكز على بيانات تجريبية نلاحظها اليوم. والنظرية التى ستقدم ستكون، أولاً وأخيراً، مجرد هيكل فلسفى لتفسير آخر البيانات التى جمعت، «فالحقيقة بنت الزمن»، كما يقول المثل اللاتينى القديم!

النتائج العلمية التى عرضت هنا عن الجينوم البشرى وجينوم الشمبانزى، صممها وجمعها ونشرها وفسرها من يعضدون التطور. كل تفسيراتهم تقول إن البيئة والانتخاب الطبيعى كانا من وراء التباينات فى الدنا بين النوعين. وجدوا أن تشابه تتابعات الدنا بينهما أوثق من أن يكون مجرد صدفة، فقالوا إنهما قد انشعبا عن أصل مشترك. ثم أنهم قدموا اثباتهم العجيب على أن كروموزوماً بشرياً قد جاء عن اندماج كروموزومين شمبيين، وأن كروموزومات بشرية أخرى قد جاءت عن انقلابات داخل كروموزومات شمبية. لكن معنى التشابه وقدره يختلفان حتى بين العلماء. لقد وفر تتابع الدنا لهم معياراً جديداً يقيسون به التشابه بين كائنات كان من المستحيل قبلاً أن تجرى بينها مقارنة ذات معنى، لكن المعيار على ما يبدو لا يزال يحتاج إلى ضبط. التشابه بين دنانا ودنا الشمبانزى كما رأينا يبلغ نحو ٩٨.٧٪، ورغم ذلك فحجم مخنا يبلغ مثليـن أو ثلاثة أمثال حجم مخ الشمبانزى، كما نتميز عنه بالقدمانية bipedalism (أى المشى على قدمين) والثقافة المتطورة وبالحجم الأصغر للأسنان الخلفية. فإذا نظرنا إلى مدى التشابه بين دنانا ودنا كائنات أخرى، رأينا العجب: فهو مع الغوريلا ٩٨.٤٪، ومع القط ٩٧٪ (ودنا الكروموزوم A١ فى القط مؤلف من أجزاء من الكروموزومين ٥و١٣ البشريين)، ومع الكلب ٩٥٪ ومع الحصان ٨٠٪ (وكل دنا الكروموزوم البشرى الثامن موجود بالكروموزوم التاسع للحصان)، ومع الفأر ٨٥٪، ومع نبات الذرة ٦٧٪، ومع نبات الموز ٥٠٪، فهل من يقول إن نبات الموز نصف بشر؟! أو أن الذرة ثلثا بشر؟! ليس على أى منا أن يبحث عن الشمبانزى بداخله!

لكن، ماذا يعنى هذا التشابه حقاً؟ وكيف لا نتوقعه؟ لقد خلق الله الكائنات جميعاً ولها نفس المادة الوراثية، حتى ليمكن بالهندسة الوراثية أن ننقل الدنا بين الكائنات جميعاً نحن وكل حى أقارب فى الدنا. كذا كانت مشيئته، «وما كانت مشيئته بلا معنى» كما يقول الشاعر إيليا أبوماضى. لو شاء لجعل لكل مادته الخاصة. من المستحيل ألا تكون بيننا وبين كل الأحياء صلة. كلنا من عجينة واحدة، أو قل من «طينة» واحدة، اسمها الدنا، يختلف مقدارها، ترتيبها، تجميعها، معمارها، فتختلف الكائنات، وتتشابه. الله لم يميزنا نحن بمادة وراثية تخصنا وحدنا ولا يشترك فيها معنا الشمبانزى أو غيره. والبحث فى الدنا المقارن يوسع قدراتنا، وخيالنا، وفلسفتنا، وتفهمنا للحياة، ويفسح المجال أمام اكتشاف علاجات جديدة للأمراض لم تكن تخطر لنا قبلاً على بال!

ومثلما يقول إيليا أبوماضى «أراد الله أن نعشق لما أوجد الحسنا»، فربما كان لنا أيضاً أن نقول «أراد الله أن نعرف لما أوجد العقلا»! فلو أراد ألا نعرف لسوانا بلا عقل يفكر! ■

صـفـحـــات مـــن كـتـــاب

كفى!

بـيـــل مـــاكـيـبـين

■■ بحاجة نحن إلى أن نقوم بفعل مستبعد الحدوث: بحاجة نحن إلى أن نمسح العالم الذى نسكنه وأن ننادى به عالمًا طيباً. ليس فى كل تفاصيله. هناك الآلاف من التحسينات. تقنية وثقافية. التى يمكن أن نصنعها، هى طيبة بما يكفى فى الخطوط العريضة وفى الجوهر. حياتنا. حياة معظمنا فى الغرب . طويلة إلى حد معقول. بحاجة نحن إلى أن نعلن أننا نحيا فى الغرب فى يسر ودعة، فلا ينهك منا فى العمل إلا قلة. فى مجتمعات يحتاج فيها معظمنا إلى خزائن لممتلكاته أكثر من حاجته إلى صناديق أعاجيب الناتوتك، علينا أن نعلن بصراحة أن لدينا ما يكفى من الأشياء. ما يكفى من الذكاء. ما يكفى من القدرات. وكفى.

قبل أن يدمرنا جنون العلماء

كفى!

بيل ماكيبين

القاهرة: دار سطور ٢٠٠٤.

ترجمة: أحمد مستجير، فاطمة نصر



ذاك هو قطب المسألة التى يدور حولها هذا النقاش. لا أمتلك رؤية جديدة براقة تنافس رؤى المستقبليين الذين يحلمون بجعلنا «فوق البشر». إنما نحتاج إلى أسلوب جديد للنظر إلى الحاضر. إذا ما أمكننا أن نعتبره كافياً، فربما استطعنا أن نجد وسيلة نتجنب بها هذه التقنيات وما تجره من مخاطر. فيزيائية ووجودية، ربما استطعنا بديلاً عنها أن نكشف بداخلنا غريزة حافظة تجعل مقاومتنا صلبة. سنأتى فيما بعد إلى تفاصيل كيف يتأتى لنا فعل هذا، فالواضح أن إطفاء جذوة الزخم التكنولوجى سيكون صعباً. لكن، علينا أولاً أن نجيب على السؤال الجديد: هل نصلح فعلاً فى شكلنا الحالى لأداء المطلوب.

يجيب الحالمون التقنيون صائحين: لا! نحن نمتلئ فى عيونهم بالعيوب، بدءا من أجسامنا ذاتها. خذ مثلاً روبرت إتينجر، عالم التجميل العالمى الذى يقول من زمان طويل إن الهندسة الوراثية وغيرها من التقنيات الجديدة ستأتى لنا «بعصر ذهبى». إنه يرى أن «التخلص من الإخراج» سيكون من بين الملامح البارزة لهذا العصر. يجادل قائلاً: إذا كانت النظافة تلى التقوى والصلاح، فلابد أن يكون السوبرمان أكثر نظافة من الإنسان. ستكون أعمال الصرف فى المستقبل (لمن يتم تذويبهم بعد التجفيف، وأيضاً للمواليد الجدد) أكثر صحية ولياقة. سيتناول من يختار منهم أطعمة لا تخلف فضلات، ويتبخر الزائد من الماء من خلال مسام الجلد. أو قد تقوم بعض الأعضاء، بعد أن عدلت بالتخلص من فضلات صغيرة جافة مدمجة. واجه إتينجر أيضاً مشاكل بشأن فتحات الجسم الأخرى: أشار أحد أصدقائه إلى أن «الفم متعدد الوظائف» «مربك وبدائى أيضاً لدرجة «السخف». ولقد يلفت نظر المخلوق الفضائى أن لدينا عضواً واحداً يقوم بالتنفس

هل سمعنا عن كاتب مسرحى فى السنين الأخيرة يفوق شكسبير أو يوريبيدس؟ لقد تعلمنا الكثير فى الألفى سنة الأخيرة، لكن الكثير من الحكمة القديمة لا يزال راجحًا

وتناول الطعام والتذوق والمضغ والعض، والتشاجر فى المناسبات، والمساعدة فى لضم الإبرة، والصياح والصفير وإلقاء المحاضرات، وتقطيب الوجه».

لم يكن إتينجر وحده فى كره الذات. كره الذات يسود هذه الثقافة الفرعية: العويل الدائم لأن الناس فى أفضل حالاتهم لا يماثلون إلا ـ قل مثلاً ـ البوجو، وهذه تقنية أساسية مقبولة سعرها معقول، لكن ليس بها ما يدعو إلى الاهتمام. تأمل هانس مورافيك ذات مرة قصة عظيموف القصيرة عن إنسان آلى أراد أن يصبح شخصاً حقيقياً. قال: «إنها قصة لطيفة، لكنى عندما قرأتها سألت نفسى: لماذا بحق الجحيم تريد أن تصبح رجلاً وأنت بادئ ذى بدء أفضل منه؟ إن هذا لا يشبه إلا إنساناً يريد أن يصبح قرداً: يا رباه! أتمنى لو كان شعرى أغزر، وقامتى أكثر انحناء، ورائحتى أفظع، عمرى أقصر!».

يبدو أن بعض الناس ـ كما يعترف مارفين مينسكى رائد الذكاء الاصطناعى ـ يقبلون أنفسهم كما هم. ربما كانوا غير أنانيين بما يكفى، أو غير خياليين، أو غير طموحين. أما عن نفسى، فأنا لا يروقنى كثيراً ما عليه البشر الآن، إننا سطحيون للغاية أغبياء جهلة. أشار أيضاً إلى أننا كنوع «نبدو وقد بلغنا منتهى التنامى الفكرى. ليس من دليل على أن ذكاءنا ينمو.. هل سمعنا عن كاتب مسرحى فى السنين الأخيرة يفوق شكسبير أو يوريبيدس؟ لقد تعلمنا الكثير فى الألفى سنة الأخيرة، لكن الكثير من الحكمة القديمة لا يزال راجحاً، الأمر الذى يدفعنى إلى الشك فى أننا قد حققنا الكثير من التقدم. يزعم مينسكى أنها مشكلة عتاد بالدرجة الأولى: يستشهد بدراسة تمت بمعامل بِل، ويقوم بحسابات تقول إن الإنسان يمكنه أن يتعلم ويتذكر بيتتين فقط فى الثانية. وعلى هذا، فحتى لو لم تفعل سوى أن تدرس لمدة ١٢ ساعة يومياً لمدة مائة عام، فلن تحصل إلا نحو ثلاثة بلايين بيتة، «أقل مما يمكن تخزينه اليوم على قرص مضغوط عادى قطره خمس بوصات».

فى كتابهما «ما بعد البشرية» يتوسل جريجورى بول وإيرل كوكس قائلين: «لابد أن هناك طريقاً أفضل.. لماذا لا نمتلك إلا قلباً واحداً؟ لماذا لا نمتلك قلبين حتى إذا فشل أحدهما أنقذنا الآخر؟ لماذا لا يكون لنا كبدان؟ لقد تطورنا لنصبح «صائدين جامعى ثمار نُحسن جمع الجذر والبندق والتوت». ولقد اتضح أن تكيفنا تكيف هامشى بالنسبة لممارسة الفيزياء رفيعة المستوى ولكتابة الروايات، تماماً مثل الديناصورات الأولى ذات الأجنحة التى تمكنت من «طيران كان بالكاد يكفى». فى جوهرنا، نحن الإخفاق بعينه: «حتى جسمنا القدمانى المنتصب الذى نزهو به كثيراً، يجعلنا مزعزعين، إذا سقطنا على الأرض قد نُدمر».

لكن أجسادنا وعقولنا ليست وحدها ما يبدو فجاً بشكل لا يصدق. يصاب النبوئيون أيضاً باليأس حينما ينظرون إلى المجتمعات التى أقامتها تلك الأجساد والعقول، ويبدو مما يقولونه أنهم يشبهون أتباع الفيلسوف هوبز المتطرفين. يقول جورج جيلدر، الذى عادة ما يوصف بأنه واحد من «كبار كهنة» وادى السليكون بسبب مقالاته المؤثرة وحلقاته الدراسية، يقول إنه لن ينقذ «الملايين من الناس، أو حتى البلايين، من تاريخهم القديم كهمجيين جهلة، إلا موجات بعد موجات من التقنيات الرفيعة. ستجد فى مجالس تحرير نشرات الويب أناساً «عبر بشريين» متعصبين، لا يكتفون فقط بتبيان كيف سيتطور العالم ويترك وراءه جنسنا البشرى، وإنما يناقشون أيضاً قضايا أخلاقية من قبيل ما إذا كان من الواجب أخلاقياً قتل «اللاضيين» الذين يعترضون سبيل مثل



كـفـى!

هذا التقدم. «إذا لم نضع الأسس لمستقبل عَبْر بشرى، فسيواجه كوكبنا الأرض، لا محالة، مستقبلاً مالثوسيا كئيباً يباد فيه البشر من المرض والجوع ونضوب الموارد». إذا لم نبن مستقبلاً عبر بشرى، فسوف يموت بلايين البشر.. ماذا أنتم فاعلون بهذا الصدد؟ أية وسائل ستقبلونها لتحقيق هذه الغايات؟».

إذا بدأت مثل هذه القتامة تسيطر على فكرنا، فسيصبح الأمر أمر وقت حتى يتولى أنبياء التقنية زمام الأمور، على الأقل لأن اليأس الوجودى سيجعل من الصعب علينا التخلص من الكآبة وبدء المقاومة. فى عام ١٩٩٨ نَشَر الكاتب الفرنسى ميشيل أويلبيك كتابه «الجزيئات الأولية»، وكان هو الكتاب الأفضل مبيعاً فى بلاده. يؤرخ هذا الكتاب لصعود جنس عبر بشرى يتسامى فوق عيون البشر المأساوية. يكتب فيقول «مازال هناك بعض البشر من الجنس القديم. يبدو فى الوقت الحالى أن اندثارهم أمرٌ لا مناص منه.

وخلافًا لما يقوله رُسل الشؤم، يمضى اندثارهم فى سلام، رغم وقوع بعض أعمال عنف عرضية، أخذت تتناقص هى الأخرى. كان من المثير للدهشة أن نلحظ ذلك الخنوع والاستسلام، بل وربما حتى الارتياح غير المعلن، الذى واكب موافقة البشر على فنائهم.

لكن، كيف وصلنا إلى هذه النقطة؟ أخشى أن أقول إن البيئيين يتحملون قدراً من المسئولية. إن حركتهم تهتم بكل شىء آخر على الأرض، أما حديثنا عن البشر فكثيراً ما يكون بلا مبالاة، فتذيع بذلك فكرة أننا جنس ضار يتعذر التحكم فيه، خلية سرطانية تتكاثر وتتحرك بلا وازع داخل نسيج الطبيعة الأعزل. فما أن دفع الكاهن مالتوس للمرة الأولى بنظريته التى تقول إن التكاثر سيفوق إنتاج الطعام حتماً، حتى أخذ نوع ما من اليأس يشكل ما أطلقنا عليه أخيراً اسم «البيئية». ما من مرة حاضرت فيها عن الأساليب التى يمكن بها إصلاح مشاكلنا البيئية، إلا وقام واحد من الحضور يسأل عما إذا كان ارتفاع درجة حرارة جو الأرض هو طريق الطبيعة «للتخلص منا»، نحن الجنس الذى يسبب من المشاكل أكثر من قيمته، يعترينى أحيانًا نفس هذا اليأس؛ ثمة أوقات تُقنعنى فيها شراهتى الاستهلاكية وميلى الأساسى إلى اللامبالاة، بأن فناءنا أمر محتوم.

تتركنا هذه الحالة المزاجية عُرضة للوقوع فى أسر سحر ما بعد البشرية الفتان. لفكرة ضرورة أن يعاد تشكيلنا جذرياً، أو الأفضل، أن تحل محلنا سلالة أخرى أكثر حكمة؛ لفكرة أن التقنية الجديدة ستنقذنا من أنفسنا. يعدنا الدكتور ريتشارد سمولى، حامل جائزة نوبل، والذى يقود فريق نانوتلك بجامعة رايس، يعدنا بأن «تقوم النانوتكنولوجيا بإصلاح ما سببته الثورة الصناعية من أضرار». يكتب إريك دريكسار ليقول: «إن الأفكار الدارجة ترسم مستقبلاً يكتظ بالمعضلات الرهيبة». أما الهندسة الجزيئية فستمنحنا «ثروة خضراء تتكشف عن عملية نظيفة كما الشجرة النامية». كتب البيئيون كتابات مؤثرة عن أخطار الزراعة الصناعية، عن مواطن الكائنات تدمرها حقولنا، عن الأنواع تندثر بسبب توسعنا، كيف إذن نناقش من يريدون «إنقاذ» الأنواع باستنساخها؟ أو الذين يتخيلون المنابلة النانوتقنية تحل محل الزراعة؟ فى بهجة يقول أحد الكتاب: «ستصبح البشرية نظاماً قليل التلويث، منفصلاً عن الطبيعة الأرضية إلى حد كبير. مرة أخرى سيعود البيزون ليجوب السهول الواسعة المفتوحة». إذا كانت كل الاحتمالات مبهجة، وكان الإنسان وحده هو الكريه، فالحل إذن قد يكون هو اختفاء الإنسان من الصورة. تدخل البوتات هنا على سحابة خضراء. ■



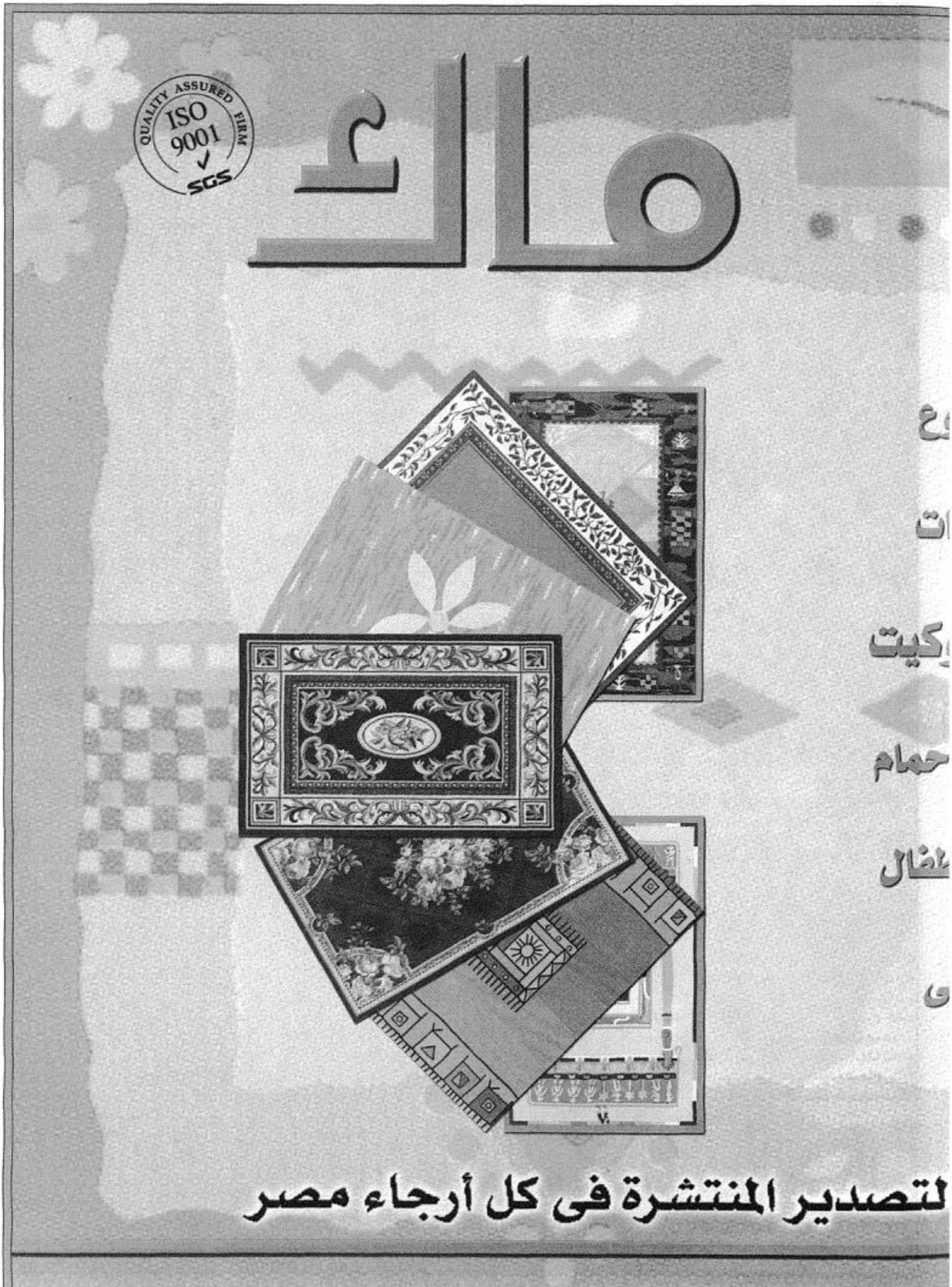
سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال

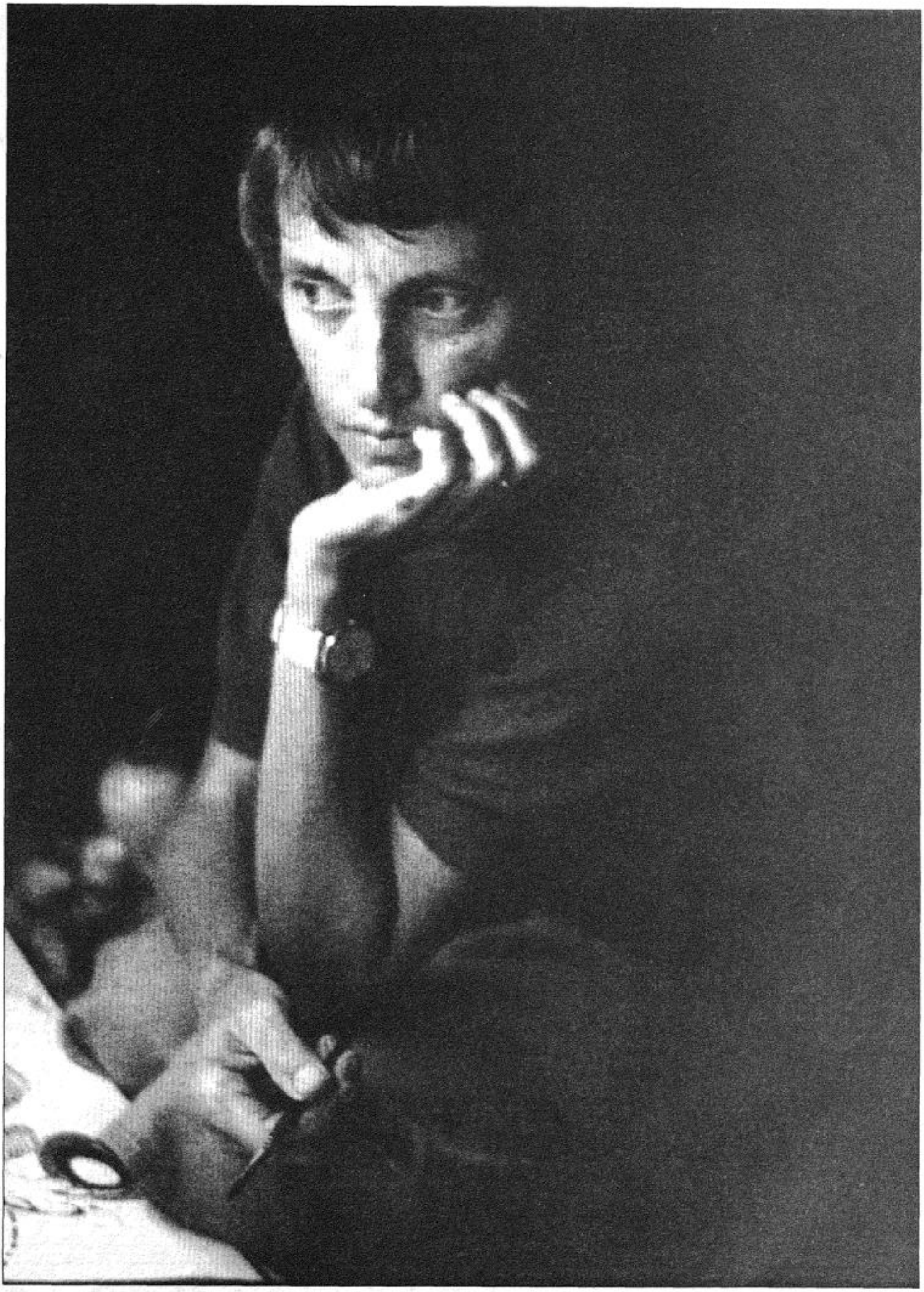
ماك على الإنترنت www.maccarpet.com



مطو
مشا
قطع م
دواسات
سجاد أ
شر

ماك
متواجد فى مراكز بيع بواقى


QUALITY ASSURED FIRM
ISO 9001
SGS
ماك
حمام
لتصدير المنتشرة فى كل أرجاء مصر



مارجـــــوفيبون

مارجـــو ڤيـــون وفرشـــاتها

يوميات مصرية

بـــرونـــو رونـــفـــارد

■■ الذهاب إلى زيارة مارجو فيبون يعنى أن تصل إلى بقعة هادئة فى المعادى، من ضواحى القاهرة، وإلى البيت الذى شيدته نهاية الأربعينيات، وفى الوسط منه يوجد مرسمها الكبير المطلة نوافذه إلى جهة الشمال فيتخللها الضوء غير المباشر الذى يحتاج إليه الرسام. بتجاوز البوابة الخضراء يجد المرء نفسه وسط حديقة مورقة الأزهار والأشجار والشجيرات الكثيفة المتداخلة المشذبة. وهذا الركن الصغير من الأرض يعكس حياتها فى الرسم، فهى حافلة متعددة الأنماط زاخرة بالرنين والأصداء. تشكلت «حديقتها السرية» من تضافر الأماكن البعيدة والعلاقات على مدار عمرها المديد. وليس من السهل تصنيف حياة طويلة مليئة بالنشاط الفنى، كحياة مارجو فيبون. فقد اقتربت لبعض الوقت من المرحلة الثانية للمدرسة التكعيبية فى باريس، ثم تحولت إلى كلاسيكية كى تجسد موهبتها فى الرسم وإحساسها بالتكوينات، قبل أن تطلق ليدها، وخيالها، العنان فى التعبير، ثم توفق ما بين الأساليب الثلاثة بأبعاد كونية، متتالية، خاصة بها. هناك من يظل متتبعًا لأخدودٍ واحدٍ بدأب وفى ظلالٍ، تجعلك تتذكر أعمال Balthus[1] وهناك المغالاة واللامحدودية على طريقة بيكاسو. وقد اختارت مارجو فيبون أن تحتضن كل ذلك، ولكن بمنأى عن الاتجاهات الكبرى والاطراد فى المشهد الفنى.

رغم ذلك نستطيع تتبع عدة اتجاهات فنية واضحة فى نسيجها المتدفق المزدان بالرسوم والصور عن مصر، التى علمتها كيف تنظر وتمسك بأصل كل إيماءة أو لحظة حياة.

نسيج يكمن فيه متحفها المتخيل: لوحات لكل العصور، جنبًا إلى جنب مع الأرض والفضاءات المحيطة والصحراء والأبعاد الكونية باعتبارها اكتشافها الكبير.



Margo Veillon
Painting Egypt
مارجو فيبون : رسم مصر
Edited by Bruno Ronfard
AUC Press - Cairo

ترجمة: جمال إسماعيل

ولدت فى مصر عام ١٩٠٧، لأسرة من الطبقة المتوسطة لرحالة سويسرى يعمل بالتجارة، وأم نمساوية. وقررت الطفلة أن تصبح رسامة. تقول «دائمًا كنت ألهو، ومنذ الصغر، بأن أتتبع بإصبعى رسومات أتخيلها فوق أخشاب ورخام الطاولات». فيما بعد، وكان عمرها ٢٢ عامًا، سافرت إلى باريس لمدة عامين وصفتهما بأنهما كانا البداية. كان ذلك فى نهاية العشرينيات، وسرعان ما هجرت التعليم الرسمى وانتقلت، مع رسامين آخرين غير فرنسيين، إلى مرسم بالقرب من حى مونبارناس، راحت، مع الأيام، تتعلم من صديقتها المثالة الروسية سانجار رابينوفيتش، التحرر من المحاكاة الأكاديمية وترسم ببطء، وفى ضربات قصيرة من يدها، دون أن ترفع بصرها عن الأنموذج «الموديل». خرجت من التجربة ببعض رسومات قوية قريبة من المدرسة السوريالية مع تأثيرات من المدرسة التكعيبية، إذا كان ولابد من استخدام العناوين الأكاديمية.

تركت فترة التلمذة التجريبية هذه علامات عميقة وخصبة فى حياة مارجو لكنها اتخذت أكبر القرارات الحاسمة فى حياتها الفنية والخاصة بأن عادت إلى مصر لتعيش بها. كانت كثيرة الترحال (إلى ابينر ووادى النيل وبالتحديد مع الرسام الألمانى مارتن سيدل، الذى توفى مبكرًا لكنه ترك تأثيرًا كبيرًا على أعمالها). ومنذ الستينيات اعتادت السفر خلال الصيف إلى أوروبا.

بعد باريس، عادت مارجو إلى مدرستها المصرية البسيطة الغنية كى تمسك بحركة الأشياء والإيماءات، وحقيقتها، عبر رسوم معبرة وقوية التأثير. رسمت فى القرى المحيطة بضاحية المعادى أشهر ما عرفت به من أعمالها الفنية. آلاف اللوحات عن حياة مصر فى الثلاثينيات، لوحات حية تشكلت داخلها الإيماءات المتوارثة وتلونت بالحقيقة. وما كان على مارجو الماهرة فى الرسم إلا أن تنقل كل هذا إلى لوحاتها. كان عليها أيضًا أن تتعلم كيف تنظر وترى عمق كل عمل من أعمالها عن الحياة اليومية الحافلة لكى تعبر عما تراه فى الاحتفالات والعمل فى الحقول وحياة المرأة. لم تكن الحقيقة وحدها التى أرادت إظهارها لنا كى نراها، كان هناك أيضًا، وبعمق أكبر، ذلك الجمال الكامن فى العالم وما به من انضباط وعاطفة.

كان العالم المرئى بالنسبة لها لابد أن يكون ساحرًا وبدرجة قوية لكى تختاره موضوعًا لعمل من أعمالها. تحت هذا التوصيف يمكن لنا إدراج كل أعمالها التى أنجزتها خلال إقامتها المؤقتة فى محلة مالك فى وادى النيل عن موسم الحصاد، والتى تضمنت كذلك صورة فوتوغرافية لعين صقر من وراء يد، وكذلك أعمالها عن بلطيم فى نهاية الخمسينيات، وأيضًا العديد من أعمالها عن الاحتفالات فى مصر.

يبدأ متحف مارجو فيبون التخيلى بلوحتين بسيطتين علقتهما عند مدخل مرسمها، بعد وقت قصير من انتقالها إلى المنزل، وهما عبارة عن وجهين شخصيين «بورتريه»، أحدهما لـ Rembrandt والآخر لـ Brueghel[2] ومن المؤكد أنها أخذت عن هذين الفنانين الرائدين، وكذلك عن Velasquez[3] وCranach[4]، الإحساس الفطرى بالتكوين والقدرة على تذوق الأعمال الجيدة وولعها بالعملين «البورتريه الشخصى»، مع التباين المطلق الذى يسمح للفنان بأن يركز على ما هو أساسى فى الصورة والبورتريه الشخصى والطبيعة الصامتة.

من المؤكد أيضًا أن بيكاسو شكل مصدر إلهام كبيرًا لها





وإلى درجة أنها كانت كثيراً ما تحلم به فى نومها. وقد وجدت نفسها . فى المنام . مرة فى ميدان تغمره الشمس، جالسة تتحدث إليه وترسم ما بين نافورة وسوق، وقد أطلعها على محتويات صناديقه الزاخرة بأشياء متعددة الأشكال والأحجام. وقد سألته إن كان يتخلص أحياناً من بعض هذه الأشياء. وقد أجابها قائلاً: بالقطع لا، أبداً. وما قاله بيكاسو فى الحلم ينسحب على مارجو نفسها التى جمعت واحتفظت وصنفت، بعيداً عن الرسومات والوجوه، المئات من الأحجار والأشياء الأخرى المتنوعة. تظل صناديق بيكاسو الزاخرة بالأشياء تذكرها بواحدة من رسوماتها الرمزية التى أنجزتها فى باريس مثل لوحة «أشكال التاجر».

لكن ومثل أستاذها الكبير، تنقلت مارجو بين تجارب وأساليب تراوحت ما بين الرسم التخيلى المتحرر من القيود، وأحدث طرق وأساليب الرسم بالقلم الرصاص. كانت تسير فى نهج ثم تتركه إلى نهج أخر. وقد تعود إليه من جديد.

فى متحف مارجو هناك آلاف الأعمال الجديرة بالاكتشاف. تتراوح ما بين أعمال الحفر «الأكليشيهات» وخاصة المطبوعة فى العشرينيات، وفيما بعد عودتها من باريس، وأخرى تشكل مجموعة مدهشة من الأحجار والمنحوتات الأصلية، فى أشكال فريدة جمعتها من صحراء مصر التى لم تتوقف يومًا عن اكتشافها. وقد أتاح لها النزوع الكلاسيكى أن تطلق يدها حرة فى الرسم فلم تعد مجرد صدى لحقائق الأشياء وإنما تعبير عن الأصل فيها وحركتها والبناء الداخلى لها. وقد تجلى هذا فى خطها المكتمل فى لوحة «العرى» منذ فترة باريس إلى مرحلة أصالة التكوين ومئات الارتجالات المفعمة بالتوق والعاطفة والتى عرضت لأول مرة أثناء حرب الخليج.

الخط هو «توقيع» وشخصية الرسامة وملمحها المميز، حتى وهى تنهى رسمة سريعة تخطها دون اكتراث. والعمق، فى الوقت نفسه هو السؤال الذى ظل يلح، وظلت تواجهه طوال حياتها، وجاءت استجابتها فائقة المهارة والذاتية فى أعمال متتالية أطلقت عليها اسم «أبعاد كونية».

كانت . وبكلمات أخرى . تريد تقديم ليس فقط ما تستطيع أن تراه؛ ولكن المعنى وراء وجوده فى هذا المكان، تقديم المرئى والمحسوس معاً. لقد وضعت كل ما لديها من طاقة فى أعمال متتالية مؤثرة، حوالى ٢٠ لوحة زيتية كبيرة وعدد ضخم من الرسومات التحضيرية بالجواش والألوان المائية، وكأنها كانت تصنع لوحة أصلية. هذه الرؤية الكلية الشاملة التى أرادت نسجها على «كنافا»، يوجد بينها وبين المدرسة التكعيبية قواسم مشتركة، لكنها تكعيبية لا تختفى بالشكليات.

وكما تقول مارجو نفسها: «يبدو كل هذا لى اليوم وكأنه يأتى من زمن بعيد، من سنوات باريس ما بين عامى ١٩٢٩ و ١٩٣١، سنوات الاكتشاف من عمل تضمن وقتها مشاهد ذاتية فى مرسمى».

وإذا كان الهدف فى أعمالها عن الحياة اليومية الحصرية هو رؤية العالم المرسوم من خلال الإيماءات، الوجوه، الاحتفالات والأبعاد الكونية، فإن أعمالها اللاحقة تناولت، وبأساليب مختلفة، قضية وحدة العالم المشتت. وفى الأعمال الزيتية المتتالية من ١٩٨٦ إلى ،١٩٩٨ تجلى الحل الذى توصلت إليه فى «تحريف» وإعادة بناء الأفق المحيط، وأحياناً مساحات كبيرة من الألوان الصماء. إنها لا تسعى إلى تقديم مرسم تعمه الفوضى، بل تحتويه وحدة حقيقية. لا ترسم ما تراه العين ولكن ما تظهره لها يدها. وتفسر ما تفعله فتقول: «أنا لست مهمومة بالشىء ذاته، الخط ومدى صلاحيته للتصوير، لكننى أشعر بالشىء من زاوية مختلفة، فى علاقته بالكل وعلاقته باللاشىء وعلاقته بى. الشىء لم يعد مرئية بسيطة». فى هذه الرسومات تكون الفنانة حاضرة دائماً، ترسم أو تلون. تراها عادة من الخلف وأحيانًا فى ثلاثة أرباع المشهد، وتكون . غالباً . ممسكة بقلم رصاص أو فرشاة. دائماً تكون هناك نوافذ أمامها تذكر المرء بماتييس الذى استخدم النوافذ كى يضع العالم فى رسوماته. الفنانة هنا واضحة معنا، إنها تتأمل لوحاتها ونحن دائماً خلفها. وتمثل «الكانافا» مراقبتها ورسمها ويدها هى الوسيط بيننا وبين العالم. لهذا لا نفاجأ بما لليد من أهمية فى كل أعمال مارجو فييون. ■

هـــــوامــــــش:

(١) رسام فرنسى (١٩٠٨ . ٢٠٠١).
(٢) رسام بلجيكى تميز فى رسم الفضاءات المحيطة.
(٣) رسام إسبانى (١٥٩٩ . ١٦٨٠).
(٤) رسام ألمانى (١٤٧٢ . ١٥٥٣).

كتاب الزاوية

ديوان المدارس

عــــلى مبــــارك

فى شهر جمادى الآخرة من سنة أربع وثمانين (١٨٦٧م) أحيلت علىّ وكالة ديوان المدارس تحت رئاسة شريف باشا، مع بقاء نظارة القناطر الخيرية، وبعد قليل انتدبنى الخديو إسماعيل للسفر إلى باريس فى مسألة تخص المالية، فكانت مدة غيابى ذهابًا وإيابًا وإقامتى بها خمسة وأربعين يومًا، وكان سفرًا مفيدًا، اغتنمت فيه فرصة الاطلاع على ما بهذه المدينة وقتئذ من المدارس والمكاتب الجمة، واستحوذت على فهارس تعليماتهم والاطلاع على كتبهم المطبوعة هناك، وتفرجت على مجاريها العمومية المعدة لقذف القاذورات والسائلات بها. وهى عبارة عن مبان متسعة عظيمة الارتفاع تحت شوارع المدينة معقودة من أعلاها يتوصل إليها بسلالم فى فتحات مخصوصة فى الشوارع، يدخل منها النور والهواء وفى جنبيها حوالى المجرى مصطبتان تمشى عليهما الشغالة والفعلة، وينصب فى المجرى قاذورات المراحيض والمطابخ وغيرها، ومياه الأمطار ونحوها بكيفية مدبرة بحيث لا يشم لها رائحة من كثرة ما يسيل فيها.

وكنت قد حصلت على الإذن بنقل المدارس من العباسية إلى القاهرة رفقًا بالتلامذة وأهليهم، لما كان يلحقهم فى الذهاب إلى العباسية من المشاق والنفقة الزائدة، فأُحسن إلى المدارس بسراى درب الجماميز، التى كانت قد اشتريت من المرحوم مصطفى باشا فاضل، فنقلت إليها التلامذة وأجريت فيها إصلاحًا لازمًا للمصالح، وجعل السلاملك للديوان، ووضعت كل مدرسة فى جهة من السراى، وجعل بها أيضًا ديوان الأوقاف، وديوان الأشغال، فسهل علىّ القيام بها.





تحـــــليل فلســـــفى لأخـــطـــــر مشكلة

■■ ظهرت هذه المقالة فى مجلة «Atlantic Monthly» الأمريكية، فى فبراير من عام ١٩٤٧ أى قبيل صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين وقبل عام من قيام الدولة العبرية على أرض فلسطين المغتصبة! ولعل هذه المقالة هى السبب فى تجاهل قدر هذا الفيلسوف الكبير فى تاريخ الفكر المعاصر والسبب وفى الحملة الصهيونية الضارية عليه.

و«والتر ترنس ستيس» (١٨٨٦ ـ ١٩٦٧) فيلسوف بريطانى الأصل يُعدُّ منذ مطالع القرن العشرين من أشهر الفلاسفة الأنجلوأمريكيين. دَرَّس الفلسفة بجامعة «برنستون» وتولَّى رئاسة الجمعية الفلسفية الأمريكية من عام ١٩٤٩ وحتى وفاته. يُعْرَف بدراسته الهامة عن «فلسفة هيجل» وببحوثه الفلسفية المبتكرة فى المنطق والأخلاق وفلسفة الدين وبتحليلاته العميقة لأبرز مشكلات عصرنا، ويتميَّز بنقده للنزعات التجريبية الساذجة وللوضعية المنطقية وللنزعات الشمولية التى سادت الكثير من مجالات الفكر فى النصف الأول من القرن العشرين.

تكشف فلسفته، على وجه العموم، عن أنه كان نصيراً للفيلسوف الألمانى الأشهر «إمانويل كانط» (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) فى نزعته النقدية التى تُوحِّد بين المثالية والواقعية والتى ترى فى مجرد النظر العقلى المبرَّأ من المصلحة والهوى المحكَّ الأخير للحق، وفى تأسيسه لـ «السياسة الأخلاقية»، وفى دفاعه عن الدساتير الديمقراطية. وفى إيمانه بأن «العقل يُنكر أن تكون الحرب سبيلا من سبل الحق ويجعل من السِلم واجباً مباشراً لكل دولة». وفى تأكيده أن الطبيعة الناطقة توجد بما هى غاية فى ذاتها وأن من الافتئات على الكرامة الإنسانية أن يُستعمل إنسانٌ أو أمةٌ وسيلةً أو آلةً لمصلحة إنسان آخر أو أمة أخرى، وفى يقينه بأن «الواقعة» ـ مهما بلغت من الرسوخ ـ لا يمكن أن تؤسس «حقا»، وذلك على نحو ما عَبَّر عنه الفيلسوف الألمانى فى كتابيه «نقد العقل العملى» و«مشروع للسلام الدائم».

وقد ظهر كتاب كانط «مشروع للسلام الدائم» فى عام ١٧٩٥. ومنذ ما يقرب من أربعين عاما أصدر له أستاذنا المرحوم عثمان أمين ترجمة عربية وقدَّم له بدراسة دقيقة وافية. وجاء فى نص المادة الثالثة من هذا المشروع قول «كانط»: «إنه لا يجوز لأى دولة أن تتدخَّل بالقوة فى نظام دولة أخرى أو فى طريقة الحكم فيها».

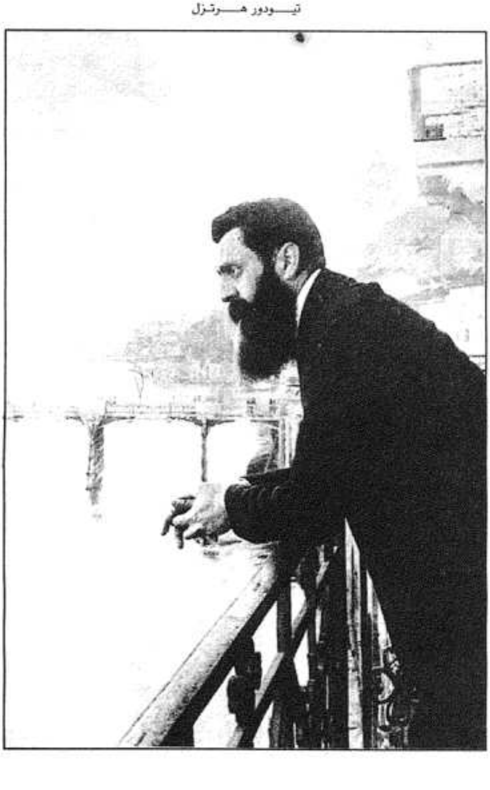
وجدير بالتنويه أن لأستاذنا المرحوم زكريا إبراهيم ترجمة عربية لكتاب «ستيس» الهام فى فلسفة الدين صدرت بعنوان: «الزمان والأزل» مقال فى فلسفة الدين عام ١٩٦٧، وأن صديقنا الدكتور إمام عبدالفتاح إمام قد وَجَّه عنايته منذ أكثر من عشرين عاما إلى أعمال «ستيس» فترجم منها إلى العربية على التوالى: «فلسفة هيجل» و«الدين والعقل الحديث» و«التصوف والفلسفة» و«معنى الجمال ـ نظرية فى الاستطيقا».

كما أصدر صديقنا الدكتور محمد محمد مدين مؤخراً أول دراسة بالعربية عن نظرية المعرفة عنده بعنوان: «نظرية المعنى عند والترستيس». ومن المأمول أن يكون فى هذه الجهود الطيبة ما يدفع إلى مزيد من تعاطف المشتغلين بالفلسفة من العرب للاهتمام بإبراز البعد الإنسانى عند هذا الفيلسوف.

وفيما يلى ترجمة نصيَّة لمقالة «ستيس»: «الوهم الصهيونى» ـ التى نراها شديدة الأهمية، بالغة العمق، فائقة الجرأة ـ والتى ظهرت منذ سبعة وخمسين عاماً وكأنها كُتِبت اليوم فى وقت تجسَّد فيه ما رآه الكاتب ـ من قبلُ ـ وهما فصار واقعاً كئيباً جاثماً على حاضر الإنسان العربى مهدداً لمستقبله. وهذه المقالة ـ التى توضِّح تهافت ادعاءات الصهاينة وتستهدف ـ فى الأساس ـ أن تستثير فى الوعى الإنسانى حكم العقل والضمير بأن «الواقعة» لاتؤسس «حقا» نقدمها اليوم، بعد أن ران عليها صمت طويل مريب ـ للقرَّاء العرب على وجه العموم ـ ولمحترفى السياسة ولمحترفى الفلسفة كذلك وللمتباكين على حقوق الإنسان وللناظرين فى أمر التطبيع على وجه الخصوص؛ دونما تعليق!

مصطفى لبيب عبد الغنى

تيـــودور هـــرتـزل



سياسية.. الوهم الصهيونى!

والتر ترنس ستيس

■ ■ فلسطين بلد صغير. لكن ما يجرى فى فلسطين هو عَرَض دال على حالة العالم فى مجموعه. وما أريد توجيه الانتباه إليه هو أساليب الاستيطان الحاصلة فى فلسطين على نحو يفوق أى استيطان بعينه يمكن حدوثه. وسوف أحاول بيان كيف أن هذه الأساليب مأساوية، ولو صممنا على ممارستها فى مكان آخر من العالم. وهناك كل ما يشير إلى أننا سنفعل ذلك. فسوف لا يترتب على ذلك غير العنف وغير الحرب.

إن الحرب العالمية الثانية بقدر ما كان لها غاية أخلاقية اهتمت بمسألة ما إذا كان يجب أن تُحكم العلاقاتُ الدولية بالقوة أو أن يحكمها القانون. ويعنى القانون تطبيق مبادئ العدالة على المنازعات. وعلى هذا فإن القضية بالفعل هى قضية سيادة القوة أو سيادة العدالة. لقد انتهينا من الحرب، ونحن نفترض أن العدالة قد هزمت القوة. لكن هل نحن الآن حقا فى زمن السلم، نسلك مسالك العدالة أم أننا نسلك مسالك القوة؟ على الإجابة يتوقف مستقبل العالم، وقضية الحرب أو السلام. ومن الأفضل أن نأخذ حالة راهنة بعينها ونحللها بالتفصيل، لنكتشف توجهنا، وذلك بدلا من أن نُلقى بأحكام عامة. وفلسطين هى أساس لاختبار ذلك من الطراز الأول. إنه غالباً ما تتشكل آراء الناس فى المسائل السياسية والدولية على أساس من عواطفهم ومشاعرهم الوطنية، على الدوام، ونادرا ما تتأسس على العقل بحال ما. وفى هذا تكمن العلة الأولى للحروب وإراقة الدماء التى تسود العالم. فالعاطفة والشعور الوطنى، من غير أن يحكمهما العقل يؤديان بالضرورة إلى العنف. والعقل هو مبدأ الديمقراطية والعدالة. فهو يزن الأمور بميزان الحياد. والقاضى الكفء إنما يصل إلى قراره من خلال بحثه لمختلف جوانب قضيته لا بأن يمر عليها سريعا. فالعقل دون العاطفة، ودون الاهتمام الشخصى، هو الذى يجب أن يكون رائده. ولن تنتهى الحروب حتى يتعلم الناس. فى العلاقات الدولية ـ كيف يتحكمون فى آرائهم وأفعالهم بعدالة نزيهة محايدة، وكيف يقيمون آراءهم وأفعالهم على أساس من العقل.

إن فلسطين حالةٌ فى صميم الموضوع. فليس اليهود والعرب وحدهم هم من تؤججهم العواطف، التى يسمونها وطنيةً، لكن الأمم الأكبر المعنيَّة، والتى ينبغى لها أن تكون على الأقل محايدة، لا تبذل أى محاولة لكى تقضى بحياد فى النزاع بين اليهود والعرب. بدلا من ذلك نجد كل دولة منها معنيةً بمصالحها الخاصة فجعلت من المسألة إما نضالا من أجل القوة الوطنية، أو جعلت منها، وهو الأسوأ، فرصة لاقتناص أصوات حزب من الأحزاب المحليّة.

إن أى محاولة لتطبيق قواعد العدالة على المسألة الفلسطينية هى محاولة حافلة بمصاعب خطيرة، فهى، فى المقام الأول، تواجه بحائط صلب من التحيّزات، فضلا عن أن محاولة من هذا القبيل تُنتقد انتقادا عنيفا. وبما أن العدالة مفهوم أخلاقى فإنه لا يمكن النظر إليها دون إثارة مسألة «الصواب» و«الخطأ»، حينئذ سوف ترتفع صيحةٌ تقول إن المرء يتحدث بطريقة أكاديمية وإنه يحاول أن يُقرر مسائل عملية عن طريق قواعد أخلاقية «مجردة»، ليس لها تطبيق ما وليست بـ «واقعية». لكن، كيف يمكن أن يتقدم العالم أصلا ـ بطريقة أخرى ـ نحو أى نوع من العدالة الدولية، وهو الهدف الصريح للأمم المتحدة المتضمن فى ميثاقها بناء على اقتراح الأمريكان، دون أن يُطبق على مواقف عينية أو مبادئ هى فى ذاتها مجردة؟ إن المبادئ التى تطبقها المحاكم القانونية على أفعال الناس، على نحو ما هو مقرر فى الكتب القانونية وفى المراكز القانونية، هى مبادئ مجردة؛ وفضلا عن ذلك، هى فى التحليل الأخير، نتاج أفكار «أخلاقية».

إن المشهد فى فلسطين يتبدل بسرعة فائقة، حتى إنه قد يبدو مستحيلا أن نقول عنه شيئا سوف لا يكون قد فات أوانه بعد شهر واحد. لكن مبادئ القانون والعدالة لا تتغير، أو هى، على الأقل، تتغير ببطء شديد. وأيضا، فإن المبدأ الأساسى للعدالة الدولية هو ما وُضع فى ميثاق الأطلنطى: يجب أن يكون للأمم الحقُ فى تقرير مصيرها دون عدوان عليها من الخارج من أى أمة. ليس هذا بشىء جديد اخترعه روزفلت، أو «تشرشل» فلقد كان متضمنا، من قبل، فى سياسة «ولسون»، وتصريحاته. وكان مساويا للفكرة التى يُفترض أن «عصبة الأمم» قد قامت على أساسها، والتى كانت على الدوام هى الفكرة الجوهرية للديمقراطية. فحق تقرير المصير أو الديمقراطية لأمة من الأمم يعنى أن تكون شئونها محكومة برغبات أفرادها. وحيث إن رغبات شعب ما لاتكون أبدا محل إجماع، فإن ذلك يعنى أنه يكون محكوما برغبات الأغلبية.



إن إرغام أمة من الأمم لأمة أخرى بالقوة أو بالتهديد لكى تتصرف على النقيض من إرادتها الذاتية، أو على النقيض من رغبات الأكثرية فيها هو عدوان. وهو مناقض لمبادئ العدالة، وللديمقراطية، ولتقرير المصير، فى تطبيقها الخارجى والداخلى. وفرض الأقلية داخل أمة من الأمم لإرادتها على الأغلبية بالقوة هو بالمثل عدوان كذلك، لكنه، عادة ما يُسمى «طغيانا». إنه سلب لمبادئ العدالة، والديمقراطية، وتقرير المصير فى التطبيق الداخلى أو المحلى. هذا هو المبدأ «المجرد»، أو «الأخلاقى» الوحيد اللازم للحكم على المشكلة الفلسطينية. وهذا مالايبدله تغيّرات فى المشهد المحلى، أو ما يطرأ على الحوادث من أوضاع متباينة. وهو لن يكون باليا متقادما بعد عام أو بعد خمسين عاما! فكيف ينطبق هذا المبدأ على المشكلة القائمة بين اليهود والعرب؟

هذا هو جوهر قضية العرب. إن العرب يُشكّلون أغلبية السكان فى فلسطين. وليس هذا صحيحا الآن فحسب بل كان صحيحا من بداية الفترة المسيحية تقريبا، أى من قرابة ألفى عام. والعرب، فى فلسطين، ووجهوا، بالحق أو بالباطل، بهجرة اليهود الجماعية إليهم. وفُرضت على غالبية سكان فلسطين هجرة جماعية كهذه. لكن طبقا لمبدأ تقرير المصير، وهو المبدأ المقبول للعدالة الدولية، يجب أن تتقرر شئون بلد ما برغبات أغلبية سكانه، وأى محاولة من بلد خارجى لتجاهل رغبات هذه الأغلبية بالقوة إنما هى «عدوان». وعلى ذلك فإن أعمال الصهاينة وبريطانيا العظمى وأمريكا، فى سعيهم جميعا إلى فرض هجرة جماعية لليهود إلى فلسطين على النقيض من رغبات الأغلبية العربية، إنما تشكل أعمالا عدوانية مناقضة لمبادئ العدالة الدولية، ولتقرير المصير، وللديمقراطية.

وإنه لن يجدى فى دفع هذا أن يقال إن الأكثرية فى فلسطين «يخطئون» باعتراضهم على الهجرة اليهودية، أو أن يُقال، إنه نظرا إلى معاناة الشعب اليهودى، «ينبغى» على العرب الترحيب بهم. ذلك لأنه طبقا لمبدأ العدالة المشار إليه كذلك تكون غالبية الشعب الفلسطينى هى وحدها المنوطة بتقرير ما ينبغى فعله. هذا هو جوهر المبدأ. ومحاولتنا لإجبار الفلسطينيين على ماينبغى عليهم فعله، أو فرض رأينا، فى هذه المسألة، بالقوة أو بالتهديد، إنما يُشكّل عدوانا.

نستطيع رؤية هذا المبدأ على نحو أكثر وضوحا لو طبقناه فى حالة تكون أقرب إلى وطننا. إن غالبية سكان الولايات المتحدة الأمريكية تعترض على الهجرة الجماعية للشعوب غير البيضاء إلى أمريكا وتستبعد تلك الشعوب بموجب القانون. فلنفترض أن أمة ما من الأمم الخارجية كانت من القوة بما يكفى لتحاول أن تفرض على الولايات المتحدة السماح للمهاجرين من غير الشعوب البيضاء بالقدوم إليها بمئات الألوف ضد إرادتنا، فإننا سوف نعتبر هذا بالتأكيد عملا من أعمال العدوان؛ على الرغم من أنه يصدق القول بأن اعتراضنا على هجرة الشعوب غير البيضاء هو «خطأ». وإذن فمن الواجب أن نسمح لغالبية السكان فى فلسطين بممارسة نفس الحق فى تقرير هذه المسائل ـ المتعلقة بالصواب أو الخطأ ـ بأنفسهم تماما كما نطالب بذلك لأغلبية سكان الولايات المتحدة.

قد يُحتج على ذلك بأنه على الرغم من أن النظرية الديمقراطية فى حكم الأغلبية تنطبق تماما على بلد بين سكانه تماثل إلى حد

عن مجلة:
The Atlantic (1932 - 1971)
Feb. 1947, vol. 179.

ترجمة: مصطفى لبيب عبد الغنى

معقول، مثل إنجلترا أو الولايات المتحدة، فإنها لا يمكن أن تنطبق بالمثل على بلد تواجه فيه أقلية دينية أو عرقية، على الدوام، بعداء أغلبية دينية أو عرقية ، كما هو الحال فى فلسطين أو فى الهند. مثل هذا الموقف يخلق حقا مصاعب خطيرة لحكومة ديمقراطية، ويمكن أن يتخذ دليلا على التقسيم أو على ما سمى فى الهند «بالتمثيل الطائفى». وهذا يبين أنه عندما تطبق مبادئ ديمقراطية على بلد كهذا فمن الواجب ابتداع بعض الترتيبات الخاصة لحماية الأقلية من العسف. لكن كيف يمكن لهذه الاعتبارات، على الرغم من أنها قد تثبت الحاجة إلى بدع دستورية خاصة، أن تؤثر فى المسألة المطروحة الآن امامنا. وبالطبع لا يمكن الاحتجاج بأنه طالما أن حكم الأغلبية صعب فى غياب التجانس السكانى، فيجب أن يكون مسموحا إذن بسيادة حكم الأقلية، فى بعض الحالات الخاصة على الأقل مثل قوانين الهجرة. هذا هو ما يمكن أن تبلغه الحجة التى ننظر فيها الآن. وعلى ذلك فإن هذا الاعتراض على العرب يجب استبعاده.

هكذا تبدو قضية العرب مستندة تماما على مبادئ العدالة الدولية، وأن هذه المبادئ تنطبق مباشرة على المسألة الفلسطينية. ويظهر منطق الحجة بالنسبة لها حاسما لأول وهلة لا يرد. ولنرى الآن، على أية حال، ما هى القضية التى يمكن للصهاينة طرحها فى مقابل ذلك.

تقوم القضية الصهيونية على حجج خمس. وهذه الحجج لا تبوب عادة وإنما تبقى منفصلة. وشأنها شأن معظم الحجج على معظم الموضوعات تقدم للملأ فى الغالب ممتزجة معا فى كومة مختلطة. ولما كان علينا أن نقوم بتحليلها وتقسيمها بدقة على نحو صائب فمن الواجب أن تبقى منفصلة فننظر فيها حجة حجة. وأى إجراء آخر لا يمكن أن يؤدى إلا إلى تشويش فكرى.

الحجة الأولى هى أن فلسطين كانت فى الأزمنة القديمة منذ عصور طويلة وطناً قومياً لليهود. ربما يكون من المعقول أن نقول إنها أرض «تنتمى» إلى اليهود، وإنهم فضلا عن ذلك لم يغادروها بمحض إرادتهم، وإنهم انتزعوا منها قسرا. وهذا ما يعطيهم الحق فى العودة إليها الآن وفى جعلها وطنا قوميا لهم.

ترى أى قوة، إن كانت ثمة قوة أصلا، فى هذه القضية الخلافية؟ إنه لا يمكن الإجابة على السؤال إلا بعد أن نكون قد قررنا أولا ما هى أصول الحق هذه التى يمكن بموجبها أن تدعى أمة من الأمم حقها فى القطر الذى تشغله . والإجابة واضحة. ليس لأمة أى حق فى الأرض التى تستحوذ الآن عليها إلا أمد الاستحواذ الطويل. فما حق الأمريكان فى أن يعيشوا، ويشغلوا، ويسيطروا على هذه الولايات المتحدة؟ ليس لهم حق بالمرة إلا كونهم قد عاشوا بالفعل هنا لمائتين أو لثلاثمائة من الأعوام. صحيح أنه وجدت حالات لما يسمى بـ عقد صفقة مع الهنود. لكن أحداً لن يدعى أن الحق العام للشعب الأمريكى فى احتلال هذا البلد مؤسس على صفقات كهذه. وعلى وجه العموم فإننا قد أمسكنا بالأرض تماما بأى وسيلة بدت، فى وقتها، هى الأكثر ملاءمة. وفى معظم الحالات كان الهنود يطردون قسرا. والدعوى الأمريكية مؤسسة إذن على ما يقول عنه رجال القانون دعوى «حق التقادم».

ويصدق نفس الشىء على أى شعب آخر فى العالم. ففى معظم الحالات لم يكن هناك حتى ادعاء عقد الصفقة هذا الذى نجده فى أمريكا. إن البريطانيين، والفرنسيين، والألمان، واليابانيين، والزولو، ليس لهم أن يدعوا بأى حق فى البلاد التى يعيشون فيها سوى حق امتلاكها منذ أمد طويل.

لو حكمنا بهذا المبدأ، الذى هو المبدأ الوحيد الممكن التطبيق، تكون دعوى العرب أحقيتهم فى أرض فلسطين أفضل بكثير من دعوى الأمريكيين بأحقيتهم فى أمريكا. فالعرب قد شغلوا هذا البلد بالفعل منذ ما يقرب من ألفى عام. ربما كانت توجد دائما أقلية يهودية صغيرة فى فلسطين، تماما كما توجد دائما أقلية هندية صغيرة فى أمريكا، منذ احتلال البيض لها، وهى لاتزال موجودة حتى الآن. وهذا سوف يعطى ليهود فلسطين الحق فى التصويت وفى معاملة لائقة، كما يعطى تماما نفس الحق بالمثل للهنود فى أمريكا. لكن، هذا هو كل ما فى الأمر.

توضح هذه الاعتبارات أن كون فلسطين كانت أرضا يهودية من أزمنة قديمة لا يمكن أن يعطى اليهود الآن بسهولة حق الدخول الجماعى إلى هناك. وليس مهما كيف حدث أن امتلك شعب أصلاً بلدا من البلاد، سواء بالعدوان ، أو بالحرب، أو بأى طريقة أخرى. فلنا فى نهاية الأمر - أى بعد فترة إقامة طويلة بما فيه الكفاية - أن نقرر حقه المطلق فيها، وهو ما يعنى بالطبع، أن كل المزاعم السابقة قد اتضحت للعلن. لأن ذلك هو الأساس الوحيد الذى يمكن بمقتضاه أن يزعم شعب كائنا من كان ادعاء حقه فى البلد الذى يسكنه. فما هى «الفترة الطويلة الكافية»؟ إن ألفى عام هى بالتأكيد فترة كافية .وعلى هذا فالحجة الصهيونية الأولى لاتمتلك أى قوة على الإطلاق.

الحجة الثانية هى أن لفلسطين دلالة دينية مقدسة لليهود على وجه الخصوص. فهل يمكن لنا أن نقرر أن المشاعر الدينية تعطى أى نوع من الزعم بحق الهجرة الجماعية إلى بلد من البلاد؟ هل يمكننا أن نسمح بادعاء كهذا فى أى قضية أخرى بخلاف القضية الفلسطينية؟ إن الإجابة ، فيما هو واضح، بالنفى. فالتايلانديون لا يمكن تأكيد أى حق لهم فى الهجرة إلى الهند لكونهم بوذيين، مع أن للهند، حيث ولد بوذا وعاش، دلالة دينية خاصة بالنسبة لهم. ولا يستطيع البريطانيون ولا الأمريكان الذين هم مسيحيون ، الزعم بأن لهم حق الإقامة الجماعية فى فلسطين على أساس أن لها عندهم، كما هو الشأن مع اليهود تماما، دلالة دينية عميقة. «لكن التايلانديين، والإنجليز، والأمريكان لديهم أصلا أوطانهم، على حين أن اليهود لا وطن لهم ومن ثم فإن القضايا هنا ليست متوازية». غير أن هذه أمثلة على الفكر المختلط الناتج عن مزج القضايا المتمايزة فيما بينها معا. ومسألة كون اليهود بلا وطن لا يغير من القضية بحال ما، فهذه مسألة منفصلة سوف أعالجها فى موضعها.

الحجة الصهيونية الثالثة هى أن الحكومة البريطانية وعدت اليهود فى عام ١٩١٧ أنه سيكون لهم وطن قومى فى فلسطين. وهنا تقوم دعوى أخلاقية على أساس من المبدأ العام لقدسية الوعود. على هذا الأساس وصفت المفوضية البريطانية دعوى العرب بحق تقرير المصير ودعوى اليهود بموجب وعد بلفور بأنها صراع حق مع حق، فى الأساس. وهذا نموذج مثير للغاية على تشويش الذهن. فهذا الوصف يقرر، فى المقام الأول، وجوب تطبيق معايير أخلاقية «للصواب» و«الخطأ» على المشكلة محل النزاع. وهذا صحيح. ويقرر، ثانيا، أن دعوى العرب تستند إلى حق تقرير المصير، وعلى هذا فهى دعوى «صائبة». وهذا أيضا صحيح. وهو يتضمن، ثالثا، أن الدعوى الصهيونية المستندة إلى الوعد البريطانى، تعطى اليهود حقا أخلاقيا (إزاء البريطانيين). لكن كل مايبرهن هذا الزعم الأخير عليه هو أن المفوضين الملكيين (الممثلين للانتداب البريطانى) كانوا غير أكفاء، بما هم محللون أخلاقيون، إلى أبعد حد. فالوضع المطروح هنا يقبل قبولا واسعا بترخص شديد؛ لأنه لا الصهيونى العادى، ولا الرجل العادى، كائنا من كان، ولا المفوض الملكى العادى، فيما يبدو لى الآن، بقادر على أن يخطو

توضح هذه الاعتبارات أن كون فلسطين كانت أرضا يهودية من أزمنة قديمة لا يمكن أن يعطى اليهود الآن بسهولة حق الدخول الجماعى إلى هناك

أكثر من الخطوة الأولى فى تحليل كهذا. فهــم يظنـون أن «الوعود يجب الوفاء بها، وأنَّ منْ يتلقى وعودا له حق أخلاقى فى المطالبة بتنفيذه. وعلى ذلك، فلليهـــود فى هذه الحالة مثل هذا الحق».

وهذا نموذج فجٌّ للتحليل الأخلاقى. ذلك أن الوعود الخاطئة أو غير العادلة، لا يجب تنفيذها، ولا يجب أن تعطى حقوقا واجبة القضاء بل هى وعود يجب استبعادها. فمثلا، لايمكنك أن تدّعى حقا أخلاقيا فى أن تنفّذ وعدا بالسرقة .ولو أنك فعلت ذلك فانت تُعين على السرقة. وإذن، فالسؤال الواجب الآن طرحه هو ما إذا كان للبريطانيين أى حق فى الوعد بالتصرف فى فلسطين على نقيض رغبات أغلبية سكان ذلك البلد. من الواضح تماما، طبقا لمبادئ الديمقراطية وتقرير المصير، وهى المبادئ المقبولة للعدالة الدولية؛ أنه لم يكن للإنجليز هذا الحق أصلا، وأن ما فعلوه بوعدهم ذاك إنما هو عمل من أعمال العدوان. ومن ثمّ فإن وعد «بلفور» لايعطى الصهاينة أى حق أخلاقى، وإنْ هم أصروا على تنفيذه يكونون عونا على العدوان.

نأتى الآن إلى مسألة ما إذا كان عدم وجود وطن لليهود، ونضيف إليه بالضرورة المعاناة الرهيبة التى تحملوها ولا يزالون، والاضطهادات والمذابح، وكل صنوف الرعب الأخرى؛ يمكن أن يتّخذ أساسا لحق الهجرة الجماعية إلى فلسطين. نثبت هذا على أنه السبب الرابع الذى يحتجّ به الصهاينة.

إنه لايمكن لموجود بشرى أن يرى هذه الوقائع دون أن يشعر بمشاعر عميقة من الشفقة والخجل. الشفقة على الضحايا، والخجل من فظاعة وشرور الجنس البشرى .لكن علينا أن نتساءل: ما هى الحقوق الأخلاقية التى يمكن تأسيسها على ذلك. غالبا ما سوف تنبعث بالتأكيد مطالبة لكل دول العالم بضرورة معاملة اليهود معاملة كريمة. غير أن مرجع ذلك تماما هو أن تلك الوقائع تستدعى حقا متكافئا قبل كل البلدان المتمدينة (اللهم إلا أن يكون هذا الحق أقوى قبل تلك البلدان التى كانت مسئولة أكثر من غيرها عن هذه المعاناة)، ولايمكن أن تستدعى أى حق خاص قبَل فلسطين.

فهذا الحق تُطالَبُ به إنجلترا وأمريكا وروسيا وفرنسا وفلسطين أيضا (لو أن فلسطين بلد عطوف ومتمدين). لكن لا تُطالَبُ به فلسطين وحدها-أكثر مما يُطالَب به أى بلد آخر.

وفى القانون المدنى يكون علينا الإقرار بهذا المبدأ. فلو أن مواطنا فى بلد من البلاد لا مأوى له، مقهورا وجائعاً، فإنه يكون من حقه أن يُنقذ من وطأة هذه الظروف. لكن هذا الحق يكون له قبل الجماعة بأسرها. لا قبل أى فرد بعينه من أفرادها (مالم يكن هذا الفرد هو الذى كان قد تسبب بظلم فى شقائه). والظرف الذى يعانيه هذا الفرد لايعطيه حقا فى أن يتخذ من منزل السيد «سميث» أو السيد «جونز» مسكنا له، ولا أن يطالبهما بإطعامه. حقا، إن على السيد «سميث» والسيد «جونز» واجبات ومسئوليات فى هذا الشأن؛ لكن باعتبارهما فقط عضوين من أعضاء مجتمع، ويكونان فى ذلك متساويين مع كل المواطنين الآخرين تماما. هكذا، أيضا، يكون على الإنسانية ككل واجب جلىٌ فى أن تجد حلا للمشكلة اليهودية وفى أن تضع حداً للاضطهادات وللشقاء الواقع على اليهود. لكن ليس الحل هو فلسطين. أما ما هو الحل الصحيح، فذلك ما سوف أناقشه فيما بعد. ماهى تلك الاعتبارات التى قدّمت للتو التى تبيّن أن حجة الصهاينة الرابعة هذه ليس فيها من القوة أكثر مما فى سواها من الحجج. إنه مايسميه رجال القانون بـ «التماس الرحمة».

الحجة الأخيرة التى تقدّم لحساب الصهيونية هى كون المهاجرين اليهود فى فلسطين جعلوا البلد (:فلسطين) تتقدّم تقدما هائلا بالفعل، وأن من شأن مزيد من الهجرة أن تؤدى بالتالى إلى فائدته. هذه واقعة يجب الاعتراف بها، ولايلزم فى الحقيقة أن ندخل هنا فى تفصيلات تتعلقٌ بالتحسينات الاقتصادية والثقافية التى أحدثها اليهود فى فلسطين. فهم قوم معروفون جيداً. لكن السؤال الواجب طرحه هو ما إذا كان هذا يؤسس حجة واضحة للصهيونية؟ نقيصة هذه الحجة أنها غالبا ما يمكن استخدامها لتبرير أى عدوان، مهما كان، أى عدوان من أمة متقدمة وعلى درجة عالية من المدنية ضد أمة أكثر تخلفا. فلقد احتج «هتلر» بأنه سوف يجعل من فرنسا وانجلترا وحتى من أمريكا بلاداً أكثر فاعلية مما يحققه لها الحكام الحاليون لتلك البلاد. وربما لاتكون هذه الدعوى مفتقدة للصواب بالكلية. والحاصل أنه قد احتج فعلا - وهذا هو ما فعله - بأن غزواته سوف تؤدى إلى فائدة العالم فى النهاية. ولو أننا نعتبر مثل هذه الدعاوى دعاوى عنصرية، فعلينا أن نعتبر غيرها من الدعاوى المماثلة دعاوى عنصرية كذلك. فالبريطانيون برروا دائما وجودهم فى الهند بالفوائد التى حققوها لهذا البلد .ودعواهم هذه بأنهم قد رفعوا من شأن الهند، هى، برغم دعاية «حزب المؤتمر» المضادة، صحيحة من بعض الجوانب حتى وإن لم تكن صحيحه من جوانب أخرى. لقد برر «موسلينى» غزوه للحبشة بادعاء أنه سيقضى على العبودية وسيُدخل على وجه العموم أنماطا من الحياة أكثر تمدنا .وقد يكون هنالك شيء من الريب فى أنه كان سيفعل ذلك حقا، لو كان قد تيسر له ما يكفى من الوقت.

هذه كلها، دون ريب، حالات مثيرة للجدل إلى أبعد حد. لكن المبدأ واضح. فالناس الأكثر تقدما، بغزوهم لأناس متخلفين سوف يعملون دائما وفى القريب العاجل على تحسين أحوال البلاد المحتلة. وعلى ذلك، لو أن فى هذه الحجة مبررا للصهيونية، فسوف يكون فيها تبرير لأى عدوان تقوم به أمة أكثر تقدما ضد أمة أكثر تخلفا. وهذا ما لايسعنا إقراره دون أن نقوّض وأن نهدّم فى النهاية تصوّرنا للعدالة الدولية التى نعترف أننا متشبثون بها. وفضلا عن ذلك، فإننا لو قبلنا هذا التصور، فلن نستطيع إنكار أن للناس (أى للغالبية فى أى شعب) الحق فى أن يدبّروا أمورهم الخاصة تدبيراً سيئاً وأن يقاوموا كل محاولات يبذلها غرباء لتدبير أمورهم قسراً (بالنيابة عنهم) تدبيراً حسناً.

هناك خطر بالفعل أن نصبح هنا أكاديميين. فلربما كان من الخطأ «لقيصر» أن يُخضع كل الغاليين (سكان بلاد الغال). لكن هل نستطيع حقا أن نأسف علي أن السلام الروماني قد مدّن أوربا؟ ربما نكون «أخطأنا» بسلب الهنود بلدهم. لكن أكان سيغدو «صوابا» أن نستبعد إلي الأبد، من أجل عدد متفرق من أنصاف المتمدينين، أولئك الذين كانوا أكثر كفاءة منهم لكى تُستغل ما فى هذه القارة الشاسعة من فرص؟

وبرغم ذلك، فإن المبدأ القائل بأن لأناس الحق فى أن يدخلوا بالقوة إلى بلد آخر إذا كان بوسعهم إظهار أنهم يعملون على رفعة شأنها - وهو الأساس الحقيقى للادعاء الصهيونى، مع أنهم لم يضعوا المسألة على هذا النحو - إنما يبدو لى مبدأ فى غاية الخطورة فى الحالة الراهنة للعالم إلى حد أنه لايجب مطلقا السماح بإقراره. وعلاوة على ذلك، من الأفضل أن ندين الحماس الزائد ضد العدوان، وأن نرفض تأييد حتى مايمكن النظر إليه على أنه نوع من العدوان المبرر - ويالها من قولة خطيرة! - من أن نتبنى فى فلسفتنا فى العلاقات الدولية مبدأ يمكن بغاية

المبدأ القائل بأن لأناس الحق فى أن يدخلوا بالقوة إلى بلد آخر إذا كان بوسعهم إظهار أنهم يعملون على رفعة شأنها - وهو الأساس الحقيقى للادعاء الصهيونى، مع أنهم لم يضعوا المســألة على هذا النحـــو - إنما يبدو لى مبدأ فى غاية الخطورة

كتاب الزاوية

دار الكتب

على مبارك

لما لم يكن بمصر دار كتب جامعة عامة يرجع إليها المعلمون للاستعانة على التعليم كما فى مدارس البلاد الأجنبية، أنشئ محل بجوار المدارس من داخل سراى درب الجماميز المذكورة لهذا الغرض، وصرف عليه من مربوط المدارس، فجاء محلاً متسعًا يزيد عن لوازم المدارس من الكتب وأدوات التعليم، وقد كان الخديو إسماعيل يرغب فى إنشاء كتبخانة عمومية تجمع الكتب المتفرقة فى الجهات الأميرية، وجهات الأوقاف فى المساجد ونحوها، وأمرنى بالنظر فى ذلك، فوصفت له المحل الذى أنشئ، فعين لمعاينته جماعة من الأمراء والعلماء، فاستحسنوه ووجدوه فوق المرام، فصدر الأمر بأن تجمع فيه الكتب المتفرقة، فجمعت من كل جهة، وجعل لها ناظر وخدمة، وخصص لها مغير (رجل متعمق النظر) من علماء الأزهر لمباشرة الكتب العربية، وآخر لمباشرة الكتب التركية، ونظمت لها لائحة، ثم نشرت تؤذن بإباحة الانتفاع بها للطالبين، وسهولة التناول للراغبين مع الصيانة لها، وعدم التفريط فيها، فجاءت بحمد الله من أنفع الإنشاءات، وأثنى عليها الخاص والعام من الأهلين والأغراب.

وجعل بها محل للاطلاع على الكتب والمطالعة والمراجعة فيها، والنسخ والنقل منها، ورتب فيه ما يلزم للكتابة من الأدوات بحيث يتيسر بهذا الموضع لكل من شاء غرضه من ذلك متى شاء، وأمكن الاطلاع على خطوط الملوك والمؤلفين والعلماء والمتقدمين ومشاهير الخطاطين كابن مقلة وغيره، مما كان يسمع به الإنسان ولا يراه، أو لا يسمع به.

الدرس الحقيقى المستفاد من المسألة الفلسطينية. إنها ليست مسألة معزولة تُترك وشأنها. إنها تمس مستقبل العالم كله

اليسر تطويعه لتبرير أى عدوان أو أية حرب كائنة ماكانت.

تحليل القضية الصهيونية ومايقابلها، فيما أوردناه، يبدو لى غير قابل على الإطلاق لأن يُناقش مناقشة يحكمها المنطق. ربما تكون قد حدثت أخطاء صغيرة فى عرض المسألة. فمن الممكن على الدوام أن نُمسك بالأقوال أو العبارات ونجد فيها خطأ ما. لكن منطق القضية ككل واضح تماما بالنسبة لأى خطأ نجده فى النتيجة العامة، إلى حد أنه، فى النزاع بين اليهود والعرب، تكون دعوى العرب صحيحة ودعوى الصهيونية بغير أساس. هذه هى النتيجة المحتومة التى يمكن أن يصل إليها أى قاض نزيه. بالطبع، سوف يُدفَع هذا بضراوة، لكن عدم القبول لن يكون قائما إلا على التعصب، وعلى العاطفة، وعلى الشعور بالانحياز. ولندع الصهيونى الغاضب، أو الذى يطفح بالازدراء لما قيل، يفحص عقله ويسائل نفسه: هل هو متحرر من تعصبه ومن عاطفته، ومن شعوره بالانحياز، وهل آراؤه الخاصة قد أسست على تحليل نزيه لجانبى القضية (أى جانبها اليهودى وجانبها العربى)؟ وإذا ما تساءل قائلا: كيف يمكن أن يتوقع منه الحياد فى مسألة معنىٌ بها هو وشعبه بما هى مسألة حياة وموت؟ فينبغى أن تكون الإجابة بقول هو. قطعا. ثقيل: إن النزاهة بين المرء وغيره، بين دعاوى المرء والدعاوى التى يطرحها الآخر، هى جوهر العدالة وجوهر الأخلاقية، وهى الطريقة الوحيدة التى يمكن بها للمرء أن يتصرَّف بعدالة نحو الآخرين فى هذا العالم.

لكن حالة اليهود غير السعيدة فى أوربا تعطيهم، كما رأينا، حقا متكافئا على كل الدول المتمدينة فى العالم. ومن ثمَّ يبرز الحل الصحيح للمشكلة إلى العلن على نحو صارخ. إن كل أقطار العالم غير المأهولة بالسكان: استراليا وكندا وأجزاء من الولايات المتحدة، وفلسطين ذاتها، وغيرها من الأقطار - يجب أن تُعدَّل من سياسات الهجرة لديها حتى يتسنى أن تأخذ، كل منها على حدة، حصتها السليمة من المهاجرين طبقا للمكان الخالى القابل لذلك. هذا، فيما يتضح بجلاء، هو الحل الوحيد العادل لكل الأطراف، والذى لايمكن لأحد أن يقول عنه إن فيه افتئاتا على حقوقه. فلماذا إذن لايتم من قادة العالم تَبنىّ هذا الحل؟ وعلى الرغم من أن التزام كل البلاد باستيعاب المهاجرين لو أنَّ بها أمكنة خالية هو التزام معترفٌ به فى التقرير الأنجلو- أمريكى الحالى، فلماذا ذَوَى هذا الالتزام هنالك تماما وتمَّ فى المقابل التأكيد على هجرة اليهود إلى فلسطين وحدها؟ ولماذا لم يتم الانتباه إلى هذا الأمر فى الأغلب ولم تتم مناقشته؟

صحيح إن الرئيس «ترومان» عَبَّر عن نيته أن يطلب من الكونجرس زيادة حصة الهجرة للاجئين، بما فيهم اليهود. لكن هذا لم يكن مصحوبا بأى اعتراف بأنه عَبر هذا الطريق وحده يكمن الحل الوحيد العادل للمشكلة اليهودية. ولم يكن مصحوبا كذلك «بالتخلى» عن سياسة الظلم بالنسبة لفلسطين. فلم يغيِّر هذا من الموقف فى الأساس. وهنا علينا أن نعيد طرح السؤال: لماذا، على الرغم من هذا الاعتراف المريب والمضنون به لدعاوى الحل العادل، نُلقى بكل ثقلنا فى جانب الحل غير العادل. لو وجدنا على هذا السؤال الجواب الصحيح فسوف نضع إصبعنا على ما هو فاسد فى عالم اليوم، وعلى ما يجعل مستقبل العالم بالقطع كابوسا من الحرب، وعلى ما يجعل كل جهودنا من أجل السلام بلا معنى. والجواب هو أننا نحن، سكان الولايات المتحدة، وكندا، واستراليا، وبريطانيا العظمى، وبقية الأقطار المعنيَّة، لانريد الاعتراف بالتزاماتنا الأخلاقية الواضحة فى المسألة. ولانريد أن نشارك فى تحمل العبء. لقد وجدنا بلدا صغيرا، هو فلسطين، نائيا، أناسه لاحول لهم وهم العرب فيمكن إذن أن نحملهم تبعة واجباتنا بدون أى عدالة. إنه غالبا مايُقال إن اليهود أنفسهم متعطشون للذهاب إلى فلسطين، وهم - فى معظمهم - لايريدون الذهاب إلى بلدان

"الوهم الصهيونى"

اخرى. وهذا صحيح بما فيه الكفاية. غير أنه لايجب علينا افتراض أن هذا دليل على عدالة الدعوى الصهيونية، طالما أصبحت المسألة هى مبدأ العدالة: ومتى كانت الرغبة القوية لحزب من الأحزاب فى أن ينال ما هو محل نزاع متعلقٍ بالملكية أو بأى شىء آخر تعطيه حقاً فى المطالبة به؟ إن مايريده الناس لايبرهن إلا على أنهم يريدون مايريدونه، لكنه لايبرهن على أنهم يسعون إلى نيله بعدالة. ولو تُظهر الدول المعنيةُ أن على فلسطين تحمل نصيبها العادل من اللاجئين (اليهود)، جنبا إلى جنب مع بقية الأمم الأخرى فى العالم، وتقف الدول بحزم وراء هذا القرار فلسوف يذهب يهود أوربا إلى أمريكا وكندا، أو إلى أى بلد آخر يلقون فيه معاملة حسنة، وهم فرحون بما فيه الكفاية. أما أن تَجعل هذه البلاد من الرغبة العاطفية لليهود فى الذهاب إلى فلسطين سببا لعدم تخفيف قيودها الخاصة على الهجرة، فإن هذا لن يكون بأكثر من عذر زائف.

إن العلةَ الحقيقية وراء معارضة هذه البلاد تخفيف القيود على الهجرة تكمن فى شيء آخر. وعندما قال السيد «بيفن» وزير خارجية بريطانيا إن أمريكا تضغط على بريطانيا للسماح بمزيد من هجرة اليهود إلى فلسطين لأننا نريد ذهابهم إلى أمريكا، قوبلت ملاحظته هذه بعاصفة من الشجب؛ طالما أن الحقيقة تصدمنا، بالطبع، وتكشف عن شرنا ونفاقنا! لكن ملاحظته صحيحة بالنسبة للإمبراطورية البريطانية بقدر ماهى صحيحة تماما بالنسبة للولايات المتحدة. وعلينا أن نواجه الحقيقة العارية، مهما يمكن أن تكون غير سارة لنا ومهما تكن مخزية، وهى أن اى أمة من الأمم العظمى لاتريدُ هؤلاء اللاجئين، وعلى ذلك فإنها تحاول فرضهم قسْرا على بلد عربى صغير. والسبب فى أن أمريكا على وجه الخصوص تحاول أن تفرض اتخاذ هذه الخطوة، على حين أن بريطانيا تتلكأ فى ذلك، إنما يرجع ببساطة إلى أن الصوت اليهودى الانتخابى قوى فى أمريكا بينما للعرب نفوذ هام فى الإمبراطورية البريطانية.

لكن، سوف يُقال إن مسار التفكير هذا بأكمله ليس هو من السياسة العملية فى شيء. إنه ليس «واقعيا». فالولايات المتحدة والإمبراطورية البريطانية يرفضان تخفيف قيودهما بما يكفى لحل المشكلة وليس من المفيد محاولة إغرائهما لفعل ذلك أو لتبنّى الحل الذى نوصى به هنا للمشكلة اليهودية. والسياسيون العمليون عليهم إدراك ذلك. لكن ما أريد إبرازه هو أن هذا اللون من سياستهم «العملية، أو «الواقعية، هو الذى يؤدى إلى الحرب، ولسوف يؤدى بالضرورة إلى الحرب من جديد، لا فى فلسطين وحدها، وإنما فى أرجاء العالم كله.

هل نحن نريد السلام أو لا نريده؟ لو أننا نريد السلام فهناك، إذن، سبيل واحدة للظفر به: أنْ نكف عن تقرير المسائل الدولية على أساس من تصيد الأصوات الانتخابية، والمصالح الذاتية، والقوة، والشره، والتعصب، والهوى، أو على اى أساس قَلّ أو كثر من العواطف المقنّعة بقناع الوطنية. وعلينا أن نبدأ تقريرها بالعقل على أساس من النزاهة ومبادئ العدالة.

هذا هو الدرس الحقيقى المستفاد من المسألة الفلسطينية. إنها ليست مسألة معزولة تُترك وشأنها. إنها تمسُ مستقبل العالم كله. وكما أن الجيورنيكا Guernica كانت أساساً صادقا لاختبار أساليب الألمان والايطاليين فى الحرب، فكذلك الحال تماما مع فلسطين، إنها أساس لاختبار سياستنا من أجل السلام. فطرائقنا هناك، بتناولنا العاطفى واللاعقلى للمشكلة، إنما يكشف عن تفاهة احتجاجاتنا (المزعومة) دفاعاً عن السلام. ■



قـــــراءة فـى شـــــــظـايـا روايـــة

الحاجز

مشـــهدية الوجـــع الفلـــسطيـنى

الـــيــــــاس عـطــا الــلــه

أثـيـنـــا وبـيــروت

■■ كان من المفترَض. وأنا المفترِضُ. أن أكون أوّل الكاتبين فى «حاجز» عزمى بشارة، لا لامتيازات منحتنيها الدولة العليّة، سواء كانت الأستانة عاصمتها أو القدس، بل لأنّنى اطّلعت على بعضٍ من نصّه قبل أن تتلقّفه دور النّشر، وقبل أن يرتئى الكاتب جعله شظايا رواية، وكان قد اختار له اسم: «وجد فى بلاد الحواجز»، الذى جعله عنوانا ثانويّا يتصدّر القسم الأوّل من روايته. قرأت العمل كاملا، وتريّثت، من باب رهبة الولوج تارة، وأخرى من باب محاولة لملمة ما تشظّى منّى، وثالثة لأفسح مجالا فى النّفس لوجع القلب، وهو ضرب من الأمراض المزمنة التى يعيشها الفلسطينىّ، حتّى صارت من مقوّمات جبلته.

فى محاولة بائسة منى للهرب من الحاجز، تابعت بمشاعر، لا أعرف دافعها، دورة الألعاب الأولمبيّة فى أثينا، وخاصّة رياضة العدو وقفز الحواجز، وساءنى أو لم يسؤنى، أنّ ممثّلينا من الرّياضيّين لم يفلحوا فى سباق قفز الحواجز، ونحن أكثر امم الأرض معايشة مدمنة للحواجز، وتيقّنت أنّنا كبرنا على الحاجز، ولم نتدرّب على تعدّيه، لا قفزا، ولا مناطحة، تدرّبنا عليه شيئا من بنية نظام حياتنا، سنّة، لا تستقيم حياتنا إلا به، وأىّ محاولة منّا لتجاوزه، أو تجاهله، أو للالتفاف عنه هى المروق والهرطقة، أو هى التّمرّد والتّخريب، ولذا افلحنا فى كلّ ما لا يرتبط بالحاجز والرّياضات الأرضيّة، افلحنا فى التّحليق والفضائيّة المرادفة لرحب الصّحراء فى رياضة الرّماية، استمرارا لما عُلّمناه فى عهود الإسلام الأولى، فعلناها من باب الإيمان والبرّ والتّقوى، وأفلحنا، ولعلّنى مخطئ، فى رفع الأثقال، مصطلحا راقيا لرفع الأحمال، أو للقدرة على الصّبر فى حمل الأعباء.

كانت متابعتى لأثينا مصحوبة بانقطاعات، فرضها واجب التّثقيف العصرىّ للذّات، وذلك بمتابعة بيروت وما آلت إليه هموم الأمّة العربيّة فى اختيار سوبر ستارها، وكيف سينعكس ذلك على المسألة الفلسطينيّة العتيقة، والمسألة الليبيّة الطازجة، ولم يكن الأمر ليتطلّب منّى جهدا ذكائيّا حصريّا، فالموضوع يحاصرك فى حلّك وترحالك، ضربا من الحاجز غير المرئىّ، إنّه حديث الأمّة، والصّحافة، والحكومات، احتشدت له، وحشّدت، لنصرة القضيّة المطروحة، أو صاحب القضيّة، وأفلحنا بكلّ الدّيموقراطيّة التى ننعم بها بكسر وتجاوز كلّ الحواجز: ثلاثة ملايين ومائتا ألف عربىّ من أصقاع الدّنيا، وقفوا وقفة رجل واحد، كحال المؤتمرين فى دار النّدوة، وانتصروا للقضيّة، قضيّتهم المنزوعة من سمة العروبة التى صارت نوعا من الإقليميّة، وحاصرتنى النّكبة والاجتياحات وجنين وبغداد، فتسلّل إلى الذّاكرة الضّريرُ البصير أبو العلاء، والهائج الشّقىّ المتنبّى، وقبل أن يكثر الحجيج، ويتململ هاجعون نسيهم العرب فى رحلة حضارتهم القسريّة، قمعت ذاكرتى المشتقّة من فلسطينيّتى المزمنة فى المرض.

قــــوالـــــب

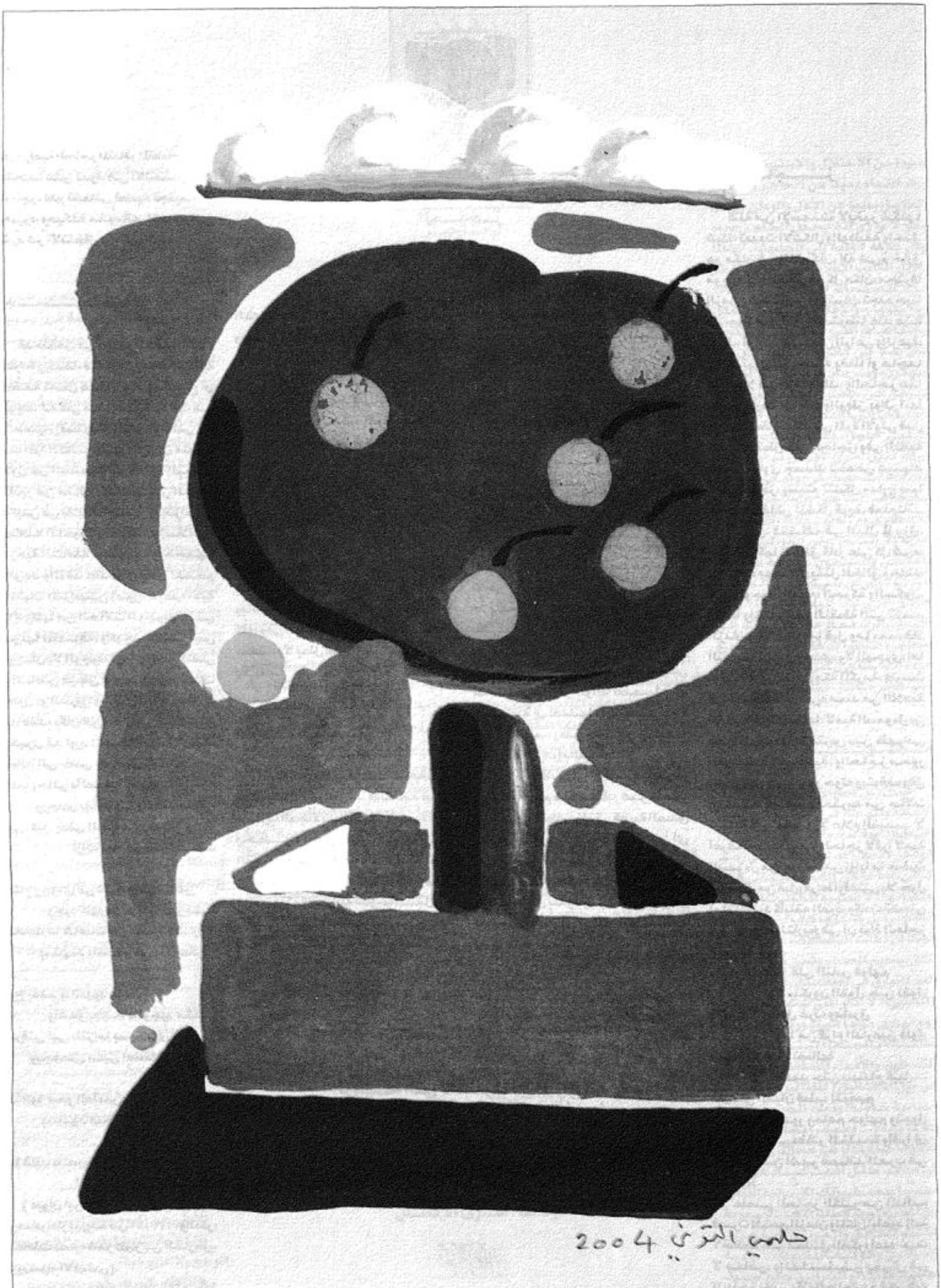
دعوا كلّ الهذيان السّابق، فهذا مما اقحمنى فيه حاجز عزمى بشارة، وأنا مزمع على اقتحامه، هذه هى القضيّة الأساسيّة فى هذا الحاجز، تحاول أن تقتحمه وتذرّره شخوصا ومرامى ومضامين، فيحاصرك، وأنت ترمى إلى محاصرته... هل جرّب أحدكم الكتابة تحت الحصار؟ التّركيزَ فى حالة التّشعث والتّبعثر؟

رأى الكاتب أن يسمّى روايته «الحاجز»، وأضاف إليها فى مرحلة ما سمة «شظايا»، والوالدُ لا يُسأل فى مثل هذه الحالات، وإن حاول بعض الأدباء تحليل هذه الشّظايا غير المندرجة فى مصطلحيّة أجناسهم الرّوائيّة، ولأنّنى تعمّدت ألاّ أقرأ ما كتبوه عن الحاجز، على الغالب، كى لا أعيش فى حواجز أخرى تفرض قيودها علىّ دون أن أدرى، رأيت أن حاجز عزمى بشارة رواية متضامّة، لا شظايا رواية، تحكى عن تشظّى الحالة القضيّة الإنسان الأمّة الزّمان المكان، يشظّيها الحاجز، ثمّ يبئّرها لتشظّينا من جديد. والحاجز هو البطل عند بعضهم، ولست أدرى كيف نمارس مصطلحيّة حَجَزَها حدّ الرّواية الجامع المانع، والحاجز مانع غير جامع، وإن جمع، فإنّه فاعل ذلك بعد أن نكون قد تشظّينا ورغبنا عن الجمع والاجتماع وحتى عن الجماع!

تتبدّل إبداعاتنا الأدبيّة، وتظلّ مصطلحاتنا محجوزة فى قوقعة ما، فعلينا أن نستظهر مقوّمات الرّواية، من ضرورة وجود بطل، يوصف حينا بالتّسطّح أو بالتّنامى أو...، ونظلّ نبحث عن الحوار والسّرد، والزّمان والمكان... وماذا نفعل فى حالة «الحاجز»، وهو عمل قلبها رأسا على عقب؟ ماذا نقول عن المهزوم البطل، أو اللابطل البطل، أو اللّغة البطل، أو الكاتب البطل؟ بل ماذا يضيرنا لو محونا البطل؟ كيف أتعامل مع شعر لأنسى الحاج أو نذير العظمة أو أدونيس، وأنا مثقل بأدوات السّجع التامّ والسّجع النّاقص والطّباق والمقابلة والتّخميس وردّ العجز على الصّدر والزّحاف، وأحكام من نحو: أحكم بيت وأغزل بيت وأهجى بيت وأرثى بيت...؟ فعلى هذا لا يختلف عن أىّ محاولة لحجز الحاجز فى قاموس النّقد المتعارف عليه، لا من منطلق ديالكتيكىّ، بل للمفارقة بين تزاوج المتعارف

> **نحــــن أكثــر أمـــم الأرض معايشـــة مدمنــــة للحواجـــز، وتيقّـــنت أنّنا كبرنا على الحاجز، ولم نتدرّب على تعديـه، لا قفـــزا، ولا مناطحـــة، تدرّبنـــا عليـــه شيئا من بنية نظام حياتنا**

الحاجز.. شظايا رواية
عزمى بشارة
بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٤


حلمي التوني 2004

عليه ولعبة الحاجز المتنافر المتضام. ولذا، أفلحت، على ندرة، فى الانعتاق من الحاجز، فلم تشغلنى قضيّة تجنيسه أو تجنيره، وهيكلة مقوّماته، لقد كفانى بشره شرّ الانشغال فى القوالب.

وجــــــــد

قد ننشغل فى «وجد» الكاتب، أثناء القراءة وبعدها، صحيح أنّ ابنته ملائكيّة الطّلعة تحمل هذا الاسم، وصحيح أنّ الوجد له فى معاجمنا دلالات من الأحاسيس تستوطنّ النّص، ولكنّنى. إن كنت أقرأ الكاتب جيّدا. أرى أنّ ملهمه الأوّل فى التّسمية هو ملاكه البيتىّ، بتأثير من متانة العلاقة بين الطّفل وأليس فى بلاد العجائب، وبإثراء من ثقافته اللّغويّة وثقافته الإسلاميّة الرّحبة الشّاملة للصّوفيّة ومعجمها، فالوجد والفقد عندهم رديفان للمحو والإثبات القرآنيّتين (سورة الرعد: الآية ٣٩)، وكلّها من الحالات الوجوديّة التى يمرّ بها المتصوّفة، والوجد عندهم ليس الوجدان ولا الوجود، فهو أن يغمر النفس أو الباطنَ فيضٌ أو واردٌ إلهىّ يخلّف الحزنَ أو السّرور، ولا يكون ثمّة وجد إلا بعد فقد، وكان ابن الفارض فى تائيّته الكبرى قد أورد المصطلحات الأربعة، إضافة إلى المعنى المعجمىّ الشّائع:

وقلتُ وحالى بالصّبابة شاهد
ووجدى بها ماحِىٍّ والفقدُ مثبِتى
هَبِى، قبل يُفنى الحبُّ منّى بقيّة
أراكِ بها، لى نظرةَ المتلفّتِ
...
وطاحَ وجودى فى شهودى، وبِنتُ عن
وجود شهودى ماحيا غيرَ مثبِتِ
وعانقت ما شاهدتُ فى محوِ شاهدى
بمشهدِهِ للصّحو من بعد سكرتى
...
أروح بفقدٍ بالشّهودِ مؤلّفى
وأغدو بوجدٍ بالوجود مشتّتى
يفرّقنى لبّى التزاما بمحضرى
ويجمعنى سلبى اصطلاما بغيبتى
...
ومأخوذ محوِ الطّمسِ، محقًا، وزنتُه
بمحنوذ صحوِ الحسّ فرقًا بكِفّةِ
...
وما فاقدٌ بالصّحوِ فى المحوِ واجدٌ
لتلوينِهِ أهلا لتمكينِ زُلفةِ

(ديوان ابن الفارض (١٩٦٢). بيروت: دار صادر، دار بيروت. ص٤٦ . ١١٦ . وانظر: د. عاطف نصر، شعر عمر بن الفارض، بيروت: دار الأندلس).

ومهما يكن من أمر وجد المتصوّفة الذى لا يكون إلاّ بعد فقد، فلندعهم ومصطلحيّتهم، لنبقى فى غمرة الفقد التى لا نعرف بعدها وجدا، أو فى غمرة وجدنا بعد أن فقدنا كلّ شىء... وفُقِدنا.

وثمّة هاجس يراودنى فى أنّ «طروحات عن النّهضة المعاقة»، والذى صدر قبل هذه الرّواية، فيه من الأسلوبيّة، فى بعض فصوله، ما أراه قوّة دافعة لإيصال الموقف والرّؤية والرّؤيا بالأسلوب الأدبىّ وبالنَّفَس الرّوائىّ الذى لم يفاجئنى به الكاتب فى حاجزه.

أمّا ملهمه النّصّىّ، فهو المعاناة، بكلّ تفاصيلها، الممتدّة على مساحة الكتاب، يمثّلها الحاجز المتحدّث بالأصالة وبالنّيابة عن كلّ أشكال الحجز، فى المكان كلّه، وفى الزّمان كلّه، معاناة خلقت عملا صادقا، ولا يطلّ على الدّنيا شىء جميل بلا ألم.

الرّحلة الصّعبة

أصدق من يكتب عن هذه الرّواية ذلك الذى يسألك قراءتها... فالكتابة عنها بأسلوب العُجالات والكلمات المعدودة التى يحصيها المحرّر، ويحجزها رئيس التّحرير، مفضية لا محالة إلى التّقصير، فالتّفاصيل كثيرة، وتذرّرها وتضامّها أو تَراصّها يتمّان بسرعة مدوّخة؛ تنتقل من الثّانية التى تتنفّسها إلى مائة سنة قبلها، أو بعدها، من السّمّ (السنتيم) الذى «ترتع» فوقه، إلى عوالم بعيدة، من طقوس الحياة إلى طقوس الموت، من وجع الدّماغ إلى صرخة طفل إلى انكسار عقب حذاء امرأة إلى اندلاقة كرش وإشفاقة يسارىّ على حقوق المتلاوطين والسّحاقيات... وعليك أن تكمل دراستك فى أكاديميّة الحاجز؛ من علوم المجتمعيّة، إلى مدرسة علم النّفس، إلى الطّبّ فإدارة الأعمال، ومن الأرصاد الجويّة. التى لم نحفل بها يوما إلا فى مراسلاتنا بالإنجليزيّة فى عهد التّلمذة بتأثير من المرسَل إليهم عبر البحار، فالسّماء المكفهرّة القاتمة عندهم جعلت الأحوال الجويّة شيئا أساسيًا فى حديثهم، وما لنا نحن أصحاب الشّمس المشرقة؟. إلى مدرسة الألسن، وتدخل فى الفصول المتداخلة لترى وحل الشّتاء فى غبار الصّيف... والتّفاصيل كثيرة، حتى لتخشى أن تتقافز حولك «تفصيلة» أو أكثر سائلة إن أهملتها «ليش مش أنا»؟ بلغة الكاتب. (طروحات عن النهضة المعاقة (٢٠٠٣). رام الله: مواطن. ص ٩٣). أن أكون صادقا، يعنى أن أوصى بالقراءة وأصمت! ورغم هذا سأناور عبر محاور شدّتنى، ولا تبطل مناورتى قضيّة الصّدق المذكورة، فالرّواية التى لا نعرف من أىّ زاوية نأتيها، صعبة، ولأقرّر. ولْيُقَلْ ما يُقَالُ. : إنّ الحاجز أهمّ وأصعب وأعمق ما كَتَبَ عزمى بشارة، رغم اللّبوس الرّوائىّ الجميل الخادع ذى الحواريّات المضمّخة بعبق اللّغة المحكيّة.



الحــاجــز

الرّوايــة التى لا نعــرف من أىّ زاوية نأتيهــا، صعبــة، ولأقرّر. ولْيُقَلْ ما يُقَالُ. : إنّ الحاجز أهمّ وأصعب وأعمق ما كَتَبَ عزمى بشارة، رغــم اللّبــوس الرّوائىّ الجميــل الخــادع ذى الحواريّات المضمّخة بعبق اللّغة المحكيّة

الحــــاجــــز

كتلة من الإسمنت، لايغيّر شكلُها شيئا، تعدّدت الأشكال والوظيفة واحدة. هو مكان فى اللامكان، إنّه شىء خارق موجود كما الخالق فى كلّ مكان، مخترقا الزّمنَ والتّضاريس والإنسان، تجده حينا فى جواز مرورك، أو مستوطنا عند عتبة بيتك، أو أزليًا أبديًا بين الرّاعى والرّعيّة، وإن استبطنتَ، وجدتَه يقظا أو هاجعا متململا فى الأنا فيك. والحاجز هذا يرسم خارطة الوطن، والوطن دوائر تبدأ حيث سقط رأسك، فى المرّة الأولى قبل جسدك لتطلّ على الحاجز، وفى الثّانية بعد أن تهاوى جسدك لتغمض عينيك على الحاجز، وتتّسع لتشكّل مدارج صبا وحارة، وتنفلش لتشكّل قرية، فمدينة... أما الوطن، فتشكّله فى البال لمّا يزل. والحاجز كما الخالق قادر على كلّ شىء، وإن كانت مهمّته أن يقتل الخالق وخلقه، بيده الوجود والعدم، الحركة والسّكون، المبتدأ والمنتهى، هو النّقطة التى تقسم الزّمان والمكان إلى ما قبل وما بعد، فلا التّقويم الميلادىّ يجدى، ولا الهجرىّ، أمّا توقيتات جرينتش ومكّة المكرّمة، فليست فى حساباته. هو شىء ممتدّ من اللاميّة الأولى التى تعلّمناها، لاميّة السّموءل بن عاديا اليهودىّ المتمترس بين ظهرانى العرب منذ الجاهليّة. والحاجز محور الدّنيا، كلّ شىء يدور حوله ويتوقّف وفق إيقاعاته، ووفق ما يعتريه من حالات نفسيّة لا يتوقّعها إلا علاّم الغيب... لا أعرف لمَ أعادنى هذا الحاجز لأقرأ لاميّة السّموءل من جديد، ومن زوايا ما خطرت فى البال من قبلُ، قراءة أوقفتنى بلا حول أمام المتفرّد كأبلقِهِ الفرد، وكادت تضعنى فى مواجهة التّاريخ فى أنّ نواة الحاجز مستكنّة فيها،

وننكر إن شئنا على الناس قولهم
ولا ينكرون القول حين نقول
وأسيافنا فى كلّ غربٍ ومشرقٍ
بها من قراع الدّارعين فلول
معوّدةٌ ألا تُسَلّ نصالها
فتغمدَ حتى يُستباح قبيل...
فإنّ بنى الديّان قطب لقومهم
تدور رحاهم حولهم وتجول

وأعود إلى دفاتر التّلمذة وأقرأ أنّ «اللاميّة» من أشهر قصائد العرب فى الفخر!

علّمنى الحاجز الكثير من المثالب، فصرت أقتحم الزّمان والمكان، وأعود إليه لأحافظ على تسلسل الفكر، أعود حيث لا مناص، والفلسطينىّ يعيش فى الحاجز حتى بات الحاجز يعشّش فيه

ضربا من الاحتلال والاستيطان، يلهث وراء انتماء بعيد عن الحاجز وحضارة الحاجز، بعيدا عن الأهل والوطن، يرحل وهو لا يدرى أنه يحمل الحاجز معه، وكل طرقه مؤدية إلى الجلجثة. لطالما حاول الكاتب الإفلات من الحاجز(انظر مثلا الصفحات ١٠٧، ١٦١، ٢٣٣، ٢٥٣ وما يليها)، والإفلات متنفس، يتمثل بالتداعيات التى تنبش الماضى لتحل كان بدلا من كائن، أو لتؤول كان إلى سيكون، وسرعان أو بطآن. لا أهمية للزمن فى حضرة الحاجز. ما يعود الزمنان إلى الانصباب فى الحاضر المسمى حاجزا، وكأنه «يذبل» الذى لا يريد لليل امرئ القيس نهاية، حتى محاولة استحضار فرح ولو فى الصفنة يحجزها الحاجز، والحاجز أرجوس الأسطورى ذو العيون المئة، التى لا تنام منها إلا اثنتان على التوالى، لتظل الثمانى والتسعون مشرفة على كل مكان، ترى كل شىء، حتى الصفنة المزمار الذى لجأ إليه الكاتب، ما أفلح فى المناورة، فعاد من صفنته إلى الحاجز، منتظرا تدخلا إلهيا، أو معجزة عودة ابنة ساتورن لتزين بالعيون المائة ذنب طائر مختال منفوش.

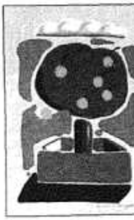
مشـــهـديـة

شتان بين تصوير العذاب والتعذيب، الإهانة والمهانة فى حضرة الحاجز، انتظارا، ووقفة، واجتيازا أو قفولا، فوسائل الإعلام قد تكون قادرة على رصد المرئى، أما ما فى العمق، فيبقى فوق عدساتها، لا تسبره الكاميرا وزاوية التصوير، بل لا تعرف كيف تتعامل معه، فمنذ أن أطلت الفضائيات علينا، صورة تنقل جحيم الحدث، ونحن نرى شلالات الدم المنهرق فى أفغانستان أو العراق أو فلسطين، لا أذكر أننى شاهدت ولو جثة يوم تهاوى برجا نيويورك.. «عناية مكثفة» بالجثث المبتورة، الرؤوس المتشظية، والأمعاء المندلقة، وللأطفال من بين المتشظين/ المقتالين/ الشهداء مساحة خاصة، وتعاد الصورة مثنى وثلاث ورباع... ومعشر، تخاطب فيك، مشاهدا محايدا أو غير محايد. ولا حيدة فى مشهد طفل أغفت عيناه غزلانيا مضرجا بدمه. غريزتك الإنسانية النافرة من المجزرة، وردة فعلك الآنية المصحوبة بشتم الخالق والعرب والمسلمين وإسرائيل والولايات المتحدة... جلبة مصحوبة بتهدج الشرايين ورفع ضغط الدم، قلما أخرجتك إلى الشارع، وإن خرجت حجزت، لا تملك إلا سذاجة الصرخة «بفتح الحدود»، لنصرة الأهل، والحاجز فى مثل هذه الحالة يتموضع فى أى شارع عربى، أمام الجامعة أو الجامع، بله الحدود. وتألف عيناك المشهد، ويخبو التأثير ويؤول إلى ضرب من التقزز... هذا هو خطاب ردات الفعل، هو موقف اللاموقف، يجعلك عبر الشتيمة والجلبة تتنفس وتمج ما فيك من غضب، ولا نستطيع أن نقلل من كم الغضب وقدسيته فى مثل هذه الحالة، ولكن الإثارة والتركيز على الضحية وعلى الأشلاء فيهما تضليل واستعطاف ومحورة المعاناة فى الشهادة، وعلى قدسية هذه، تظل المعاناة نصيب الباقين المتنفسين، أولئك الذين عُنى بهم «الحاجز»، مشهدية للوجع الفلسطينى، تخاطب القلب والعقل، وتفضى إلى بلورة موقف، عندك وعند القارئ الإنسان، وما أبعد هذه التى أفلح فيها الكاتب (اقرأ ٣٩، ٥٥ وما يليهما)، عن ردة الفعل الغاضبة الزائلة التى سمرتك أمام الشاشة!

وحدة الأعراس والجنائز

فى كل أصقاع الأرض طقوس خاصة بالأعراس، وأخرى خاصة بالجنائز، طقوس متناقضة تفرضها جدلية الحدثين، فالفرح فرح والحزن حزن، إلا فى حقيقة الحاجز، حيث تذوب الفروق، ويتحد الفرح والحزن فى طقس حاجزى واحد، تذوب فيه الأعراف والتقاليد، فالتخطيط والتوقيت وإجراء الحسابات يقررها الحاجز، لا أهل المحمول على آلة حدباء، ولا مقولةكرامة الميت فى دفنه، ولا رغبة العروسين المحمولين على الأكف وسط طلقات الزغاريد... هكذا «يشقلب» الحاجز كل شىء، حتى إنه اخترع مساء فى وهج الظهيرة، بحيث صارت السهرة فى الساعة الواحدة بعد الظهر وبالتوقيت المحلى. هذا هو الحاجز الذى رصده الكاتب، ولم تقو الفضائية على نقله، إنه الوجع الذى لا يتصبب الدم منه، ولا أدرى أى الوجعين أكثر إيلاما؟

حقيقة على غاية من البساطة: ما يمر به أهل الحياة بانسيابية وتلقائية، يمر به أهل التنفس بشق الأنفس، وأشقى ما فى الأمر أن تحكمك كتلة اسمنتية، حولها نفر من الصفيح المدجج بالرصاص والعربية الفصيحة والملحونة، مشفوعة على الغالب بالكلمة الرهيبة الآمرة «أخورا»(= إلى الخلف) وما يترتب عنها(انظر ص ٦٤ وما يتبعها)، والمنغرسة فى ذاكرتنا مصطلحا كيبوتسيا يفهمه البقر فى الحظيرة، أو أى من سائمة الكيبوتس(وأصله الدلالى اللم والضم). ولى عهد الكيبوتس الاشتراكى الصهيونى، وظلت القطعان بشرية تسام، تروح وتغدو، وتضام، فى وطن الحاجز الذى لا يعرف لا لمّا ولا ضمّا.



الحـاجـز

العدسة اللاقطة

عزمى بشارة روائى من الجنس النادر، لا لأنه طوع فلسفة وسياسة فى أسلوب أدبى، بل لقدرته شبه الحصرية فى رصد التفاصيل، إنها أمور تمر بنا، ونمر بها يوميا دون أن نعيرها اهتماما، وفجأة نراها فى الرواية قد تصدرت مشهدية كاملة، أو عبرت عن فلسفة حياتية، أو رصدت أشياء من نفسياتنا ومعتقداتنا المتقلبة المتغيرة، وتهمس فى نفسك أو تصرخ بأنك قرأت هذه التفاهة المسجوعة، أو ذلك الشعار المختزل لقناعة، والذى قد يتبدل غداة اليوم التالى، بفعل الجو العام فى دولة الحاجز، أو بفعل فوز لفريق كرة قدم، أو بفعل انتظار يتيح لك المراقبة أو الصفنة، والعاديون ينتظرون فى الانتظار، يحلقون فى اللاشىء، وينتظرون، ليس فعلا يحمل دلالة عمل، إنه صيغة فعلية منزوع منها الفعل، والروائى المتمرس، ذلك الذى لا تفلت منه مثل هذه «التفاهات»،(انظر ص ٤٠، ٤٢، ٦٤، والجنازة الثانية).

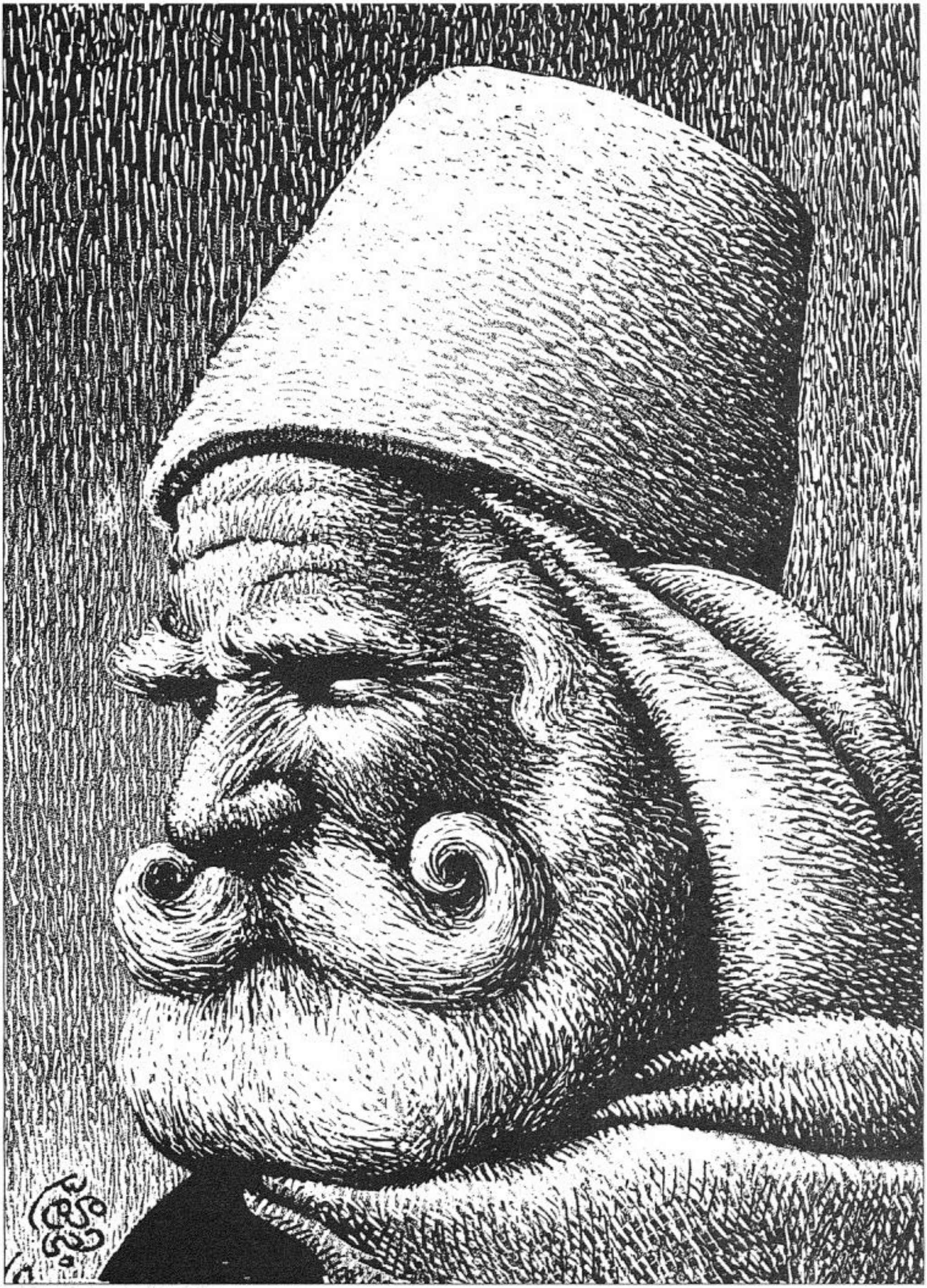
وأخـــيـــرا

لا أعرف إن كان ختامها مسكا، أو إمساكا عن... إنه إقرار بعدم ولوج الأهم، والأهم فى الرواية هو الربط بين التصدير المنسول من لسان العرب فى بعض الفصول، والتذييل الذى تنتهى به الفصول، قطبان من أكثر مواقع الرواية ترابطا، فالتصديرات اللسانية مدخل دلالى حدثى، والقفلات، تبقيك معلقا لا تملك قرارا، تماما كما هو حالك فى حضرة الحاجز.

قارئ الحاجز أحد اثنين، إما أنه يعرف الأماكن والأسماء، فتنضاف إلى متعته متعة، وإما أنه لا يعرف هذه التفاصيل، فيكتفى بمتعة واحدة، وفى الحالتين كلتيهما، يجب أن يكون قارئا مثقفا.

وأخيرا،
اقرأ الحاجز ثلاثا؛
الأولى من باب مراودة النص،
والثانية لتدخل فى حالة متعة الوجع ولا مازوخية،
والثالثة، لتعرف طعم وجع المتعة.
«والأوله آه!... والتالته آه!».■

أولئك الذين عُنى بهم «الحاجز»، مشهدية للوجع الفلسطينى، تخاطب القلب والعقل، وتفضى إلى بلورة موقف، عندك وعند القارئ الإنسان



عرب في الحقوق يهود في الواجبات

الدروز في إسرائيل

صالح محمد النعامي

■ ■ لشدة ما ألم به انفجر باكياً في مركز الشرطة بعد أن اقتيد إليه مكبلاً بالسلاسل، في الطريق من البار وحتى المركز باءت كل محاولاته للاستفسار من الشرطي الذي ألقى القبض عليه عن الأسباب التي دفعته للإقدام على مثل هذا الإجراء ضده. الشرطي أبلغ رؤساءه أنه ألقى القبض على هذا الشاب بعد أن سمعه يتحدث في هاتفه النقال باللغة العربية، فظن أنه فدائي فلسطيني يعتزم تفجير نفسه في نزلاء البار، فألقى القبض عليه للتحقيق معه. سرعان ما أطلق سراح هذا الشاب «العربي» بعد أن تبين أنه قائد لأحد أكثر ألوية المشاة في الجيش الإسرائيلي نخبوية. هذا ما حدث في سبتمبر من العام الماضي، في مدينة «نهاريا»، شمال إسرائيل، للعقيد عماد فارس، الدرزي، الذي يقود لواء «جفعاتي». هذا اللواء الذي أخذ على نفسه قمع الانتفاضة الفلسطينية في قطاع غزة. فعندما تنقل وسائل الإعلام خبر عملية اقتحام، أو قتل، أو تدمير للمنازل، قام بها جيش الاحتلال في قطاع غزة، فبشكل تلقائي يعرف أن لواء «جفعاتي»، بقيادة العقيد عماد فارس، هو الذي نفذها. فهذا الشاب الذي تجاوز بقليل سن السادسة والثلاثين، لم تغفر حقيقة خدمته في صفوف الجيش الإسرائيلي ثمانية عشر عاماً حتى الآن، فيقاد إلى مخفر الشرطة لكونه تلفظ بكلمات بالعربية في مكان كل من يتحدث فيه العربية يثير الشبهات. هذا أحد أعراض أزمة الهوية المتفاقمة التي يعيشها الآلاف العرب الفلسطينيين من أبناء الطائفة الدرزية في الدولة العبرية. فمن ناحية يؤدي الدروز كل «الواجبات» التي يؤديها اليهود لدولة إسرائيل، وعلى رأسها الخدمة الإجبارية في الجيش الإسرائيلي مع كل ما يقتضيه ذلك من التصادم مع أبناء شعبهم، ومن ناحية ثانية تتعامل الدولة العبرية مع الدروز كما تتعامل مع بقية العرب الفلسطينيين الذين يعيشون داخل الخط الأخضر في كل ما يتعلق بـ «حقوق المواطنة»، مع كل ما يعنيه هذا من إجحاف على كل المستويات.

وقد بدأ أبناء الطائفة الدرزية في إسرائيل يشعرون أن خدمتهم في الجيش الإسرائيلي، وهلاك المئات منهم في الحروب التي خاضتها إسرائيل لم يقنع دائرة صنع القرار في الدولة العبرية بإنصافهم ومساواتهم على الأقل باليهود الذين لا يخدمون في الجيش الإسرائيلي، من أمثال أتباع التيار الديني الأرثوذكسي. إزاء هذا الواقع فإن الكثيرين من المثقفين الدروز أخذوا ينادون علناً برفض الخدمة الإجبارية في الجيش الإسرائيلي وحل إشكالية الهوية القومية للدروز في إسرائيل بإعادة الالتحام بالبعد القومي العربي والوطني الفلسطيني، لدرجة أن حسين عباس، هو درزي خدم في الجيش الإسرائيلي ثلاثين عاماً، حتى حصل على رتبة عميد يقول «أن ممارسة الإجراءات العنصرية ضد الدروز جعلتني أشعر بعد هذه الخدمة الطويلة في الجيش الإسرائيلي أني عربي رغم أنفي، ولذا فإني لن أجعل أياً من أبنائي يخدم في هذا الجيش مهما كان الثمن».

جـذور الأزمـة

في العام ١٩٥٦ أصدر رئيس الوزراء الإسرائيلي الأول دفيد بن جوريون قراراً بصفته وزيراً للدفاع يلزم أبناء الطائفة الدرزية بالخدمة الإجبارية في الجيش الإسرائيلي، ومنذ ذلك الوقت والشباب الدرزي يخدم في معظم وحدات الجيش الإسرائيلي المقاتلة. فلماذا وافق الدروز على دفع هذه الضريبة الدموية؟ وكيف استطاعت إسرائيل أن تقنع الدروز بعقد حلف الدم هذا معها؟. يقول سليمان الناطور، وهو كاتب وأديب درزي من ذوي التوجهات الوطنية والعروبية، «أن هذا يعود لكون الدروز أقلية هامشية، وقد اعتقد قادتها التقليديون أن هذا يتطلب منهم البحث عن جهة أجنبية تمنحهم الحماية من أجل البقاء». ويضيف الناطور «أن الخلافات المذهبية بين الفلسطينيين في ذلك الوقت لعبت دوراً كبيراً في خلق هذا الواقع، فالطائفة الدرزية هي طائفة مذهبية صغيرة تعيش في وسط إسلامي كبير لم يكن يرضى عن طقوسها وعاداتها الدينية، الأمر الذي تولد عنه احتكاكات شعر الدروز على أثرها، بحاجة إلى من يدعمهم في مواجهة الأغلبية الإسلامية». ويواصل الناطور «أن أقطاب الحركة الصهيونية فطنوا إلى حقيقة الخلافات المذهبية بين الدروز وباقي العرب الفلسطينيين، فاتصلوا بهم من أجل تعميق هذه الخلافات وتشعيبها وأقاموا معهم علاقات حميمة، وقد برز من بين القادة الصهاينة في هذا المجال «أبا حوشن» رئيس بلدية حيفا، في ذلك الوقت الذي أقنع الكثيرين من الدروز بالتعاون مع المنظمات الصهيونية العسكرية قبل الإعلان عن الدولة العبرية وخصوصاً «الهاجناة». وبعد إقامة الدولة العبرية، صادرت الحكومة الإسرائيلية معظم الأراضي التي تعود للدروز، فحرموا من مصدر رزقهم الوحيد: الزراعة، وبذلك وجد الدروز في الخدمة في الجيش الإسرائيلي مصدراً للرزق، حتى أن الكثيرين من القيادات الدرزية قد وقعت في العام ١٩٥٥ على عريضة تطالب الحكومة الإسرائيلية بفرض الخدمة الإجبارية على الدروز. وهذا ما كان في العام الثاني. وكما يقول الصحافي الدرزي هشام نفاع فقد أدت خدمة الدروز في الجيش الإسرائيلي لعشرات السنين إلى فقدان معظمهم للشعور بالانتماء للأمة العربية والشعب الفلسطيني.

وقد عملت الدولة العبرية على قتل انتماء الدروز للعروبة والشعب الفلسطيني. فهم لا يعتبرون أن الدروز عرب ولا فلسطينيون، وقد تواطأت قيادة الدروز التقليدية مع الدولة العبرية في ذلك. وأصبحت القيادات الدرزية تشدد على أن الدروز إسرائيليون وكفى. لكن لم تقتصر جهود الصهاينة من أجل سلخ الدروز نهائيا عن قوميتهم العربية على التأثير فقط على القيادات التقليدية، بل قاموا بإعداد خطة منهجية لقتل روح الانتماء بأسس تربوية محددة الأهداف، فألزموا الطلاب الدروز بتلقي مناهج تربوية خاصة، غير تلك التي يتلقاها بقية الطلاب العرب. وكما يضيف الصحافي هشام نفاع فإن هذه المناهج تهدف إلى خلق الشعور لدى الطالب الدرزي أنه ينتمي الى طائفة مستقلة ولا يربطها بالعرب والفلسطينيين أي رابط. فقد درس هؤلاء الطلاب التاريخ الدرزي الذي يركز بشكل خاص على العلاقة التاريخية الخاصة بين الدروز ودولة إسرائيل. ومع أن العربية لغة الدروز، فقد درسوهم بما يسمى بالأدب الدرزي، حيث كانوا يقدمون الأديب والشاعر شكيب أرسلان على أنه أديب درزي فقط، بالرغم من أنه أمير البيان العربي في العصر الحديث كما يقول نفاع، وكل هذا من أجل تعميق الشعور باستقلالية الهوية الدرزية. ويواصل نفاع قائلاً: «لقد وصل الاستخفاف بوعي الدروز إلى درجة أن أعدوا لهم مناهج خاصة بالعلوم والطبيعة، فتجد: «كيمياء الدروز»، و«فيزياء للدروز»... الخ. ويقول نكد نكد، عضو في «لجنة المبادرة العربية الدرزية»، وهي أهم المنظمات الدرزية التي تطالب بإلغاء الخدمة العسكرية الإلزامية على الشبان الدروز إن «وزارة التربية والتعليم الإسرائيلية تقوم عملياً بتجهيز الدروز ليكونوا جزءاً من الجيش. ومنذ عشرين عاماً تفرض الوزارة خطة تعليمية تطلق عليها «المنهاج التعليمي الدرزي»، مضامينها عبارة عن كمية من المعلومات بدون مضمون مفيد. فعلى سبيل المثال يعلمون الأولاد ما يسمى بـ«التقاليد الدرزية»، معظم الحقائق التي يتم عرضها خلال دروس هذه المادة تعتبر تزييفاً للتاريخ. كذلك لم تتردد الدولة نفسها في التدخل في قضايا دينية، حيث ألغت أعياداً مسلمة احتفل بها الدروز، واخترعت أعياداً جديدة خاصة بالدروز».

مقاولو الأعمال القذرة

وتفرض الخدمة الإلزامية على جميع الشبان الدروز، باستثناء الذين تفرغوا للعبادة. وبعد انقضاء الخدمة الإلزامية التي تمتد



لم تقتصر جهود الصهاينة من أجل سلخ الدروز نهائيا عن قوميتهم العربية على التأثير فقط على القيادات التقليدية، بل قاموا بإعداد خطة منهجية لقتل روح الانتماء بأسس تربوية محددة الأهداف

إلى ثلاث سنوات، يواصل معظم الشباب الدرزي لدوافع اقتصادية الخدمة في الجيش. ويخدم الدروز بشكل خاص في ألوية المشاة المختارة المقاتلة. وقد وصل عدد كبير منهم نسبياً إلى رتب عالية في الجيش، ويعتبر ارفع ضابط درزي في الجيش الإسرائيلي هو الجنرال يوسف مشلف، منسق شئون الضفة الغربية وقطاع غزة في وزارة الدفاع الإسرائيلية وقد سبق له أن شغل منصب قائد الجبهة الداخلية. وإلى جانب الخدمة في الجيش، ينخرط الدروز في أفرع الشرطة الإسرائيلية المختلفة، وخصوصا في شرطة «حرس الحدود»، حيث أن درزيا يقود هذه الشرطة حاليا، وهو الجنرال حسين فارس. ولزيادة الشعور بالكراهية والحقد المتبادل بين الدروز وبقية أبناء الشعب الفلسطيني، فقد تم استخدام الكثير من الشباب الدرزي في الخدمة في هذا الفرع من أفرع الشرطة الإسرائيلية، حيث إن شرطة «حرس الحدود»، كانت ومازال لها الباع الطويل في قمع الفلسطينيين، حيث تنص التعليمات الصادرة لأفراد «حرس الحدود»، على التعامل بشكل مهين وحتى سادي مع الفلسطينيين. ويرى الشيخ جمال معدى رئيس لجنة المبادرة الدرزية أن هدف الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة كان واضحا وهو توجيه نقمة الجماهير الفلسطينية إلى غير عنوانها الصحيح، حيث تولد الانطباع أن الجندي الدرزي يقوم بالأعمال القذرة عبر إبراز الممارسات غير الأخلاقية لهؤلاء الجنود بأنهم ينفذون تعليمات وسياسة الحكومة الإسرائيلية. اللافت للنظر أن الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية تستعين بخدمات الدروز في المحاولات لتجنيد عملاء لها من بين الفلسطينيين، إلى جانب قيامهم بالتجسس على الدولة العربية. ففي أواسط الثمانينيات من القرن الماضي أصدر الأسرى الفلسطينيون في السجون الإسرائيلية بياناً أكدوا فيه أن عدداً من الممرضين الدروز الذين يعملون في السجون يربطون استعدادهم لتقديم الخدمات الطبية للمرضى من الأسرى وبين موافقة هؤلاء على التعاون مع المخابرات الإسرائيلية بحيث يتجسسون على إخوانهم من قادة الأسرى. إلى جانب ذلك فإن عدداً من الدروز الذي يعملون على المعابر الحدودية التي تفصل الضفة الغربية وقطاع غزة عن إسرائيل يساومون الفلسطينيين على منحهم التصاريح اللازمة لدخول الدولة العبرية بحيث يتم ربط خدمة منح التصاريح بالموافقة على التعامل مع المخابرات الإسرائيلية. الممارسات المشينة للجنود الدروز ضد إخوانهم من فلسطينيي الضفة الغربية دفعت حركات المقاومة الفلسطينية إلى حد التهديد بتنفيذ عمليات استشهادية في قلب التجمعات السكانية الدرزية. أما التجسس على الدول العربية وتنظيم شبكات تجسس فيها فيعتبر مثال عزام عزام المعتقل في مصر أحد أمثلتها.

لكن التضحية بالانتماء للعروبة لم يقنع قادة الدولة العبرية باستثناء الدروز من سياسة التمييز العنصري التي تمارسها ضد بقية الفلسطينيين داخل حدود ٤٨، ويؤكد نزيه خير سكرتير اتحاد الكتاب العرب في إسرائيل وهو درزي أن إسرائيل قامت بمصادرة ٧٠٪ من الأراضي التي يملكها الدروز، وأقامت عليها كيبوتسات ومستوطنات زراعية لليهود. ويكاد يجمع قادة ومثقفو الطائفة الدرزية على ذكر ما يحدث الآن لقرية «بيت جن»، وهي القرية الدرزية التي فقدت أكبر عدد من أبنائها في حروب إسرائيل ضد العرب والفلسطينيين، حيث أن وزارة الإسكان الإسرائيلية، صادرت جميع الأراضي المحيطة بالقرية بحجة أنها تقع ضمن محميات طبيعية ومنعت بذلك أي فرصة لاستغلال هذا الأراضي بالزراعة والإسكان، حيث يعاني الأزواج الشباب في هذه القرية من ضائقة سكن خانقة، وفي مقابل ذلك يقول نفاع وهو من «بيت جن».

إن القرى اليهودية تتوسع في كل اتجاه دون أن يعترض على ذلك أحد. ويلفت الشيخ جمال معدى الأنظار إلى حقيقة أن هناك بوناً شاسعاً بين معدل الدخل السنوي لليهود والدروز، فمعدل دخل الفرد الشهري في بلدة «معلوت» اليهودية يصل إلى اثني عشر ألف شيكل (ألفان وثمانمائة دولار) بينما لا يتجاوز الألفي شيكل لدى جارتها الدرزية «حورفيش». ويقول جهاد سعد، من قادة «لجنة المبادرة العربية الدرزية»، «إنني أشرح للدروز أن الادعاء الإسرائيلي بأنهم سيحصلون على حقوق أكثر من غيرهم إذا خدموا في الجيش غير صحيحة، نعرف أن هناك قرى عربية في إسرائيل لا يخدم أبناؤها في الجيش الإسرائيلي وتعيش أوضاعاً اجتماعية واقتصادية أفضل بكثير من القرى الدرزية». ويقول نهاد ملحم، عضو حركة «المعروفيون الأحرار» وهي حركة تناضل ضد الخدمة الإجبارية للشبان الدروز من قرية كفر ياسيف: «إن المشكلة المركزية هي إقناع الشبان بأنه يمكن التحرر من الاتكال على الجيش، إذ من الصعب إقناع أولئك الذين يعتمدون على الجيش كمصدر رزقهم بذلك، دون توفير بدائل أخرى، يتوجب إحداث التغيير عبر التربية. علينا أن نعلم أولادنا بأن يختاروا الدراسة الأكاديمية بدل الخدمة العسكرية وتشجيعهم على عدم الاتكال اقتصادياً على الجيش».

وعلى الرغم من الحديث عن الشراكة في الدم بين اليهود والدروز، فإن إسرائيل قد استثنت الدروز من العمل في مؤسسات الدولة الهامة في الدولة العبرية، وباستثناء مرة واحدة ولحسابات سياسية محضة، فلم يحدث أن تم تعيين درزي في منصب وزير، في حين لم يحدث أن تم تعيين درزي في منصب مدير عام أو قاض في المحكمة العليا، وحتى بعد أن خدم الدروز لعشرات السنين في صفوف الجيش الإسرائيلي، وأثبتوا إخلاصهم للدولة اليهودية، إلا أن هيئة أركان الجيش ترفض تجنيدهم في بعض أفرع الجيش مثل سلاح الجو، أو الاستخبارات العسكرية، أو صفوف المخابرات العامة. ويؤكد المعلق العسكري لصحيفة «هارتس» زئيف شيف أن المؤسسة العسكرية لازالت تتعامل مع الدروز بصفتهم عرباً. ويتحدث فؤاد داهش، وهو طالب درزي في جامعة حيفا بمرارة عن تردي أوضاع الدروز. ويقول أن الدروز لم يستفيدوا من خدمتهم في الجيش الإسرائيلي على صعيد الرقي بأبنائهم ورفع مستوى معيشتهم، ويكفي أن نعلم أن الدروز هم أقل الطوائف العربية تمثيلاً في الجامعات، مع أن فؤاد نفسه رفض الخدمة في الجيش الإسرائيلي لأسباب ضميرية، وبقى فترة طويلة في السجن بسبب هذا الموقف.

نظرة عنصرية

عندما سأل أحد الصحافيين الحاخام مئير كهانا الزعيم الهالك لحركة «كاخ» المتطرفة، التي تدعو إلى طرد جميع العرب إلى خارج حدود فلسطين «هل تطالب بطرد أبناء الطائفة الدرزية من إسرائيل على الرغم من خدمتهم في الجيش الإسرائيلي؟»، فرد كهانا بكل ثقة «نعم، ولكننا سنحرص على توفير حافلات مكيفة لهم أثناء الطرد»، وقد امتدت الممارسات العنصرية ضد الدروز لتصبح ملاحظة جلية في كل المجالات، حتى في الجيش، والتي تدعي إسرائيل أنه «البوتقة» التي انصهر فيها الدروز واليهود. فقد قالت ضابطة يهودية كبيرة في الجيش الإسرائيلي مؤخراً أن السبب الذي دفع إسرائيل لتجنيد الدروز وهو من أجل منعهم من الانضمام لصفوف حماس والجهاد الإسلامي. وقد رفض أحد الضباط أن يستقل جندي درزي سيارته بحجة أنه «عربي قذر»، كما أن شركة الطيران الإسرائيلية الحكومية «آل عال» رفضت أن يجلس ضابط درزي في أركان الطائرة بحجة أنه يمثل خطراً على من يجلسون حوله من الركاب. وأفردت الصحف العبرية مساحات كبيرة للحديث عن الأساليب العنصرية التي يتعرض لها الجنود الدروز الذين يلقى بهم في السجون العسكرية بسبب تجاوزات انضباطية.

ويعتبر الدكتور أسعد غانم المحاضر في جامعة حيفا أن الحالة الدرزية تجسد أقصى درجات الضياع الوطني والقومي. فالدروز في إسرائيل تحدو أبناء شعبهم وأمتهم من أجل الحصول على امتيازات مادية قد تحققها خدمتهم في الجيش، لكنهم وجدوا أنفسهم ضحايا لنفس السياسة العنصرية التي يتعرض لها سائر العرب في إسرائيل. وحسب أقوال حاتم حلبي، عضو لجنة «المعروفيون الأحرار» التي تناضل ضد خدمة الدروز في الجيش الإسرائيلي فإن «إلزام الدروز في إسرائيل بالخدمة العسكرية أتى للفصل بين الدروز وغيرهم من الفلسطينيين من ناحية، وبينهم وبين الدروز في سوريا ولبنان». ويضيف «من المؤسف أن المؤسسة

الإسرائيلية نجحت إلى حد ما فى ذلك. إسرائيل تريد أن تجعل الدروز جزءاً من الصراع العربى الإسرائيلى وزعزعة استقرار المنطقة. الدروز فى إسرائيل هم الأضعف بين الطوائف الأخرى وقامت إسرائيل باستغلال ذلك لخدمة مصالحها الخاصة». ويواصل حلبى قائلاً «الموضوع بمجمله مادى إذ أن هناك محاولات لتحويل أبناء الطائفة الدرزية إلى متعلقين بالاقتصاد الإسرائيلى. مصدر الرزق الوحيد لـ٢٧٪ من أبناء الطائفة الدرزية هو الجيش الإسرائيلى، ويأتى هذا على حساب التعليم الأكاديمى، وبلورة الهوية القومية وشعور الانتماء للشعب الفلسطينى والعربى». ومن ناحيته يشن سلمان الناطور هجوماً حاداً على القيادة التقليدية للدروز التى وافقت على خدمة الشباب الدرزى فى الجيش الإسرائيلى من أجل مكتسبات على صعيد الخدمات، ويقول: إذا كانت إسرائيل دولة ديموقراطية فإن كل مواطنيها يجب أن يتمتعوا بالحقوق المدنية ماداموا يدفعون الضرائب». ويحمل الصحافى هشام نفاع على قيادة الطائفة الدرزية التى قادت أبناءها إلى هذا الوقع البائس. ويتساءل «ترى لو حدث سلام بين إسرائيل والدول العربية، فماذا سيقول دروز إسرائيل لإخوانهم الدروز فى الجولان وسوريا ولبنان». ويضيف «أن خدمة الشباب الدرزى فى الجيش الإسرائيلى عار يلطخ شرف كل الدروز أينما كانوا وحيثما حلوا». وقد تبين أن عملية حساب النفس الجادة والعميقة أتت أكلها فى أوساط الشباب الدرزى. ففى مطلع حزيران، يونيو الماضى، أصيبت دوائر صنع القرار فى الدولة العبرية، والقيادة الدرزية التقليدية المتواطئة معها بالصدمة جراء الكشف عن نتائج دراسة أجرتها لجنة المبادرة الدرزية، وتبين من خلالها أن ٤٠٪ من الشباب الدرزى يرفضون أداء الخدمة العسكرية الإلزامية فى صفوف جيش الاحتلال. وأكدت الدراسة التى اعتمدت على استطلاع رأى واسع فى صفوف الشباب الدرزى، أن الشباب الدرزى أصبح على استعداد للتصريح بأنه عربى فلسطينى ويرفض الخدمة العسكرية، مع كل ما يترتب على ذلك من اعتقال فى سجون الشرطة العسكرية لجيش الاحتلال. وحسب الدراسة فإنه يمكن فى كل أسبوع العثور فى السجون العسكرية على ٣٠ سجيناً درزياً رافضاً للخدمة العسكرية و٣٠ متهرباً من صفوف الجيش لأسباب مبدئية أو ضميرية أو اقتصادية. ويتم الإفراج عن خمسة إلى عشرة سجناء دروز شهرياً. والمنظمات والجمعيات واللجان الدرزية الأهلية التى تشجع رفض خدمة الشبان الدروز فى الجيش الإسرائيلى تتزايد فى الآونة الأخيرة وتعمل بشكل مكشوف. وقد أقيمت «لجنة المبادرة الدرزية العربية» فى العام ١٩٧٢، وهى واحدة من ثلاثة تنظيمات تمارس نشاطات فى هذا المجال. كذلك تنشط فى هذا المجال حركة «المعروفيون الأحرار» التى أقيمت خلال الانتفاضة الأخيرة. وتأخذ الحركات المختلفة على نفسها مسئولية تغيير قانون

أبناء الطائفة الدرزية فى إسرائيل يشعرون أن خدمتهم فى الجيش الإسرائيلى، وهلاك المئات منهم فى الحروب التى خاضتها إسرائيل لم يقنع دائرة صنع القرار فى الدولة العبرية بإنصافهم ومساواتهم على الأقل باليهود الذين لا يخدمون فى الجيش الإسرائيلى، من أمثال أتباع التيار الدينى الأرثوذكسى

الخدمة العسكرية الإلزامية للدروز، الذى أصبح سارى المفعول فى العام ١٩٥٦، وتحويله إلى خدمة اختيارية. وحسب إحصاءات حركة «المعروفيون الأحرار» فإن عدد الرافضين للخدمة يتزايد بشكل مستمر، وقد سجل فى قرية البقيعة وحدها، ٧٠ رافضاً جديداً للخدمة العسكرية فى الشهرين الأخيرين، فقط. ويقول أحد الشبان الدروز الذى حصل مؤخراً على إعفاء من الخدمة العسكرية، ويدعى صقر نفاع وهو من سكان قرية بيت جن: «أرفض الخدمة العسكرية فى الجيش الإسرائيلى بدوافع قومية. إننى عربى فلسطينى وغير مستعد لأن أكون جزءاً من الإرهاب العسكرى الممارس على الفلسطينيين. كذلك لدى أقارب فى سوريا ولبنان وأنا أنتمى إليهم وجزء منهم». وتلقى صقر فى السنتين الأخيرتين أوامر بالمثول من أجل التجند للجيش فى دائرة التجنيد فى حيفا. ويقول صقر: «بعد سنة ونصف من إرسال الرسائل، أخبرتهم أننى غير معنى بتأدية الخدمة العسكرية. لقد أعطونى مهلة زمنية للتفكير، وحذرونى من أنه قد يتم اعتقالى إذا لم أتجند للجيش. لم أفكر مرتين، بل قمت بتسليم نفسى لأقرب محطة شرطة وسجنت خمس مرات، حيث بلغ عدد أيام السجن ٨٤ يوماً، خلال ستة أشهر». ويضيف صقر نفاع أن الكثيرين حاولوا إثناءه عن قراره، لكنه كان يرد عليهم بأن إسرائيل دولة عنصرية لا تعطى حقوقاً متساوية للأقلية العربية فيها. ويضيف أن السجن قوى عزيمته، فقد التقى بجنود ندموا على خدمتهم فى الجيش الإسرائيلى، فضلا عن تشجيعه من قبل رافضى الخدمة اليهود الذين مكثوا فى السجن، أيضاً. ويتابع صقر نفاع سرد حكايته قائلاً «بعد سجنى ٥٦ يوماً، قاموا بتحويلى إلى لجنة لفحص قضية رفضى تأدية الخدمة العسكرية. عندما أخبرتهم أننى عربى قبل كل شىء ولا أريد الخدمة فى الجيش، كان من الصعب عليهم تصديق ما سمعوا، وقالوا إنهم يعتبروننى درزياً. وقد طلبوا منى تقديم وثائق تثبت أننى عربى فأخبرتهم أنه لا توجد لدى وثائق كهذه، فأعادونى إلى السجن!!!!. واقتنعت لجنة الإعفاء فى نهاية الأمر أننى غير ملائم للخدمة فى الجيش وحصلت على إعفاء». ويقول والد نفاع الذى سبق له أن خدم فى جيش الاحتلال لمدة ثلاث سنوات «إننى فخور بولدى لأنه فعل ما لم أقدر أنا على فعله». ويضيف الأب أنه مقتنع تماماً بأن رفض الخدمة العسكرية من ناحية الدروز يختلف عن دوافعه لدى اليهود ويقول فى هذا الصدد: «رفضنا يأتى على خلفية قومية، فنحن فلسطينيون ولا نوافق على قتال أبناء الشعب الفلسطينى. رافضو الخدمة اليهود يرفضون أن يكونوا جزءاً من جيش يمارس القمع ضد شعب آخر. لكن ظاهرة رفض الخدمة لديهم عززت موقفنا». وقبل عامين عقد مؤتمر لرافضى الخدمة العسكرية الدروز فى قرية يركا فى الجليل، حضره ألف من مؤيدى رفض الخدمة العسكرية، بينهم أعضاء كنيست ورجال دين. وتم فى المؤتمر المذكور الذى نظمته «لجنة المبادرة العربية الدرزية»، جمع عشرة آلاف توقيع مؤيدة لرفض الخدمة. وتقول اللجنة الآن أن هذا العدد الآن أكبر بكثير. ومن ناحيته يؤكد نكد نكد أن «هناك عدداً لا بأس به من الشباب الدروز المستعدين لفعل أى شىء كى لا يخدموا فى الجيش. لقد تحول الكثير منهم إلى متدينين، حيث يعفى الذين يتفرغون للعبادة من الخدمة بالجيش، حاول بعضهم الانتحار، وتظاهر البعض الآخر بأنهم مجانين ليحصلوا على إعفاء. الكثير من الذين يرفضون الخدمة فى الجيش أو يتركونه يفعلون ذلك بدوافع اقتصادية أو ضميرية أو قومية، وبرأيى فإن هذه الظاهرة آخذة بالاتساع. ويضيف أنه «يوجد اليوم انفتاح أكبر فى المجتمع الدرزى تجاه رافضى الخدمة، إذ بدأ الأشخاص يفهمون أن الطائفة الدرزية تدفع بدمها ولا تحصل على شىء فى المقابل. الخدمة العسكرية فى الجيش الإسرائيلى جلبت للدروز العار. بعض الدروز فى الجولان وكذلك الفلسطينيين يقولون إن الدروز خائنون. سمعت هذه الكلمة التى تثير القشعريرة أكثر من مرة».

فى العام ٢٠٠٠، شارك مندوبون عن «المعروفيون الأحرار» فى مؤتمر فى العاصمة الأردنية، عمان، شارك فيه دروز من سوريا ولبنان. وقال حاتم حلبى، عضو اللجنة، من عسفيا: «لقد سمعنا تحفظات إخواننا فى سوريا ولبنان بشأن خدمة الدروز فى الجيش الإسرائيلى، فأوضحنا لهم أن الخدمة إلزامية». ونظراً لعنصرية مؤسسات القضاء فى الدولة العبرية، فإن قادة الحركات الوطنية فى أوساط الدروز، يدرسون فكرة التوجه إلى محكمة الدولية فى لاهاى، وإقحام المجتمع الدولى فى قضيتهم. ويشير حلبى إلى أن الدول فى العالم لا تلزم الأقليات فيها بالخدمة العسكرية، خاصة إذا كان القتال ضد شعبهم المحتل.

وسائل الإعلام الإسرائيلية تتواطأ مع الطبقة الحاكمة فى عدم تغطية رفض الخدمة فى صفوف الشبان الدروز، حتى لا تتسع الظاهرة أكثر. ويقول سعيد نفاع، رئيس حركة «المعروفيون الأحرار» إن «هناك تجاهلاً إعلامياً مطلقاً لظاهرة رفض الخدمة العسكرية فى المجتمع الدرزى».

إن الفلسطينيين العرب من أبناء الطائفة الدرزية يعيشون أزمة هوية، لعبت قيادتها التقليدية دوراً هاماً فى تفاقمها، لكن كل الشواهد تؤكد أن بوادر نهوض قومى ووطنى تنمو فى أوساط هؤلاء، بعدما ذاقوا ويلات وتبعات الولاء والانتماء المزيف للدولة العبرية. وقد أجاد خليل أسعد، وهو درزى ترقى فى المناصب فى الجيش الإسرائيلى حتى رتبة عميد، عندما قال «ما العمل فالدروز فى إسرائيل سيبقون عربا فى الحقوق يهودا فى الواجبات». ■



عبدالعليم الأبيض

تجليات العداء

■■ بداية يستخدم المؤلفان كلمة الاستغراب Occidentalism على عكس الاستشراق بمعنى الغرب فى عيون أعداء الغرب مثل المسلمين الأصوليين أو الراديكاليين الآن، ومثل اليابانيين والصينيين وغيرهم فى حقبة قريبة. ولا يقتصر استخدام المصطلح لدى المؤلفين على غير الغربيين بل يشمل روسيا وألمانيا فى مرحلة سابقة. يحاول المؤلفان نقض أصول الفكر المناهض للغرب بما فى ذلك الولايات المتحدة والذى يثير مشاعر الكراهية الشديدة لدى شعوب وجماعات متعددة ومتنوعة، ولا تقتصر هذه المشاعر العدائية على الحركات الإسلامية المتطرفة. بل نرى هذه المشاعر فى اليابان فى أوائل مراحل التحديث اليابانى فى عهد أسرة «الميجاى» (١٨٦٨ ، ١٩١٢) وحتى الحربين العالميتين الأولى والثانية. ونراها أيضاً فى ألمانيا فى فترة اجتياح نابليون بونابرت لأوروبا، وفى روسيا القيصرية والشيوعية كما نراها فى الصين وغيرها.

الكاتبان هما إيان بادوما الأستاذ بكلية بارد بالمملكة المتحدة وأفيشاى مارجليت أستاذ الفلسفة بالجامعة العبرية فى القدس. فى البداية يعبر الكاتبان عن حيرتهما بشأن أى نهج ينهجانه فى بحثهما. هل يقومان بتتبع أصول الظاهرة وارتباطاتها وتداخلاتها فى التاريخ بداية من عصر الإصلاح الدينى إلى الحركة المناهضة للتنوير فى أوروبا مروراً بالصور العديدة للفاشية والقومية الاشتراكية والحركات المناهضة للرأسمالية والعولمة وانتهاء بحركات التطرف الأصولية. فى نهاية المطاف يقرر الكاتبان التركيز على أهم روافد الظاهرة على مر العصور عوضاً عن اتباع نهج التسلسل التاريخى الزمنى لشيوع الظاهرة.

فى رأى المؤلفين ثمة روابط تشترك فيها ظاهرة العداء للغرب على اختلاف مصادرها، وتتمثل هذه الروابط فى العداء لفكرة المدينة الكبيرة باعتبار المدينة أو الحاضرة مصدر شرور كثيرة. المدينة وسكانها منزوعة الجذور ومثال للجشع والانحلال الخلقى والجنسى ومثال للتكبر والصلف. تتمثل هذه الروابط أيضاً فى فكرة العقلية الغربية التى تقوم على العلم والسلوك العقلانى المجرد من المشاعر والأخلاق والدين، وفى شدة العداء للرأسمالية والطبقة البورجوازية التى قامت الرأسمالية على فكرها وسلوكها وشرهها وتفضيلها لحياة السلم وبعدها عن المثالية وتسامى الروح والرابطة الأخيرة هى التطرف الدينى أو العقائدى الذى يسعى لسحق مملكة الكفر والوثنية وإقامة مدينة الله.

وقبل أن نستعرض هذه الروابط بين روافد أو وجوه العداء للغرب تجدر الإشارة إلى كتاب آخر يبدو أنه كان الدافع وراء كتاب الاستغراب. ونقصد كتاب الراحل الكبير إدوارد سعيد بعنوان: «الاستشراق» الذى يتعرض لكتابات المستشرقين الأوروبيين عن الشرق التى وضعت الأساس الفكرى، والتبريرى لمرحلة الاستعمار الكبير. ولا يصح أن نقارن بين الكتابين فكتاب إدوارد سعيد قد أحدث تموجات فكرية ضخمة على مستوى العالم ويعتبر من أهم ٢٠ كتاباً صدرت فى القرن العشرين. فكتاب سعيد يتميز بأصالة البحث وعمق التفكير. وليس هذا المجال للتعرض لكتاب الاستشراق الذى يجب أن يكون قراءة إجبارية على كل من يرغب فى الكتابة عن العلاقة بين الشرق والغرب. وهذا لا ينتقص من محاولة الكاتبين إثباته فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا. ولكن بداية نلاحظ أن الكاتبين قد بذلا جهداً فى تجميع الأفكار المتداولة عن أصول العداء للحضارة الغربية وفلسفاتها فى شقها الليبرالى الرأسمالى والذى يعتبره مفكر كبير مثل فرانسيس فوكوياما أنه نهاية المطاف خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى والانتشار السريع للفكر الليبرالى السياسى والاقتصادى فى العالم، وهو قول فيه كثير من الصحة.

الكتاب المعروض كتاب من القطع المتوسط (١٤٩ صفحة) يتتبع كما سبق الكلام أصول العداء للغرب، وإن كانت الفكرة الأساسية فى الكتاب هى محاولة إثبات أن العداء الإسلامى الأصولى للغرب ومنتجاته الفكرية هى ظاهرة غير مسبوقة فى التاريخ لا يمكن مقارنتها بأى حال من الأحوال بتجليات العداء للغرب فى الحضارات الأخرى. هذا وإن الكاتبين لم يجانبا الصواب عندما تعرضا لهوس المتطرفين الإسلاميين وتسلط فكرة الانحلال الجنسى والأخلاقى لدى الغربيين ورفضهم القاطع لأى نسبية فيما يتعلق بالأديان والحضارات. حيث ينظر المتطرفون إلى كل الديانات، ماعدا الإسلام، باعتبارها ديانات وثنية. وإن كانت بعض الطوائف الإنجيلية المعمدانية وجنوب الولايات المتحدة تنحو هذا المنحى وتنظر نظرة دونية إلى كل الأديان الأخرى عدا المسيحية وهو ما لم يتطرق إليه الكاتبان إلا بصورة عارضة جداً.

تجدر أيضاً ملاحظة الإهمال الشديد للمؤلفين لأثر الاستعمار الصهيونى لفلسطين فى سلوك وفكر الأصولية الإسلامية وخاصة فى فكر تنظيم القاعدة والجماعات الأخرى المشابهة.

ثمة ارتباط دائم بين حياة المدنية واليهود. أعداء المدنية يقدمون صورة للمدنية تلتهم بأنيابها البراقة سكان الريف، وهى صورة يبرز فيها اليهودى بشكل خاص

فكرة العداء للمدنية:

قبل الشروع فى طرح أفكار الكاتبين لهذه الظاهرة يجب أن ننوه أن الكاتبين محقان تماماً فى النظر إلى ظاهرة العداء للغرب لا باعتبارها صراعا بين حضارات بقدر ما هى ظاهرة عالمية أسهمت فيها تيارات فكرية كثيرة وإن كانت أوروبا هى المصدر الفكرى الأساسى للظاهرة. وفى بداية هذا الفصل الذى يتناول فكرة العداء للمدينة الكبيرة منزوعة الجذور ومصدر شرور كثيرة باقتباس من أسامة بن لادن بعد تدمير برجى مركز التجارة الدولى بنيويورك ومبنى وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاجون». وهو اقتباس يقول فيه بن لادن أن تدمير البرجين هو تدمير لقيم الحضارة الغربية بزعامة أمريكا إذ يرمز البرجان إلى قيم الحرية وحقوق الإنسان وقد تحولت إلى دخان.

وفى تأكيد للفكرة يشير المؤلفان إلى أن فكرة المدينة الآثمة هى من الأفكار القديمة إذ ترمز المدينة إلى بناء الإمبراطوريات وقيم الفردية والاستعلاء والتحدى للإله. وهذا ما كانت ترمز إليه مدينة بابل.

فبابل فى سفر الرؤيا هى أم العاهرات ومباءات الأرض. كانت بابل مثل مدينة فلورنسا فى القرن الرابع عشر ومدينة نيويورك الآن رمزًا لشهوة المال والجسد. ألم يعتقد الكثيرون فى العالم الإسلامى

Occidentalism: The West in the Eyes of Its Enemies
(الاستغراب: اغرب فى عيون أعدائه)
Ian Buruma & Avishai Margalit
Penguin Press 2004, PP165

أن «الموساد» وراء تدمير البرجين. أو لم يرد الاعتقاد بمؤامرات رأسمالية فى كتاب حكماء صهيون. أو لم تكن البلشفية من صنع اليهود. إن وصف المدينة الكبيرة كعاهرة ليس مجرد وصف للطبيعة الجنسية للمرأة. تلك الصورة المشبعة بالدنس لدى التطهيريين الإسلاميين من أمثال محمد عطا، الذى أوصى أن تغسل امرأة جسده بعد أن يموت، وأن يلبس مغسله قفازًا حتى لا يمس عورته بيده!

فالمدينة أيضًا وصف للمجتمع الذى تدور حياته حول التجارة، وكل شىء فيه للبيع. إنها صورة المدينة أيضًا عند الشاعر الرومانى جوفينال حيث ينعى حظ روما:

«المال الدنس كان وراء الانحلال الأخلاقى الذى أتى به الأجانب إلينا، ذلك الحال المخنث الذى دمرنا بالانغماس فى الملذات والشهوات».

المدينة لا روح لها، تمامًا كالعاهرة، جسد بلا روح.

ثمة أيضًا ارتباط دائم بين حياة المدنية واليهود. أعداء المدنية يقدمون صورة للمدنية تلتهم بأنيابها البراقة سكان الريف، وهى صورة يبرز فيها اليهودى بشكل خاص. أنظر إلى الشاعر تى. إس. إليوت يتحدث عن المدينة فى قصيدة من قصائده:

بيتى بيت سرى فيه العفن وفى عتبة الشباك يجلس اليهودى القرفصاء، أى أفرزته سفينة قديمة فى أنتورب وجرى ترقيعه فى بروكسل ثم.. قشر فى لندن.

وكارل ماركس الذى كان أبوه حاخامًا يحمل الازدراء الشديد لليهود الذين يعبدون مامون إله المال عند الإغريق أما المفكر الفرنسى بيير جوزيف برودوى فيعتبرهم: «أعداء الإنتاج بطبيعتهم، اليهود وسيط مزور ومزيف ومساوم فظ».

نشأ كره المدنية عند فلاسفة وأدباء أوروبا من الرومانسيين. كما نشأت معاداة الاستعمار. كانت العاصمة الاستعمارية مصدر الأفكار والخبرة الفنية والمبتكرات العلمية والإدارة ورجال الأعمال. وكان الرون مصدر العمالة الرخيصة وجنود المشاة، وقود الحروب. وكانت الدول الاستعمارية تؤمن بعبء الرجل الأبيض فى تحضير الشعوب الهمجية التى

للغرب



تحكمها. عارض الفلاسفة الألمان المثاليون هذه النظرة وعارضوا خطط فرنسا فى المجال الثقافى. وبالنسبة للألمان، وبالذات فى عهد نابليون، كانت فرنسا رمزًا للمدنية التوسعية التى تحركها العقلانية المزيفة. وذهب الفيلسوف جوتفريد فون هيردر بأن المجتمعات ما هى إلا كيانات عضوية لها روحها الخاص يعبر عنه أدبها وفلكلورها ولغتها وتبعث فيها الحياة.

لدى الرومانسيين اقترنت معارضته بما يمثله العقل الجانى بنظام التجارة الأوروبى الذى لا قلب له، هذا النظام الذى أتى بالهلاك على ثقافات القارة الأوروبية الدافئة. كان هيردر يؤمن بالتنوع الثقافى والثقافات الهجينة، وكان ينظر إلى سكان المناطق الاستوائية باعتبارهم «أولاد الطبيعة» الذين يحيون حياة بسيطة فى ظل ملوك وآلهة وحكماء مستبدين. وكان ضد الاستعمار.

والحقيقة أن انتقال الأفكار السياسية من أوروبا إلى رعاياها إلى الدول الخاضعة للاستعمار صاحبه أيضًا انتقال الأفكار الاقتصادية والاجتماعية. أما دول مثل اليابان التى لم تخضع للاستعمار فإن عليها تبنى بعض الأفكار الأوروبية لصد هجمات الاستعمار الأوروبى. ولكن ما هى تلك الأفكار التى انتقلت إلى هذه الشعوب، فى الأغلب لم تخرج هذه الأفكار عن تنويعات من العولمة المتوحشة، أو نقيضها البغيض: القومية المتطرفة أو فكرة النقاء الدينى.

تمثل الصين أيام ماوتسى تونج على نحو ممتاز هذا الصراع بين المدينة والقرية. تاريخيًا استند حكم أباطرة الصين إلى نظام كونى تحتل فيه الصين مركز العالم، ويحتل فيه عرش التنين المركز السياسى والروحى للإمبراطورية. فإن التحدى لهذا النظام هو الأفكار المستوردة من الغرب، وبالذات الفكر الليبرالى والحريات الفردية والمسيحية. وكان رفض هذه الأفكار هو فى الواقع دفاع عن احتكار السلطة للإمبراطور والحاشية الملكية لجأ مفكرو الصين إلى ما لجأ إليه المسلمون وغيرهم، أى الاستعارة على نحو انتقائى من الفكر الأوروبى، وخاصة فيما يتعلق بالسلاح والتكنولوجيا، والإبقاء على نظمهم الروحية والسياسية.

ولكن الأمور ليست بهذه البساطة. إذ أن الفصل بين نوعى المعرفة ليس بالأمر الهين، وغالبًا ما تسربت الأفكار الليبرالية والعقلية مع المعارف العملية. كانت المعضلة بالنسبة لرواد الإصلاح الراديكاليين هى كيفية التحديث دون التحول إلى مجرد نسخة من الغرب. وهل توجد وسيلة للتحديث مع استبعاد المسيحية والصور الأخرى لهذا التلوث الروحى؛ ولكن



كان وقع هذا المسألة أشد على العالم الإسلامى، إذ شعرت دول العالم الإسلامى بالمهانة والذل إزاء هذا التفوق الساحق للغرب، لذا كان من الأسهل على الصين والدول الإسلامية تبنى الأفكار الاشتراكية إذ تتحدث هذه الأفكار عن المساواة. وجربت هذه الأفكار فى مصر والعراق وكوريا وغيرها. ولكن أخفقت التجربة، ومع إخفاقها تولدت ألد المشاعر عداوة للغرب فى الدول الإسلامية.

يتجلى ذلك بوضوح عندما اجتاح الطالبان مدينة كابول. وبعد تسليط مدافعهم الثقيلة على المدينة بزعامة الملا محمد عمر الفلاح الأعور الذى تلفع بجلباب قيل أنه كان للرسول محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن نزع من أحد الأضرحة المقدسة، كان أول عمل قام به الطالبان بعد سقوط الحكم الماركسى هو تعذيب الرئيس نجيب الله بسحله بعد انتزاع خصيتيه ثم تعليق جثته على عمود إضاءة. كان هدف الطالبان هو إقامة مدينة الله فى كابول. ومن ثم حرمت الموسيقى وحبست النساء فى بيوتهن كما حرم التليفزيون وحرمت الموسيقى والأغانى وكرة القدم! ونشهد نفس الشىء تقريباً فى اجتياح الصرب للبوسنة ومدينتها المتحضرة الليبرالية المتسامحة، سرايـيفو، كان نيقولا كولجوفيتش المتخصص فى شكسبير وأستاذ الأدب الإنجليزى هو الذى تولى أمر إطلاق المدافع على هذه المدينة.

أبـــطـــال وتجـــارة

يبدأ المؤلفان هذا الفصل وهو الرافد الثانى لتجليات العداء للغرب باقتباس من جهادى أفغانى فى حديث مع صحفى أمريكى فى الأسبوع الأول من الحرب فى أفغانستان إذ قال: «إن الأمريكيين لن يكسبوا هذه الحرب، فهم يحبون البيبسى كولا، ونحن نعشق الموت».

ويعلق المؤلفان على ذلك بقولهما بأن صورة الغرب لدى المجاهدين الأفغان هى أن الغرب عبارة عن حضارة هشة وسقيمة يسودها الانحلال الخلقى والعربدة الجنسية. هذه النظرة غير مقتصرة على الجهاديين الأفغان، فقد كانت هذه الصورة موجودة لدى الطيارين اليابانيين قبيل الانتحار فى هجمات الكاما كازى. قبل

يعـــلق المؤلفـــان عـــلى ذلك بقولهمـــا بأن صـــورة الغـــرب لـــدى المجاهدين الأفغان هى أن الغرب عبارة عن حضارة هشـــة وسقيمة يســـودها الانحـــلال الخـلقى والعربدة الجنسـية

ارتطام أجسادهم بالسفن الأمريكية فى بيرل هاربور، كانوا يفتحون الراديو على محطة هونولولو التى تذيع موسيقى الجاز، رمز الانحلال الأمريكى.

عنوان هذا الفصل هو نفس عنوان كتاب الاقتصادى الألمانى الكبير فيريز سومبارت. فى ه[illegible] سومبارت الحرب [illegible] وفى رأيه أن إنجلترا وفرنسا يمثلان الحضارة الأوروبية وأفكار الثورة الفرنسية. أما ألمانيا فهى أمة من الأبطال دائماً على استعداد للتضحية بالنفس فى سبيل مثل عليا، على عكس إنجلترا وفرنسا وحذا حذوهما دول بورجوازية تنشد الحياة المريحة وتأنف من حياة البطولة والتضحية والفداء. والموت والفداء يقدمان التفوق الروحى على مبدأ اللذة والراحة والحياة الرغدة. يمثل هذا الفكر أيضاً المفكر الألمانى إرنست يونجر عندما يقول:

«إن كل اللذة تحيا داخل العقل كما تحيا كل مغامرة من خلال التصاقها بالموت الذى يحوم حولها. نقيض ذلك الثقافة البورجوازية وبالطبع، تكون الليبرالية هى الفكر المناسب للبرجوازية».

مثل هذا التفكير يعادى فكر البطولة والتضحية فى سبيل المثل العليا. وعلى الرغم من فساد هذا الرأى إلا أن فلاسفة الألمان كانوا من هذا الرأى ومن ثم اعتنقه العرب والمسلمون على النحو الذى نراه فى تفكير ساطع الحصرى ومفكرى حزب البعث بشقيه السورى والعراقى. كان هذا الفكر جذاباً لليابانيين. وكلنا يعرف نزوع اليابانيين للتضحية، الأمر الذى عبر عنه الجنود اليابانيون عندما كانوا يحولون أجسادهم إلى طوربيدات فى هجماتهم على الأسطول الأمريكى. لقد ثار كثير من المفكرين اليابانيين على فكر الحضارة الغربية وجشع الرأسمالية [illegible] وضحالة الثقافة [illegible]ز هذا الفكر لديهم تحت تأثير نيتشه وفيخت وماركس.

نلمس ذلك جلياً فى لغة أسامة بن لادن التى تحض أتباعه على الموت، كما نلمسه فى فكر الجماعات الأصولية الإسلامية بدءاً من جماعة الإخوان المسلمين إلى تنظيمات الجهاد وحزب الله وحماس وكل الحركات التى خرجت من عباءة الإخوان المسلمين. انظر إلى بن لادن وهو يقارن بين المقاتلين الأمريكيين والمقاتلين من أتباعه:

«المشكلة هى فى كيف تقنعون جنودكم لدخول القتال، بالنسبة لنا هى كيف نمنعهم من الاندفاع إلى دورهم فى الفداء».

بداية من القرن التاسع عشر فصاعداً عندما شرعت الصفوات الحاكمة فى مصر وأجزاء أخرى من العالم الإسلامى فى تبنى الأخذ بالأفكار الغربية فيما يتعلق بالقانون الوضعى والحكومة الدستورية ارتبط الغرب فى أذهان الكثيرين بعبادة المال. وأعلن الإخوان المسلمون الحرب المقدسة ضد حركات الإصلاح والتغريب وجند اليهود والمثقفون المصريون العلمانيين الذين أفسدتهم وكونتهم الحضارة الغربية وكان شعار الإخوان المسلمين وما يزال:

«الله مقصدنا، والقرآن دستورنا والرسول إمامنا، والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا».

الغرب كما يعرفه أعداؤه هو مصدر تهديد، لا لأنه يطرح نظاماً من القيم البديلة، ولكن لأنه يبشر بالنعيم المادى والحرية.

العـقـل الـغـربـى:

العقل الغربى فى عيون أعدائه هو نوع من البلاهة والتشويه الذهنى وإن كان له ملكة إتقان الرياضيات ولكنه عقل بلا روح. هو عقل يستطيع إنجاز أمور كثيرة، ويستطيع أن يحقق التفوق الاقتصادى والتكنولوجى ولكنه مقصور على تدبر الأمور الروحية وخاصة فيما يتعلق بفهم قدرة المسلمين على تحمل المصاعب والمعاناة ويتتبع المؤلفان هذا النوع من التفكير عند مفكرى الأفلاطونية الجديدة والفلاسفة الألمان من أمثال شيلر ونظرائهم فى روسيا القيصرية. لقد ساد هذا الفكر فى ألمانيا أثناء احتلال نابليون بونابرت لمعظم أوروبا. ويذهب المؤلفان أن الشعوب المحتلة تشعر بالمذلة والهوان، ويكون الخيار المتاح أمامهم هو الهروب إلى حياتهم الداخلية حيث يشعرون بالحرية والتخلص من فساد السلطة والحذلقة. ويحل الأدب والفلسفة محل المداولات السياسية. وكان هذا صحيحاً بالنسبة لألمانيا وروسيا فى القرن التاسع عشر حيث سادت أفكار تمجيد الروح لدى الرومانسيين فى حركة مناهضة لروح العقل وعصر التنوير، ومناهضة لفكرة التقدم الخطر للبشر. الفكر الرومانسى فكر متشائم دائماً، ينعى غربة الإنسان عن الله وعبادته لإله العقل الفاسد.

غـــضـــب الـــلـــه:

هذا هو الفصل الأخير من الكتاب وفيه يصل إلى بيت القصيد والهدف الذى سعى إلى توضيحه الكاتبان، إذ يفرقان بين الحروب التى تشن ضد الغرب باسم الروح الروسية أو العرق الألمانى أو الشيوعية ودين الدولة فى اليابان وبين العقيدة الدينية. الفريق الأول يحارب فى سبيل عرق أو عقيدة سياسية أو دينية. الفريق الأول يعمل على إقصاء الآخرين. الفريق الثانى يزعم شمولية فكره وأنه يقاتل فى سبيل

خلاص العالم بأسره. ثم إن هناك فرقا بين المناوئين للغرب العلمانيين والمناوئين الدينيين.

وهنا يصل الكاتبان إلى ما حاولا أن يثبتاه بطرق كثيرة، وهو أن التطرف الإسلامى يشكل الخطر الأكبر على الغرب.

الإسلام كعقيدة لم يتأثر كثيراً بالفكر الغربى، وهو يعتبر الحضارة الغربية كنوع من البربرية الوثنية وهو ما يمثل إسهاماً فريداً فى الفكر المعادى للغرب، بل إنه يتجاوز فكرة العداء. فالحضارة الغربية حضارة وثنية بعبادتها للمال وانغماسها فى الماديات، ومن ثم فإن على المؤمنين جميعاً فريضة سلوك كل السبل المتاحة للقضاء عليها.

وأصل فكرة الوثنية هى فكرة يهودية ولكن لأن اليهودية تمثل طائفة تحليلية غير تبشيرية، فهى لا تمثل خطراً كبيراً.

فى الانحلال يتم التعبير عن الوثنية

تأخذ الوثنية فى الديانتين المسيحية واليهودية صورتين: عبادة الإله الخطأ وهو ما يعد صورة من صور البغاء، أو عبادة الله على نحو خاطئ. فى الإسلام يختلف الأمر أشد الاختلاف. فأكبر الآثام والخطايا هى خطيئة الشرك بالله. ومن ثم فإن عبادة الغرب للمال هو شرك وجاهلية. ويشير المؤلفان فى هذا الفصل إلى سلسلة من المفكرين الإسلاميين ممن دعوا إلى إعلان الحرب على الحضارة الغربية والذى أسماها مفكر إيرانى «بالتلوث عن طريق التغريب» West Oxficaion فهناك السيد/ محمد طلقانى (١٩١٠ - ١٩٧٩) المفكر الإيرانى الذى ترك أثره على الفكر الإسلامى الثورى، والذى أول من ابتدع فكرة عيش الغرب فى جاهلية جديدة.

التى تخون زوجها باتخاذها عشيقاً غير الرب. ولعل هذا الاقتباس من سفر هوشيع، الإصحاح الثالث، يعبر عن هذا القصد أبلغ تعبير:

«وقال الرب لى اذهب أيضاً أحبب امرأة حبيبة صاحب وزانية كمحبة الرب لبنى إسرائيل. وهم ملتفتون إلى آلهة أخرى ومحبون لأقراص الزبيب.. فاشتريتها لنفسى بخمسة عشر شاقله فضية.. وقلت لها تقعدين أياماً كثيرة لا تزنى ولا تكونى لرجل آخر، وأنا كذلك...».

وأيضاً هذا الاقتباس من سفر حزقيال:

«.. وأخذت من ثيابك وزنيت على اسمك وسكبت زناك على كل عابر فكان له. وأخذت من ثيابك وصنعت لنفسك مرتفعات موشاه وزنيت عليها.. وأخذت أمتعة زينتك من ذهبى ومن فضتى التى أعطيتك، وصنعت لنفسك صور ذكور وزنيت بها ووضعت أمامها زيتى وبخورى وخبزى الذى أعطيتك.. فى كل رجاستك وزناك لم تذكرى أيام.. إذ كنت عريانة وعارية وكنت مدوسة بدمك. وكان بعد كل شرك، ويل، ويل لك، يقول السيد الرب.. فى رأس كل طريق بنيت مرتفعتك ورجست جمالك وفرجت لرجليك لكل عام وأكثرت زناك. وزنيت مع جيرانك بنى مصر الغلاظ اللحم وزدت فى زناك لإغاظتى».

وهناك سيد قطب المصرى الذى ذهب بالفكرة إلى آفاق التطرف والشطط الشديدين. بالنسبة لسيد قطب العالم أجمع، من القاهرة إلى نيويورك يعيش فى حالة من الجاهلية والغرب هو ماخور ضخم يتفشى فيه الانحلال وغياب الأخلاق. جاء سيد قطب بفكرة الحاكمية والتى استحدثت من أبو الأعلى المودودى الباكستانى، ولن تستقيم الأمور حتى يسود حكم الله على البسيطة كلها. ومن ثم فالموت فى سبيل الله هو أسمى الأمانى. وبداية أعلن سيد قطب الحرب على حكام مصر العلمانيين. ولا تقتصر الجاهلية عند سيد قطب على الغرب، بل تشمل الهنود واليابانيين وكل ديانة غير الإسلام، ثم يتعرض الكاتبان إلى الفكر الوهابى فى السعودية الذى صدرته السعودية إلى العالم الإسلامى والتى يعتبرانها الخطر الأكبر عبر العالم. وختاماً يطرح المؤلفان السؤال: كيف يواجه الغرب هذا الخطر؟ فالمسيحية الأصولية فى الولايات المتحدة تتحدث عن حرب صليبية، ولكن الغرب ليس فى حالة حرب مع الإسلام، فالحقيقة هى أن أشرس معارك التطرف الإسلامى ستدور رحاها فى العالم الإسلامى ذاته! حيث توجد الثورة وحيث يتحتم إيقافها تفضيلاً على أيدى المسلمين أنفسهم. ■

كتاب الزاوية

إصلاح الأوقاف

على مبارك

ثم إنه قد حصل من انضمام الأوقاف للمدارس مساعدة كل منهما للآخر مساعدة كلية، إذ صار التعليم فى المكاتب ملحوظًا بعين المدارس، فكان سيرهما فى التعليمات والتنبيهات والامتحانات السنوية وغيرها سواء، وتيسر لمن أكملوا دروسهم الابتدائية فى مكاتب الأوقاف والمكاتب الأهلية المنتظمة دخول المدرسة التجهيزية، والتدرج منها إلى المدارس العالية، وبذلك صار يؤخذ منهم بالرغبة والأهلية كل سنة عدد عديد، كما يؤخذ من تلامذة المدارس الابتدائية الأميرية؛ وأحيت المدار الأوقاف المندرسة وانتفعت بها.

وكم من أهل خير فى الزمن السابق كانوا قد أنشأوا مدارس بالمحروسة والإسكندرية وكثير من مدن القطر للتعليم والتربية حسبة لله تعالى، ووقفوا عليها أوقافًا خيرية جمة يصرف عليها ريعها، رغبة فى نشر العلوم، وعود الفوائد على عموم الناس، بل كثير منهم ألحق بذلك خزائن كتب شاملة لما يحتاج إليه فى التعليم، ولكن لسوء تصرف نظارها انحرفت عن الصراط المستقيم صراط الواقفين الراغبين فى الخيرات، وصار ما يسلم من الهدم والتخريب يستعمل أكثره فى أغراض أخرى، فحصل رجوع كثير من هذه العمائر إلى أصلها المقصود منها، والفائدة الموضوعة لها، وانضمت إلى ديوان الأوقاف العمومى، لتكون إدارتها تحت نظره مشمولة بمناظرة ديوان المعارف وترتيبه، فتخلص من أطماع النظار، وحصل رم (ترميم) ما احتاج إلى الإصلاح من المدارس ومن أوقافها التى يأتى منها الريع، وانتزع ما استولت عليه الأيدى من غير استحقاق، فانضبط أمرها وإيرادها.

دقـــات المســـرح..

صبري حافظ

انشغال مسرحيات مهرجان أفينيون الرسمية والهامشية أو التجريبية بالحرب يكشف لنا عما يؤرق الضمير الأوروبى وما يشغله من هواجس ملحة أو متكررة الأمر الذى يشكل مدخلا للتعرف على العقل الأوروبى المعاصر وما يهتم به من قضايا

لن اتحدث هذه المرة عن المناخ العام الذي يسود في هذا المهرجان الكبير، أو بالأحرى المهرجان الثامن والخمسين للمسرح في افينيون Festival 58 D'Avignon فقد سبق أن كتبت للقراء عنه. ولا عن العدد الضخم من المسرحيات التي ينطوي عليها برنامجاه الرسمي والهامشي. فلابد أن القارئ قد عرف الآن، وبعد عدة تقارير نشرتها عن هذا المهرجان المسرحي الكبير، أن أضخم مهرجان مسرحي في أوروبا لابد أن به مئات العروض والمسرحيات المختلفة، وأنه يغطي كل الأجناس المسرحية من مسرح الظل والدمى، إلى المسرح الإيمائي، والمسرح الموسيقي أو الراقص، إلى المسرح الدرامي بشقيه المأساوي والملهاوي. ولكني سأركز على عدد من التيمات التي تمحورت حولها مسرحيات عديدة. لأن التعرف على الموضوعات الملحة التي تتكرر في أكثر من مسرحية في هذا المهرجان تقدم للقارئ مدخلا للعقل الأوروبي المعاصر، ولما يهتم به من قضايا، وما يشغله من هواجس ملحة أو متكررة. وأول هذه القضايا وأهمها هي قضية الحرب التي تنشغل بها مسرحيات المهرجان الرسمي بقدر ما تنشغل بها مسرحيات المهرجان الهامشي أو التجريبي Avignon Off. وما يجعل هذا الانشغال بالحرب من الأمور الدالة أنه ليس الموضوع المطروح على أي من المهرجانين، ولكنه يكشف لنا عما يؤرق الضمير الأوروبي أو ما يتحسسه العقل الإبداعي، وهو يختار النصوص التي يعتبرها مناسبة للحظة، أو قادرة على إثارة اهتمام الجمهور.

Festival d'Avignon 2004
مهرجان أفينيون المسرحي،فرنسا، ٢٠٠٤.

لأن الشاغل الأساسي أو المحوري للمهرجان الرسمي هذا العام هو تقديم المسرح الألماني، وتعريف الجمهور بكل انجازاته المتنوعة في مجال العرض المسرحي. هذا بالإضافة إلى تسليط الضوء على كاتب ما، وتقديم عدد من التنويعات المهمة على ما في جعبة المسرح الأوروبي من إنجازات جديدة. وإذا بدأنا بالمسرح الألماني الذي جعله المهرجان محوره الأساسي سنجد أنه يقدم أربعة عروض مسرحية مختلفة - سنتوقف عندها بشيء من التفصيل - لنجم المسرح الألماني الصاعد توماس أوسترماير Thomas Ostermeier وهو مدير مسرح الشوبوهنا Schaubühne الشهير في برلين الغربية، بالمشاركة مع شاسا والتز Sasha Waltz. المديرة الثانية له. وقد قدم لها المهرجان في دورته السابقة عرضا من عروض الرقص الحركي الشهيرة، على ساحة الشرف بالقصر الباباوي، وجاءت هذه المرة ثانية ضمن المحور الألماني بعرض راقص آخر بعنوان (ارتجالات Impromptus). وإلى جانب مديري مسرح الشوبوهنا، وهو بالقطع أهم مسارح القسم الغربي من المانيا جلب المهرجان عرضا لفرانك كاستورف Frank Castorf بعنوان (كوكايين Cocaïne) وهو من أبرز مخرجي ما كان يعرف بألمانيا الشرقية، ومدير مسرح الفولكسبوهنا Volksbühne بها. وهو عرض يعتمد على التركيب البصري وفنون الفيديو والفنون البلاستيكية ويقدم لنا أوديسة فوضوية جديدة هي أوديسا المدمن التائه في سمادير الإدمان وشطحاته. الضائع في أدغال الواقع الحضري الجديد الذي جلبته الرأسمالية إلى القسم الشرقي الذي استمتع طويلا بضمانات اجتماعية للعمل والسكن والتعليم والصحة لم تعد متوفرة، وإن توفرت له حريات جديدة مثل الإدمان وتدمير الذات.

كما استجلب المهرجان عرضا آخر لرينيه بوليش René Pollesch المدير الفني لمسرح الفولكسبوهنا بعنوان (بابلو بتاع السوبرماركت Pablo au Supermarché Plus) الذي يستخدم هو الآخر لغة بصرية متطورة تعتمد على استخدام تقنيات السينما، والفيديو كليب والشاشات الضخمة ليجسد لنا طبيعة الحياة في ألمانيا العصرية التي يسيطر عليها سعار الاستهلاك، وتحيل حياة العاملين في السوبرماركات إلى جحيم تحاول الشخصيات قلب بنيته التراتبية واختراع استراتيجيات جديدة للتمرد واستقطار الحياة من قلب هذا الموات الآلي. ووسع المهرجان مفهومه للمسرح الألماني كي لا يقتصر على ألمانيا وحدها بشطريها الشرقي والغربي، وإنما يمتد إلى سويسرا الألمانية وذلك من خلال مسرح المخرج السويسري كريستوف مارتلر Christoph Marthaler مدير مسرح شوسبيلهاوس Schauspielhaus في زيورخ، الذي أتى بعرض بعنوان (تجذيرات: تنويع على الأمل Groundings: une variation de l'Espoir) يسعى إلى تقديم استقصاءاته الدرامية على أسباب انهيار شركة «سويس إير» التي كانت رمزا قوميا لسويسرا، ودقتها ونجاحاتها الاقتصادية، ويستفيد من تجربة المخرج نفسه الذي تعرض للتهديد بطرده من مسرح الشوسبيلهاوس، ليطرح تساؤلاته الدرامية حول منطق المؤسسة الرأسمالية، واستراتيجياتها غير الإنسانية التي تضع الربح قبل الإنسان، وحتى قبل القيم والأخلاق. ويعتقد المهرجان أن أي تقديم للمسرح الألماني سيكون ناقصا ما لم يقدم أثر هذا المسرح على المسرح الفرنسي المعاصر، ولذلك قدم عرضا للمخرج الفرنسي برنارد سوبيل Bernard Sobel الذي اكتشف مسرح برتولت بريخت الشهير «البرلينر إنسامبل» في الشهور الأخيرة من حياة بريخت. وتتلمذ عليه، وأصبح مخرجا فرنسيا له بصمته المتميزة والتي استفادت كثيرا من المسرح البريختي. ولذلك قدم له المهرجان هذا العام عرضه لمسرحية بريخت الشهيرة (الإنسان هو الإنسان) التي تتقصى قدرة الإنسان على إعادة ابتكار نفسه بعدما أخفق حلمه في اليوتوبيا والإنسان الجديد.

هذه البانوراما الكبيرة على المسرح الألماني جسدت لنا الكثير من إنجازاته

البارزة في الوقت الراهن، وكان أبرزها بالطبع إنجاز المخرج الألماني الشاب توماس أوسترماير الذي عرض له المهرجان أربع مسرحيات، كان أحدها هو العرض الذي اختير لافتتاح أكبر فضاءات المهرجان المسرحية، وهي ساحة الشرف بالقصر البابوي، وهو تأويله الإخراجي المتميز لمسرحية جورج بوشنر (١٨١٣-١٨٣٧) الشهيرة وآخر نصوصه (ڤويتزيك Woyzeck) التي تتسم ببنيتها المتشظية التي تعد سابقة لأوانها، وبقدرتها الرؤيوية على اختراق حجب المستقبل. وهي مسرحية سبق ترجمتها للعربية عدة مرات، ولذلك فلن ألخص أحداثها للقارئ الذي يستطيع العودة إليها في أكثر من ترجمة متاحة لها. وتتسم أعمال هذا المخرج المسرحي الشاب الذي لم يتعد الخامسة والثلاثين من العمر، ولكنه حقق شهرة واسعة في ألمانيا بسبب أعماله الإخراجية المتميزة. وبسبب قدرته على رؤية البعد المعاصر في الأعمال الكلاسيكية وتأويلها تأويلا عصريا. لأن أوسترماير يخبرنا في البرنامج الجيد الذي أعدته معه محطة «آرتي Arte» الألمانية الفرنسية المشتركة أنه تأثر بمنهج ستانسلافيسكس الأخراجي، وبميكانيكا المسرح عند ميرهولد، وبروح الفريق الجمعية عند آريان ميشكين. أي أنه ينحدر من أرومة مسرحية تجمع عددا من العناصر التي تمزج بين جماليات العمل المسرحي ودلالاته الاجتماعية والسياسية دون أن تسمح لأحد الجوانب بالطغيان على الأخرى. كما أنه يستفيد من تراث



المسرح الألماني الذي يهتم بالمسرح الشامل الذي تلعب فيه العناصر البصرية والحركية والسمعية أدوارا لاتقل أهمية عن دور الكلمة المكتوبة. حيث يمتزج فيه الرقص بالموسيقى بالغناء بالتمثيل.

فقد شاهدت له هذا العمل الافتتاحي لبوشنر، كما شاهدت له كذلك تأويله العصري لمسرحية هنريك إبسن الشهيرة (بيت الدمية Maison de Poupée) والذي قدمه بعنوان «نورا»، وهو بالطبع اسم البطلة الرئيسية لهذه المسرحية الشهيرة. وقد نقل المخرج مكان العرض الأول ليدور في واحدة من بلوكات المساكن الشعبية في أحراش المدينة وفي أكثر أحيائها عنفا وفقرا. حيث تسيطر على تصميم المشهد الدرامي أنبوبة المجاري العملاقة التي تصب قاذوراتها في بركة لايتورع أفراد العصابة عن السباحة في مياهها العطنة. كما تقع في خلفيته ثلاث شاشات كبيرة تعرض وسطاها صورة إعلان فج بغواياته، بينما تعرض على الشاشتين الباقيتين مشاهد ابراج المساكن الشعبية القبيحة في الأحياء الأوروبية. وتصاحب العرض موسيقى الراب الصاخبة. وكأن المخرج يؤسس عبر هذا مفردات عالم الغابة الحضرية المختلفة. حيث يمارس الجميع - الكبار منهم والصغار - حياتهم العادية في هذا المناخ الذي يتصاعد فيه كريشندو العنف باستمرار. وتتسم فيه الأحداث بقدر كبير من القسوة، ولا يصبح العري صادما أو جنسيا، بل نوعا من الإهانة الجارحة. وتصبح المسرحية كله بسبب جمالياتها الدرامية الراقية، درسا في قسوة الحياة في أحراش المدينة العصرية وأدغالها، حيث يتحول الفقر والإحباط إلى عنف عضوي، صوتي، حركي، موسيقي يستخدم حركات الراب في تجسيد هذا العنف وآليات الحياة القاسية بشكل فني راق. في هذا المناخ تقع شخصية «ڤويتزيك» المعذبة المنطوية تحت رحمة «فرانز» قائد عصابة شبان الحي مرة، والطبيب المجنون أخرى. ويبحث عن إنسانيته أو عن مخرج من هذا الواقع الذي تدور أحداثه تحت عيني أندراس صاحب دكان الحي، دون أن يحرك لها ساكنا، في علاقة حب مع «ماري». ولكنه هذا الحب لا يصمد لاستشراء العنف في هذا الواقع الفظ الخشن الفقير الذي يعد فيه العنف الوسيلة التعويضية الوحيدة المتاحة أمام أفراده المحبطين.

أما مسرحيته الثانية «نورا Nora»، فقد أختار أن يديرها في عالم المجلات النسائية المصقولة حيث ترفض نورا كوميديا النعيم الزوجي من أجل حريتها، واستقلالها، وتحققها كأمرأة متميزة. ويستخدم في هذه المسرحية نفس المفردات البصرية والحركية المتميزة التي توشك أن تكون من حيث جمالياتها البصرية واللونية النقيض الكامل لمناخ مسرحية (ڤويتزيك). وبالإضافة لهاتين المسرحيتين قدم مسرحية ثالثة هي (كونسير بالطلب Concert à la Carte)، ورابعة هي (خنازير الديسكو Disco Pigs). وبالرغم من أن هذه المسرحيات تبدو وكأنها غير مشغولة على الإطلاق بهاجس الحرب الذي انطلق من اضطراب أوروبا بسبب الحرب الأنجلوأمريكية على العراق، والذي يسفر عن نفسه بشكل كامل في أكثر من مسرحية، فإن موضوع الحرب والعنف ليس غائبا عنها، سواء أكانت الحرب الدائرة في أحراش المدينة، أو الحرب الاجتماعية الدائرة بين الجنسين منذ أغلقت «نورا» الباب خلفها في مسرحية (بيت الدمية). لكن الحرب بمعناها الحرفي قد أسفرت عن وجهها القبيح في إعداد بيبو ديلبونو الأوركسترالي لنص (هنري الخامس Henri V) لشكسبير الذي أحاله إلى قصيدة درامية طويلة تنعي جبروت القوة وغطرستها، وتدعو إلى الحاجة إلى عالم أكثر عدلا وعقلانية.

وإذا ما تركنا هذا المحور الذي دار حول المسرح الألماني، سنجد أن المهرجان يسلط الضوء على كاتب إيراني معاصر هو رضا باراهيني Reza Baraheni. استضافه مهرجان أفينيون باعتباره كاتب المهرجان في



دقات المسرح.. دقات الحرب!



هذا العام. ورضا باراهيني كاتب إيراني مخضرم تعرفت عليه منذ عدة سنوات في المؤتمرات السنوية لنادي القلم الدولي، والتي مثلت في بعضها نادي القلم المصري. وقد ولد رضا عام ١٩٣٥ في تبريز الواقعة في اقليم آذربيجان في غرب إيران، وأجبر على التخلي عن لغته الأم، وهي اللغة الأزارية أو الأذربيجانية إحدى اللهجات التركية المحظورة في إيران. وواصل دراسته في اللغة الفارسية، لكنه توجه بعدها إلى أسطنبول لدراسة الأدب المقارن حيث حصل على الدكتوراة فيه منها. وعاد للتدريس في جامعة طهران من ١٩٦٤ إلى ١٩٨٢، كما عمل خلال هذه الفترة أستاذا زائرا في عدد من الجامعات الأمريكية. وقد عانى من قمع كل من نظام الشاة والنظام الإسلامي في إيران من بعده، لأن الأول كان ضد نزعته التحررية، بينما كان الثاني ضد نزعته الحداثية. فقد كون جمعية للكتاب الإيرانيين منذ عام ١٩٦٧ وترأس هذه الجمعية منذ عام ١٩٩٣، كما كان من ضمن الموقعين على بيان الكتاب الإيرانيين ضد الرقابة الذي وقعه ١٣٤ كاتبا ونشر عام ١٩٩٦، وأضطر بعدها لترك أيران والإقامة في كندا منذ عام ١٩٩٨، حيث أصبح رئيس نادي القلم الكندي في تورنتو منذ ذلك التاريخ. ويكتب رضا الشعر والقصة والمسرحية والنقد الأدبي. وقد بدأ النشر في الفرنسية، أو بالأحرى ترجمت أعماله إليها منذ عام ٢٠٠٠. ففرنسا مولعة باكتشاف الكتاب من الثقافات المختلفة وتقديمهم إلى جمهورها العريض، لأنها تعي أن لها دورا في تخليق المكانات داخل ما تدعوه باسكال كازانوفا «جمهورية الأدب العالمية»، وفي وضع هذه المكانات على خريطة الاهتمام الغربي العام.

ولا أدري إذا ما كان الاهتمام برضا باراهيني في هذه الدورة من المهرجان نوعا من طرحه كاسم محتمل للفوز بجائزة نوبل للآداب أم لا. لأن هذا أيضا ما فعله المهرجان عام ٢٠٠٠ للكاتب الصيني جاو زينغجيان الذي فاز بجائزة نوبل عام ٢٠٠١. حيث يقدم المهرجان الرسمي لرضا باراهيني أربعة عروض ثلاثة منها تتركز حول شخصه ككاتب، وهو أمر نادر الحدوث عادة في هذا المهرجان. وهي عروض (قصاقيص: ثلاثة دروس في الشعر QesKes: Trois Leçons de Poétique) وهي ثلاثة عروض مختلفة تحمل نفس الإسم ولكن لكل منها رقم من (قصاقيص ١) إلى (قصاقيص ٣). شاهدت أحدها فأغناني عن مشاهدة الباقيين، وإن أثار في نفسي هذا التساؤل حول دور الثقافة الفرنسية في ابراز الكتاب الأجانب ووضعهم في ساحة الأدب الدولية. والواقع أن العرض الوحيد الذي شاهدته من (قصاقيص) هو أقرب إلى القراءة الشعرية أو الأدبية المسرحة منه إلى المسرح الحقيقي. حيث يجلس الكاتب في المنتصف على خشبة المسرح، ويحيط به أربعة قراء آخرين يحيلون القراءة باللغة الفارسية والترجمة إلى نوع من التوزيع الأوركسترالي الجيد والمشوق. صحيح أن لهذه السهرة المسرحية التي امتدت لساعة وربع موضوعا واحدا هو موقف الكاتب من اللغة، اللغة الأم واللغة كأم، وولعه بكتابة التشظي والتفتت، وإشاراته إلى الكتاب الذين كانوا مصادر إلهامه من جيمس جويس ولوي بورخيز إلى مولانا جلال الدين الرومي وصادق عنايات. أو تناوله لما يدعوه قطع الحبل السري بينه وبين الميتافيزيقا، وبداية الكتابة الرؤيوية التي تكتب التاريخ من داخل التاريخ كما تكتب (ألف ليلة وليلة) القص من داخل القص، أو حديثه عن (ألف ليلة وليلة) التي استوحى منها روايته الأولى والتي قدم قراءات منها، وهو حديث فيه الكثير من الخلط والتخليط. أو عن استعادة دور الشاعر الحكواتي الذي يتحدث عن كل شيء: عن الشعر والموت والمرأة والحب والحرب. إلا أنه يمس كل هذه الموضوعات مسا خفيفا لا يبرر ثمن التذكرة المرتفع الذي يعادل ١٧ جنيها أسترلينيا (٢٣ يورو).

أما العمل الرابع الذي قدمه المهرجان له فهو مسرحية (في الجحيم En Enfer) التي كانت من أجمل المسرحيات التي شاهدتها في هذا المهرجان، ومن أكثرها جدة وأصالة. فقد كان أول كتب رضا باراهيني التي ترجمت للفرنسية هو (فصول في الجحيم لأياز الصغير Les Saisons en Enfer du Jeune Ayyaz) الذي أخذت عنه هذه المسرحية (في الجحيم) وتم إعدادها للمسرح بالتعاون مع مخرج العرض تيري بيدار Thierry Bedard الذي سبق له أن أعد نصوصا عديدة لكتاب عانوا من القمع أو الاضطهاد ضمن فعاليات البرلمان العالمي للكتاب، قبل أن تحل هذه المنظمة الأدبية المهمة في العام الماضي ٢٠٠٣ بسبب معارضة الولايات المتحدة الأمريكية لنشاطاتها التي كانت تقدم للكتاب منبرا اتسم بمواقفه النقدية للسياسات الأمريكية في العالم، وخاصة بعدما أوفد هذا المهرجان عددا من الكتاب المرموقين عالميا وفي مقدمتهم اثنان من الحاصلين على جائزة نوبل ـ وهما ساراماجو البرتغالي وسوينكا الأفريقي ـ للأرض الفلسطينية المحتلة، وكتبوا بعد زيارتهم لها ضد وحشية الاحتلال الصهيوني وفظاعاته. بعد هذه المقدمة التي طالت قليلا عن كاتب العرض ومخرجه، ولكنها ضرورية للتعرف على خلفياته، علينا التوقف عند هذا العرض المسرحي المتميز الذي يعد فيه الشكل المسرحي جزءا أساسيا من المحتوى الفكري والدرامي للعمل. لأن هذا العمل الذي لم يكتب أساسا للمسرح، وإنما كتب كنص شعري عن معاناة معتقل سياسي عانى من التعذيب المروع الذي تفنن فيه زبانية السافاك أزاء حكم الشاة الذي كان مدعوما من أمريكا والعدو الصهيوني معا. لكن العرض المسرحي يجرد النص من أي سياق تاريخي، ويجعله تجسيدا لوضع إنساني مطلق يمكن أن يحدث في أي بلد في العالم، وخاصة بلدان العالم الثالث التي تحاصر فيه الحريات، بما في ذلك الجولاج الأمريكي الجديد الممتد من جوانتانامو حتى قاعدة باجرام الأمريكية في أفغانستان. كما استطاع المخرج الفرنسي أن يمنح هذا النص شكلا دراميا جديدا ودالا، بل يوشك هذا الشكل أن يكون إضافة إبداعية خلاقة للعمل، ما كان له أن يحقق دراميته المؤثرة بدونها.

لأن المخرج اتبع سياسة إخراجية متميزة تتحكم في كل عناصر العمل والتلقي معا. فقد أخبرنا شباك التذاكر أن الدخول للمسرح لن يكون إلا في آخر لحظة، أي في الوقت المحدد للعرض بدقة، وليس قبله حيث يترك للمشاهدين عادة دخول المسرح والجلوس في مقاعدهم والثرثرة معا حتى يبدأ العرض. وحينما فتحت أبواب المسرح، وسمح للجمهور بالدخول إليه، ظلت أبوابه مغلقة، حتى تجمع كل الجمهور في الردهة الداخلية، ثم اقتيد في جماعات إلى ما يشبه الغرف أو الزنازين المصنوعة من حيطان مكونة من بطانيات معلقة بمشابك، وما ان تمتلئ غرفة حتى يؤخذ الباقون إلى غرفة أخرى. ولم يعرف المشاهدون حقيقة تركيب المسرح، ولا كل ما يدور فيه إلا في النهاية. حينما تسقط كل البطاطين وتتكشف المساحة المسرحية كلها أمامنا في نهاية العرض، لنكتشف أنه مكون من أربع غرف كل غرفتين تعكسان بعضهما البعض وكأن أحدهما صورة للأخرى في المرآة. لأن في كل غرفة ثلاثة صفوف من الدكك الخشبية التي تتسع لما يقرب من ستين مشاهدا، وأمامها مائدة ودكتان تشكلان المسرح الذي كان عليه ممثل يرتدي قميصا أسود وبنطلونا أسود. وكان يئن ويصدر بعض الأصوات التي تتجاوب مع أصوات أخرى. ثم بدأ في الحديث، وكنت تسمع بعد بداية جملته بثوان نفس الجملة تصدر عن الممثل الذي يقوم بنفس الدور في الغرفة المجاورة. حيث ثمة ممثل آخر، يوجه جمهورا مماثلا، وظهره لظهر الممثل الذي يواجهك، ويقوم بتجسيد النص نفسه لهم. وقد زود المخرج كل ممثل بسماعة صغيرة في أذنه، فكان يوجه بها الممثلين بحيث يقوم كل ممثل بدور القائد، أي الذي يبدأ الجملة قبل الآخرين، في فترة محددة من العرض، ثم يقوم بهذا الدور ممثل آخر، بحيث يبدو الباقون وكأنهم يرجعون أصداء ما يقول. وهكذا باستمرار، في جو مسكون بأصداء الألم والخوف والتوقع والعذاب. يعرفه جيدا من تعرض للسجن وعانى من الأصوات التي تصدر عن الزنازين المجاورة قدر معاناته من التعذيب وزبانيته. لأن النص نفسه هو نص عن تعذيب مسجون يتمسك برأيه وبما يوقن أنه الحق، بتقطيع أطرافه واحدا إثر الآخر، ثم بسمل عينيه، وأخيرا بقطع لسانه، أي حرمانه من اللغة التي كانت أداته ليقض مضاجع من سجنوه.

وإذا كان المسرح قد استطاع أن يخلق المعادل الدرامي للمعتقل السياسي المسكون بأصوات التعذيب واسترابات

توقعه في أي لحظة، فإن المسرحية لاتكتفي بهذا الجانب وحده، ولكنها تقدم لنا وقع هذا التعذيب على النساء اللواتي تركهن المعتقلون وراءهم. لأن بين كل غرفتين هناك صفين من الدكك استخدما فيما بعد حينما كانت بعض البطاطين تزاح لنجد ممثلتين ترتديان نفس الملابس السوداء المكونة من بلوزة وبنطلون أسود، وتمارسان نوعا من التمثيل الإيمائي الصامت الذي يجسد صنوفا مختلفة من الجدل والمعاناة الجسدية، التي تشكل وقع هذا كله على المرأة. وحينما ينتهي التعذيب بقطع الألسنة، ويتحول الصوت إلى نشيج وفحيح تسقط كل البطاطين لنكتشف أن الجمهور يواجه جمهورا آخر يتفرج على مأساة مماثلة. وأنه بشكل من الأشكال مسئولا في نظر الجمهور المواجه عما دار، ولو بالصمت والتواطؤ. وليتحول التأثير الصاعق للعمل إلى نوع من إعادة التفكير فيما يدور في هذا العالم المكتظ بالتعذيب لافرق في ذلك بين دول ديكتاتورية يحمي تسلطها بالقمع والتعذيب، ودول تدعي الديموقراطية مثل الولايات المتحدة الأمريكية التي تعرف الآن أنها والغة في وحول التعذيب في جولاجها الممتد من جوانتانامو حتى أفغانستان والعراق.

مسرحية (جوانتانامور Guantanamour) لجيرار جيلاس التي سبق أن أعدها كاتبها على عجل لمهرجان عام ٢٠٠٢، ولكنه أعاد كتابتها من جديد لهذا المهرجان وأنضجها وركزها وكثف مقولاتها ورؤاها. لأنها تدور في الحاضر الراهن بعد احتلال العراق، وبعد تكشف المزيد من الحقائق عن الجولاج الأمريكي البشع الذي يمتد لأكثر من أربعة عشر بلدا، وتتعدد فيه السجون التي تنتهك فيها القوانين الدولية وقوانين حقوق الإنسان. وتتم في هذه المسرحية المواجهة بين مغربي متهم بالانتماء للقاعدة وبين محققه الذي يكتشف بالتدريج طبيعة «الإنسانية» الأمريكية وبنية القهر والعنف السارية فيها. حتى العلاقة بين الرجل والمرأة، تقدمها مسرحية إلسا سولال بعنوان (الحرب الأخرى LAutre-Guerre) وترى فيها نوعا آخر من الحروب التي ظلت دائرة على مدى الأجيال دون أن تتوصل البشرية إلى حل مقنع لها. أو عن (آدم وحواء والهبوط Adam, Eve et Descendance) لباسكال بانكو على أن هذا الهبوط من الفردوس إلى الأرض كان هبوطا من حالة السلام إلى حالة الحرب.

جانب مهم آخر هو الذاكرة الثقافية التي تولع الثقافة الغربية عموما بالحفاظ عليها حية وفاعلة في حاضرها. فعلى العكس من ثقافتنا العربية التي تعاني من فقدان الذاكرة التاريخية منها والثقافية على السواء، فإن الثقافة الغربية مولعة بالحوار الدائم مع ماضيها، وبإنعاش ذاكرتها المستمر.

لذلك نجد هناك (La Baronne et la Truie) التي تدير حوارها مع رؤى جان جاك روسو أحد كتاب الاستنارة الفرنسية المرموقين. و(La Vulpius) التي تدير حوارها مع كريستين، بطلة جوته الغيورة، أو العديد من المسرحيات التي تحاور كوميديات جورج فيدو المختلفة أو روايات روبرت لويس ستيفينسون من (جزيرة الكنز) إلى (فاليسا) التي تدور مغامراتها في المحيط الهادئ، والتي كانت أول تناول للعلاقة بين الشمال والجنوب.

المراجعة الدائمة لتاريخ أوروبا الديني أو حتى إعادة تقديم الام السيد المسيح بطريقة عصرية كما في (Le Grand Braque) أو إعادة كتابة قصة أيوب والامه في (La Nouvelle Hostoire de Job) أو قصة فرانسوا الأسيسي في (Francois d'Assise) من القرن الرابع عشر لفرانسوا أجنيللو الكاتب الذي يهتم بتحويل المسرح إلى أداة لإعادة الجمهور إلى حظيرة الكنيسة، ومن هنا فإنه يستخدم كنيسة «سان لويس، الصغيرة الجميلة من حيث تصميمها المعماري البسيط في وسط أفينيون ويحولها إلى مسرح يقدم فيه مسرحيتيه، بالإضافة إلى مسرحته



لكتاب (النبي) الشهير لجبران خليل جبران. ومسرحيته الأولى في هذا المجال والتي سبق أن قدمتها للقراء في دورة مهرجان عام ٢٠٠٢ هي مسرحية القديس فرانسي الأسيسي، وهو الراهب المسيحي الذي تمرد على ثراء الكنيسة وبذخها المناهض لجوهر الفكرة المسيحية في تصوره، وأراد أن يعيد للمسيحية تقشفها الأول باعتبارها الديانة التي جاءت لتنصف الفقراء، والذي أسس رهبنة الفرانسيسكان الشهيرة. ويقدم في دورة هذا المهرجان ٢٠٠٤ شخصية كاترين السينية في مسرحية جديدة هي (كاترين السينية Catherine de Sienne) وهي راهبة إيطالية من سينا ولدت عام ١٣٤٧ وكانت امرأة من عامة الشعب تدعى كاترين بينيكاسا، ولكن تدينها الشديد منذ شبابها زودها بعدد من القدرات الخارقة على شفاء المرضى، وهداية الضالين، وإصلاح ما بين الأطراف المتصارعة في المدينة. ولعبت دورا مرموقا في توحيد الكنيسة أثناء فترة من فترات تاريخها العصيبة،وذلك من خلال أقناع البابا في التخلي عن مقره الباذخ في أفينون والانتقال إلى روما من أجل توحيد الكنيسة الكاثوليكية التي كانت على وشك الانشقاق. وقد ماتت كاترين وهي في الثالثة والثلاثين من عمرها، وقد استحوذت شخصيتها على اهتمام الكاتب «فرانسيسكو أجنيللو» ودفعته لاستقصاء قدراتها الدبلوماسية الخارقة، وهي شخصية بسيطة من عامة الشعب، ولكنها تتمتع بتلك القدرة الروحية على تجاوز السياق الذي وجدت نفسها فيه. بحيث لعبت دورا تاريخيا فريدا يفوق مؤهلاتها بشكل كبير. لذلك قام بتحويل قصتها إلى عمل مسرحي باعتبارها نموذجا فريدا لدور المرأة الديني في العصور الوسطى. وقد شاهدت هذه المرة مسرحيته الثانية تلك، والتي تحاول أن تعيد تأسيس تاريخ الكنيسة بالصورة التي تضع فيها المرأة في مكان محوري غير مسبوق في تواريخها المكتوبة. ذلك لأن المسرحية التي تعتمد على شخصية كاترين التاريخية تقدم لها هذه المرأة التي تمتلك تلك القدرات النورانية الفائقة والتي تزودها بطاقة داخلية جبارة تجعلها قادرة على إقناع البابا، بقدر قدرتها على شفاء المرضى أو هداية الضالين والحمقى. واعتمدت دراميا على شخصية هذه المرأة وحدها التي تحكي لنا قصتها، وتقدم لنا في الوقت نفسه وحدها تجسيدا دراميا لمختلف المواقف التي وجدت نفسها فيها في مواجهة مع جبروت الكنيسة. ولا يصاحبها في هذا كله إلا شخص واحد يلعب على مجموعة من الآلات الموسيقية التي تخلق مناخا مصاحبا لما تسرده علينا دراميا أو تجسده أمامنا على خشبة المسرح المنصوبة وسط هذه الكنيسة الصغيرة الجميلة.

ناهيك عن الحوار مع المسرحيات التي دخلت الضمير المسرحي الأوروبي، سواء مسرحيات شكسبير وراسين وموليير وجورج فيدو المختلفة، أو (خادمات) جان جينيه، و(خطاب حب مثل تعذيب صيني) لفرديناند آرابال. و(العرس Noce) لجان لوك لاجراس.

وهناك تلك النزعة النسوية لإعادة كتابة التاريخ الأوروبي وتصحيح تحيزاته الدائمة ضد المرأة مثل (Camille Claudell, etre Matier).

وهناك مسرحيات تستلهم الأعمال الفنية، اثنان منهما عن فرانسيس بيكون، أولهما بعنوان (أنا وفرانسيس بيكون وجانين: لوحة ثلاثية)

وواحدة عن لوحة بيكاسو الشهيرة «جيرنيكا» بعنوان استمعوا لجرنيكا (Ecoute Guernica)

المسرحيات العربية في هذا المهرجان كثيرة، من (الفرابيل La Frabyle) للطيب بلميهوب التي تتناول التوتر بين الثقافتين العربية والغربية، وصعوبة تقبل إحداهما للأخرى، وفقدان التسامح والعنف الناجم عن هذا كله. وتحاول التغلب على هذا كله من خلال البعد الإنساني العام والارتفاع فوق الخصوصيات إلى الإنسانيات.

مسرحية (كسكس بلحم الخنزير المدخن) لفريد بن عمري هي مسرحية كوميدية ساخرة عن التوتر الثقافي والاجتماعي بين الثقافتين العربية والفرنسية في المجتمع الفرنسي. وعن دور الثقافة في صياغة سلوكنا، والتحكم في توقعاتنا في المواقف المختلفة. فهي مسرحية عن العلاقة بين «رشيد بوجمعة» العربي

مسرحية (كسكس بلحم الخنزير المدخن) لفريد بن عمري هي مسرحية كوميدية ساخرة عن التوتر الثقافي والاجتماعي بين الثقافتين العربية والفرنسية في المجتمع الفرنسي



دقات المسرح.. دقات الحرب!

الأصل، و«ماري صوفي بلانشار» الفرنسية، فقد تلاقيا وتحابا، وقررا الزواج. ومن مشهد هذا القرار الأول تبدأ المسرحية في طرح التوتر الثقافي والتوقعات المحبطة، ودورهما في إسعاد الإنسان أو إشقائه. وتبدأ منذ المشهد الأول في بلورة منهجها الدرامي الذي يستقطر الضحك من خلال التجاور بين هذه التوقعات مرة أو بين السلوكيات والتصرفات المختلفة أخرى. لأن «ماري صوفي» برغم تغلبها على كل التصورات المسبقة عن العرب في ثقافتها، ووقوعها في غرام «رشيد»، وقبولها الزواج منه، لاتستسيغ طلبه الزواج منها بالطريقة العربية البسيطة. لأنها تحلم ككل البنات الفرنسيات بأن يكون طلب حبيبها الزواج منها ذروة العلاقة الرومانسية بينهما، وأن يكون لحظة العمر التي لايمكن نسيانها في المستقبل. وتتهمه بأنه يطلب منها الزواج، وكأنه يطلب «بيتزا» من نادل في مطعم. فيقرر أن يقوم بالدور الرومانسي المرسوم، الذي يعرفه العربي الذي يعيش في فرنسا حق المعرفة. لأن المسرحية تكشف لنا عن أن ابن الثقافة الأخرى يعرف ثقافته وثقافة الآخر، ولكن الآخر ابن الثقافة السائدة والمسيطرة لايعرف الكثير عن ثقافة الآخر، حتى ولو توفرت لديه حسن النية التي تصل هنا إلى أقصى درجاتها، الا وهي القبول بالزواج منه. ويقوم «رشيد» بالدور الرومانسي التقليدي، ويردد كلماته المحفوظة بشكل تهكمي، لأنه لا يستطيع أن يمضي في لعبة الإدعاء الثقافي حتى نهاية الشوط دون أن ينفجر ضاحكا من نفسه ومن الموقف معا.

وما أن يقررا الزواج، ويدخلا في كل التفاصيل الاجتماعية التي تشرك بقية العناصر الاجتماعية في الموقف، حتى يبدأ التوتر الثقافي في السفور عن وجوهه الاجتماعية والدينية والثقافية المختلفة. فبقدر ما تفاجأ أسرته بأنه ينوي الزواج من فرنسية، تفاجأ أسرتها بأنها تعتزم الزواج من عربي. وبقدر ما يحتج على طلبها أن يكون حفل الزواج في أحد المطاعم الفرنسية التي تخصصت في إعداد مثل هذه الحفلات وما يقدم فيها من «شمبانيا» وطعام، لايكلف سوى مئة يورو للشخص الواحد. باعتبار هذا الأمر نوعا من الإسراف الذي لاطاقة له على تحمل تكاليفه الباهظة، ولأن ثقافته لا توافق على تقديم الخمور، بالرغم من أنه يشرب النبيذ معها. تحتج هي الأخرى على اقتراحه أن تقوم أمه بطهي «كسكس» يكفي لمائة مدعو. ومن هنا جاء عنوان المسرحية «كسكس بلحم الخنزير» لأنها تسخر من عدم تضمن الكسكس «للاردون» وهو لحم الخنزير المدخن. وترد على احتجاجه على «الشمبانيا» التي لاتتصور فرحها بدونها، بأنها ستقدم «شمبانيا» حلال، وستوصي النادل بأن يوجه الزجاجة صوب مكة قبل أن يفتحها. لكن الحب ـ كما يقولون يتغلب على كل الصعاب. وتتم مراسيم الزواج المدني بينهما في مكتب لايستطيع فيه من يقوم بهذه المراسيم نطق اسم «رشيد بوجمعة» ويتعثر فيه أكثر من مرة، بينما ينزلق اسم «ماري صوفي بلانشار» من على لسانه بسهولة ويسر. والواقع أن المسرحية قد وفقت في اختيار اسماء شخصياتها، لأنه إذا كان اسم عائلة «ماري صوفي بلانشار» هو اسم فرنسي خالص، فإنه يلعب على دلالة اسم «بلانشار» المستقى من كلمة بلانش الفرنسية التي تعني البيضاء، أي الأوروبية. بينما اسم «بوجمعة» الذي سيصبح اسمها العائلي بعد الزواج يشير هو الآخر إلى دلالة يوم الجمعة في الثقافة العربية الإسلامية، وإلى ما تنطوي عليه هذه الدلالة من صراع مضمر مع الثقافة الأوروبية البيضاء.

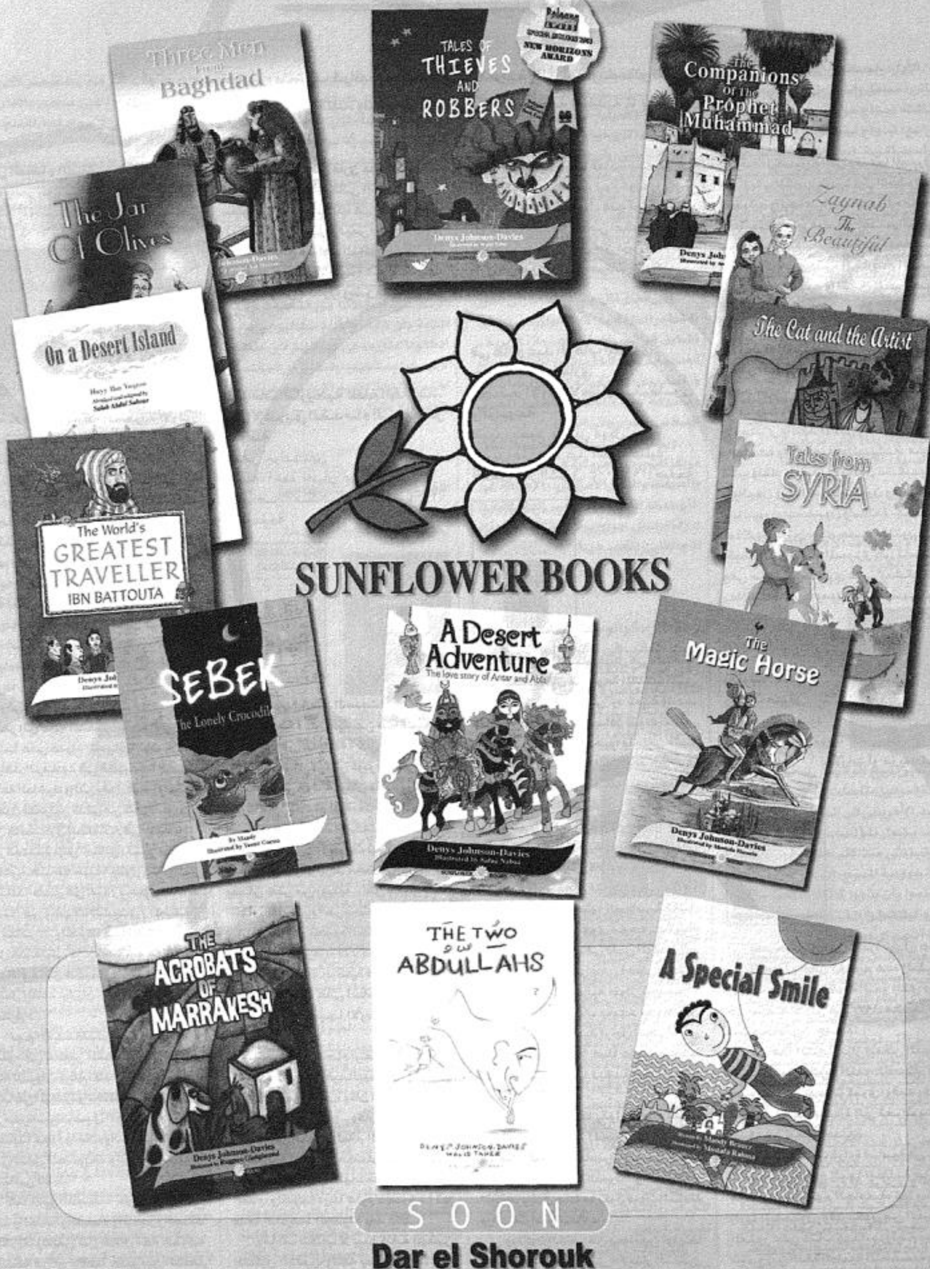
ويمضي الزواج، وتبدأ علاقات الزوجين مع الحماوات، ومع الثقافة الأخرى في عدد من المواقف الساخرة التي تزود المسرحية ببعد إنساني واضح، وبقدرة متميزة على استقطار الضحك من أكثر المواقف عبثية وإيلاما. وقد اهتمت المسرحية بأن تتعاطف بشكل عميق مع منظور الثقافتين، وهذا ما جعل سخريتها من النوع الناجع الذي يلمس شغاف الخلاف والتوتر الثقافي الراهن في المجتمع الفرنسي، دون أن يتجنى على أي من جانبيه. فحينما تبلغ «ماري صوفي» زوجها «رشيد» أنها قد حملت يتصور أو بالأحرى يتمنى أن يكون الحمل ولدا، مما يضير «ماري صوفي»، كما أنه يسارع بإعلان الخبر السعيد على كل أفراد أسرته الذين يفرحون له، ولما تحاول «ماري صوفي» أن تبلغ أمها، بعد مشاجرة معه لأن أسرته تقدم التليفون لكل فرد ليتكلم معه ويهنئه، مما يعوق محاولتها هي الأخرى لإبلاغ أمها، ينهي مكالمته غاضبا، فتكلم أمها التي تخبرها ببرود أوروبي ملحوظ أنها مشغولة الآن، ويمكنها أن تتحدث معها فيما بعد بشيء من التطويل مما يصيبها بخيبة أمل كبيرة، خاصة وقد تم التجاور الدرامي بين استجابة أسرة «رشيد» للخبر السعيد واستجابة أمها الباردة أو غير المبالية به. وعندما تلد «ماري صوفي» بنتا، يبدأ خلاف من نوع آخر على ديانة البنت: أهي الإسلام كما يقضي بذلك شرع الأب، أم الكاثوليكية كما تقتضي شريعة الأم. وتلجأ المسرحية إلى الحل الأغريقي الشهير المعروف بـ «الإله في الآلة» الذي يتكلم عبره الرب ليحل الموقف بأن يعلن أنها كاثلمة لا كاثوليكية ولا مسلمة، وإنما كاثولمة مما يثير الكثير من الضحك، ولكن شر البلية ما يضحك كما يقول المثل.

على نفس اللحن يعزف عرض الممثل الواحد One Man Show الذي قام به سامي توزاني والذي لاقى نجاحا كبيرا في بلجيكا حيث عرض لأكثر من مائتي مرة. ويلعب مؤلف العرض ومؤديه على اسم عرض الممثل الواحد الانجليزي، ليجعل اسم عرضه بالانجليزية (عرض إنساني واحد One Human Show) بعد أن يحرف اسم الرجل إلى الإنسانية. ويتناول في هذا العرض بطريقة ساخرة، تتسم بها معظم عروض الممثل الواحد، مسألة الهجرة، وكيف يظل المهاجر مهاجرا، حتى بعد مرور أكثر من جيل على هجرته. فهو كما هو الحال مع بطل



(كسكس بلحم الخنزير) من أبناء الجيل الثاني من المهاجرين العرب في بلجيكا هذه المرة، وليس في فرنسا، ومع أنه ولد فيها، واختصر اسمه إلى «سام» كي يبدو مألوفا وعاديا، وعاش كل حياته بها، إلا أنه ما زال يعامل كمهاجر، تماما كما حدث لأبيه «محمد» باسمه الأجنبي غير المألوف. ويقتنص العرض عددا من المفارقات الكاشفة عن مدى صلابة الحاجز الذي تقيمه الثقافة الغربية في وجه المهاجرين من ثقافة عربية أو إسلامية مغايرة. فبعد أن تعبت أمه «رحمة» من انتظار زوجها الغائب في أوروبا، وأضناها الفراق، حملت أمتعتها ووصلت إلى بروكسل مع أطفالها، لتكتشف أن الأب لم يكن يريد حضورها خوفا عليها وعلى أبنائه معا من المعاناة من ألم الهجرة العنصري. والتعرض لما يتعرض له من مهانات يومية صغيرة. ويكشف العرض عن أن «سام» لايختلف بأي حال من الأحوال عن بقية مواطنيه، اللهم إلا في نظرة هؤلاء المواطنين غير العقلية له.

وما يجعل موضوع العنصرية من موضوعات المهرجان الملحة، أن الأمر لايقتصر على العرب وحدهم. فها هو الممثل الزائيري الأسود «بي تشيباندا» يقدم عرضا مماثلا من عروض الممثل الواحد يدور حول نفس القضايا التي اشتكى منها عرض سامي توزاني، وينطوي على نفس المرارات. وهو عرض بعنوان (مهرج أسود في بلاد البيض Un Fou Noir au Pays des Blancs) يتناول المفارقات المضحكة المؤسية التي يتعرض في بروكسيل مهاجر كونجولي أسود وأب لستة أطفال. منذ أن هبط في مطار بروكسل، وكيف افتقد منذ تلك اللحظة الأولى قاعدة افتراض البراءة في الإنسان حتى تثبت إدانته، التي ينهض عليها أي مجتمع سليم. لأن ما واجهه وواجهته أسرته من البداية هو العكس، افتراض الإذناب حتى تثبت براءته من اتهامات تنهض في وجهه ووجه أطفاله باستمرار دون ذنب اقترفوه أو جريرة. ولذلك وجد نفسه في ساحة قتال مستمرة قواعدها مغايرة لقواعد تلك التي تركها وراءه في الكونجو الممزق بين الجماعات المقتتلة. إنها الحرب العنصرية التي تدور رحاها في بلاد البيض، والتي لاتقل عنفا وضراوة عن تلك التي خلفها وراءه في بلاد السود. ■



Dar el Shorouk

"عباد الشمس" سلسلة جديدة يسعد دار الشروق أن تقدمها إلى قارئها الصغير. كتب باللغة الإنجليزية، تحكى من تراث الأدب الإنسانى. تزدهر بأشهر الكتّاب والرسامين. سلسلة طبعت لكى تفتنى.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

نورس الفضاء الضيق

إيهاب ياسر بسيسو

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤، ١٣١ صفحة



هذه هي المجموعة الشعرية الأولى للشاعر والأكاديمي الفلسطيني إيهاب بسيسو، والتي تجلت فيها موهبة صادقة وهي ترصد ملامح معاناة إنسانية تتجاور فيها وتتشابك الأحلام مع الانكسارات، ورائحة الياسمين مع أزيز الرصاص.

تنقسم المجموعة إلى: فضاء أول ويضم العديد من العناوين منها الليل ومرايا الموت، أحاديث الساعة العاشرة، كتابة بفعل الموت، أجنحة في مهب الريح وغيرها.. أما الفضاء الثاني فيحتوي على: أسئلة في مدى ضيق، سؤال، لغة الغرباء، تفاصيل ليلية، احتراق صامت وغيرها.

وفي أولى قصائد الديوان، يأخذنا الشاعر إلى عالمه الشعري مباشرة، يفتح أعيننا على صراع الحياة والموت خلف النوافذ الرمادية في قصيدة «أحاديث الساعة العاشرة»، والتي يقول فيها (والوقت المطعون بعقربين تدلى من شفرة سكين/ حين غاصت أول الطلقات/ في جسدي).. وفي قصيدة «إلى جندي» تبدو معركة الشاعر محتدمة حينما يقول (ما بينك وبينك.. طفل في غزة/ يحاول إضاءة قنديل في وجهك الليلي/ المحقون بالرصاص).. والمعركة هنا تشتعل بين طفل فلسطيني يرسم البهجة على وجه الحياة، وجندي صهيوني يطلق رصاصاته ليجعل رائحة جدران المنازل بنكهة اللحم المحترق..

الهم الفلسطيني يبدو متجليًا بوضوح في عناوين القصائد وفي الإطار العام للديوان، ورغم ذلك فالقصائد تبتعد تمامًا عن المباشرة والخطابية، وهي تقترب من مفردات وتفاصيل الواقع الإنساني، وتحديدًا هموم وأحلام وانكسارات الإنسان على شتى المستويات وليس المستوى السياسي فقط.

كما تدير القصائد حوارًا شعريًا مع الموت والكتابة والفضاء والبحر والجسد والحرية، وتسعى من خلال لغة عميقة وبسيطة في آن لإقامة جسر بين الشاعر والمتلقي، بعيدًا عن الاستغراق في التجريبية والغموض المفتعل التي وقعت في فخاخه نصوص شعرية أخرى.

ولن يخفى على قارئ هذه القصائد نبض الشريان الحكائي السردي بين سطورها، وقد ظهر ذلك في طول بعض القصائد. وأخيرًا وليس آخرًا تحاول القصائد دمج مشاهد الذاكرة مع فقرات التأمل، ووصل الأخيرة مع حكايات وذكريات وطن مسلوب وبشر يقتلون كل يوم.

■

المقدمات التاريخية للعلم الحديث.. من الإغريق القدماء إلى عصر النهضة

توماس جولدشتاين

ترجمة: أحمد حسان عبد الواحد

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤، ٢٦٥صفحة



متى يبدأ العلم الحديث؟!

ثمة إجابة تقليدية عن هذا السؤال تقول إنه في عام ١٥٤٣ كان عالم فلك بولندي اسمه نيكولاس كوبر نيكوس يرقد محتضرًا في فراشه، وكان كتابه ورائعته «ثورة الأفلاك السماوية» قد نشر لتوه ولم تطبع منه سوى بضع مئات من النسخ، وطبقًا للتقاليد، وضعت نسخة في يد كوبر نيكوس وهو يرقد محتضرًا، وربما لم يتمكن حتى من رؤيتها.. لكن بسبب ذلك الكتاب كان شيء آخر يحتضر بالإضافة إلى المؤلف، وهو المفهوم العتيق للكون الذي تحتل الأرض مركزه، فقد كان كوبر نيكوس قد كتب تعليمات رياضية كاملة لحساب حركة الكواكب على أساس افتراض أن الكواكب بما فيها الأرض تدور حول الشمس.

وفي نفس العام أيضًا نشر عالم التشريح أندرياس فيساليوس كتابًا بعنوان «بنية جسم الإنسان»، وكان الأول من نوعه في عالم التشريح.. وكان هذا الكتاب بمثابة ثورة دشنت العلم الحديث، إلا أن مؤلفيهما لم يولدا مكتملي النضج، ولم تطرأ على رأس أي منهما مفاهيم أتت من العدم، ولكنهما درسا علوم عصرهما ثم قدما أفكارهما الجديدة بعد ذلك.

ومؤلف الكتاب لا يبدأ كتابه بهذين العالمين الفذين، ولكنه يعود إلى ما وراء عصر النهضة، إلى الدارسين الذين ترجموا الأعمال العربية، وإلى العرب أنفسهم الذين حفظوا العلم الإغريقي في وقت كانت فيه أوروبا قد نسيته، بل إن الإغريقيين أنفسهم لم يكونوا بداية حقيقية للعلم الحديث، فقد تعلموا من الحكماء البابليين الذين اعتمدوا على علوم السومريين أول من درس النجوم وأول من بدأ في تتبع حركات الكواكب.

■

في عالم عبد الوهاب المسيري
حوار نقدي حضاري
المجلد الأول: الإطار النظري والموسوعة

تقديم: محمد حسنين هيكل

تحرير: د. أحمد عبد الحليم عطية

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٦٢٩صفحة



كما يقول الأستاذ هيكل في مقدمته لهذا الكتاب، فإن مجموعة المقالات التي يضمها بين دفتيه هي رد تحية واجب للدكتور المسيري، مصداقًا لقوله تعالى ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ (النساء: ٨٦). لأن د. المسيري حيا عصره وزمانه وأمته بعمل جامع قدمه للمكتبة العربية على شكل موسوعة كاملة عن: «اليهود واليهودية والصهيونية».

ويقول الأستاذ هيكل إن العقل العربي ومعه الفعل العربي، كلاهما - في حاجة إلى هذه الموسوعة/ المرجع لقيمتها المعرفية أولاً، ولقيمتها السياسية ثانيًا، فهذا المرجع كشاف قوي موجه - باتساع كبير - وتركيز شديد في نفس الوقت - إلى ساحة دار عليها صراع من أخطر وأعنف ما عرفته الأمة العربية طوال تاريخها.. وقد جاء هذا الكتاب بجهد وقيمة كل المشاركين فيه رد تحية لرجل أعطى أحلى سنوات عمره حاملاً عبئًا علميًا وبحثيًا وتنظيميًا وماليًا ليقدم هذا العمل الموسوعي.

وهذا الكتاب كما يقول محرره يسعى إلى تأسيس تقاليد للحوار الفكري في ثقافتنا العربية المعاصرة التي منيت في العقود الأخيرة بآفة الصوت الواحد والرأي الواحد والذي عادة ما يكون صوت السلطة ورأي التراث والتقاليد.

ويتكون الكتاب من مجلدين أولهما يحمل العنوان التالي «الإطار النظري والموسوعة»، تناول الباب الأول منه الإطار النظري والرؤية العامة، وفيه دراسات تحليلية نقدية للرؤية الفلسفية والنماذج المعرفية التفسيرية التي يقدمها المسيري. أما الباب الثاني فيتناول الحلولية الكمونية والعلمانية الشاملة والجماعات الوظيفية، وتدور دراسات القسم الثالث حول القضايا المتخصصة في الموسوعة: الفكر الصهيوني، التاريخ، اللغة، المصطلح، البنية والمنهج، الشخصية اليهودية.

وقد شارك في هذا العمل وجوه بارزة في الحياة الثقافية المصرية والعربية، وبعض أصدقاء وزملاء المسيري في الغرب، وعدد من التلاميذ والمريدين يمثلون مختلف التخصصات من الأدب الإنجليزي والنقد الأدبي والتاريخ والآثار والفلسفة والاقتصاد والسياسة، منهم كتاب ونقاد وأطباء وفنانون تشكيليون وروائيون ونقاد سينمائيون ومحللون سياسيون وصحفيون وأساتذة جامعات ومفكرون بارزون، وهم جميعًا يؤمنون بدور وقيمة الذي قدمه المسيري في تأسيس وعي سياسي وحضاري عربي بمشكلاتنا وعلاقتنا بالغرب ومواجهتنا للصهيونية.

■

نظرية النمو
روبرت صولو

ترجمة: ليلى عبود

لبنان: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٤، ٢٢٧ صفحة، ١٠ دولارات أو ما يعادلها



بعد حصوله على جائزة نوبل، عمل روبرت صولو على تقديم هذه الطبعة الثانية من كتابه نظرية النمو الذي صدر في صيغته الأولى عام ١٩٧٠، مضيفًا إليه ست محاضرات جديدة.

في هذا الكتاب إبراز لبعض الدروس المستمدة من نظرية النمو الحديثة: فيه اعتراف بمساهمات كبرى، وفيه رفض للبعض منها، وإشارة إلى ثغرات يجب سدها في أبحاث جديدة.

ويقدم الكتاب قراءة أساسية في علم الاقتصاد يحتاج إليها الطلبة في كل مستويات دراستهم الجامعية، كما يحتاج إليها الباحثون. وقد يكون من الصعب العثور على كتاب كهذا، يزودهم برؤية تجمع بين الدقة العلمية المتخصصة وبين اتساع النظرة إلى مجال النمو وإلى التحولات الكبرى الطارئة فيه.

الكتاب موزع على ١٢ فصلاً:

الأول: خصائص الأوضاع المتواترة. الثانى: معامل رأس المال/ الناتج المتغير. الثالث: نموذج من دون إحلال مباشر. الرابع: نموذج بنوعين من الأصول الرأسمالية. الخامس: السياسة الاقتصادية فى نموذج النمو. السادس: مظاهر السياسة الاقتصادية. السابع: النموذج المعيارى مرة أخرى. الثامن: رأس المال البشرى: نموذج لوكاس. التاسع: التكنولوجيا الداخلية: نموذج رومر. العاشر: السلع الاستهلاكية الجديدة: غروسمان وهلبمان. الحادى عشر: أفكار شومبيترية: أغيون. هوميت (Aghion - Homitt). الثانى عشر: دروس واقتراحات حول نظرية النمو الكلى.

وروبرت صولو: أستاذ الاقتصاد فى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. حصل على جائزة نوبل لعام ١٩٨٧ فى العلوم الاقتصادية، بناء على مساهماته الرائدة فى الصيغة الأولى لهذا الكتاب.

■

أبعاد الاستهداف الأمريكى

د. خلف الجراد
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٤، ٢٤٨ صفحة



يشير تاريخ الولايات المتحدة إلى أن «عبادة إسرائيل» تأصلت فى الروح وتشربها الجسد الأمريكى فى النخاع، ويعزى ذلك - كما يقول المؤلف - إلى أن التهود البروتستنتى منذ كتب مارتن لوثر تحت ذريعة «يهودية المسيح» أن على غير اليهود أن يقنعوا بأن يقعوا كالكلاب تحت مائدة اليهود ليلتقطوا الفتات المتساقط من مأدبة أبيهم أى يهوه.

وهذا الكتاب يبحث فى صور الصراع العربى - الصهيونى التى يجرى إيصالها إلى الرأى العام الغربى عامة والأمريكى خاصة، كما يبحث فى العديد من المؤشرات والمعايير التى توضح موقف الرأى العام الأمريكى المؤيد للصهيونية وإسرائيل، منها الكتب المدرسية والصحف والمجلات ذات النفوذ الكبير، بالإضافة إلى الخلفية الروحية الدينية لدى الأمريكيين.

وفى مثل هذه الأوضاع، أصبح الموقف الأمريكى من إسرائيل نموذجاً واضحاً ومميزاً لاختلاط الدين بالسياسة، وقد أدى هذا الخلط إلى تأثر القادة السياسيين الأمريكيين بهذه الأفكار الدينية حول «يهودية المسيح»، ودرجوا على استخدام رموز خطابية تستقى من «العهد القديم» الذى يدور فى غالبيته حول تاريخ إسرائيل ومستقبلها. ولم تعد كلمة «إسرائيل» اصطلاحاً سياسياً، بل أضحت رمزاً دينياً مهماً فى ثقافة الأمريكيين وعقول السياسيين، كما أصبح قادة الحركة المسيحية الأصولية فى أمريكا يؤمنون بأن لليهود حقاً تاريخياً ولاهوتياً وقانونياً فى أرض فلسطين، وأن الله يتعامل مع الأمم حسبما تتعامل هذه الأمم مع إسرائيل، وبالتالى فإن الوقوف ضد إسرائيل هو الوقوف ضد الله.. ومثل هذه المعانى تتردد فى معظم برامج ومنشورات المسيحية الأصولية التى تستقطب نحو ٤٧٪ من سكان أمريكا.

وفى فصل تال، يشير الكتاب إلى الدور الخطير الذى لعبه الاستشراق الغربى فى تشكيل قوالب وأنماط ذهنية - فكرية - نفسية - لدى الغربيين تجاه العرب والمسلمين، والذى قدم صورة سلبية ومشوهة عنهم استمرت منذ القرن السادس عشر وحتى اليوم.

ويقدم الكتاب أيضاً تحليلاً لدور مراكز البحوث الأمريكية فى صناعة الفكر والسياسة والقرار الأمريكى، بالإضافة إلى التوجهات الفكرية للعناصر الفاعلة فى إدارة الرئيس جورج بوش، ونبذة عن حياة المحافظين الجدد فيها.

■

أزمة الإرادة والوجدان المسلم
البعد الغائب فى مشروع إصلاح الأمة (فى إصلاح الثقافة والتربية: رؤية إسلامية معاصرة)

أ. د. عبد الحميد أبو سليمان
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٤، ٢٣٦ صفحة



يوضح هذا الكتاب أن هناك بعداً غائباً - مازال - فى مشروع الإصلاح الإسلامى، هذا البعد هو: الطفل.. الذى يمثل البذرة التى تحدد نوع الشجرة وطعم الثمرة.

وهو - الكتاب - محاولة لفهم أثر غياب الجانب النفسى والوجدانى فى الخطاب التربوى الإسلامى للطفل، ليكون هذا الفهم أساساً لإرساء طاقات الإرادة والقدرة والمبادرة والإبداع فى البناء النفسى والوجدانى، وهو أيضاً محاولة لمعرفة الأبعاد الثقافية والفكرية التى تسببت فى هذا الغياب، ولمعرفة المفاهيم والمنطلقات التى تمكن الأمة من استكمال هذا النقص، من أجل استعادة الوحدة بين المعرفى والنفسى والوجدانى فى بناء نفسية الطفل.

يقدم الكتاب العديد من الأمثلة لبناء شخصية الطفل، ويؤكد أن النظام والانضباط - تربوياً - لا يعنى القسر والإذلال والإرهاب والتبعية والطاعة العمياء، ولكنه يعنى بالدرجة الأولى والأخيرة تعويد النفس وتربيتها على أداء الحقوق وتحمل المسئوليات، وحتى فى الحالات المرضية، فإن عقاب الطفل بدنياً لا يجب أن يتم إلا بواسطة الأبوين أو بحضور أو تفويض منهما، وأن يمارس هذا النوع من العقاب بأقل قدر ممكن من الضرر النفسى والبدنى، وألا يلجأ إليه إلا بعد أن يتم استنفاد كافة الأساليب العقابية الأخرى.

والكتاب فى مجمله يقدم رؤية جديدة لأساليب تربية الأطفال فى المجتمع الإسلامى، انطلاقاً من قناعة المؤلف التامة بأن الآباء والأمم مطالبون برعاية الطفولة بكل ما فى قدراتهم من طاقة، لأنهم لن يستطيعوا تحقيق أى استثمار أهم وأعظم فائدة من الاستثمار فى تربية وتعليم الأطفال.

■

أفغانستان.. نشأتها وكفاحها

د. إحسان حقى
دمشق: دار الفكر، ٢٧٢ صفحة



يقدم هذا الكتاب بإيجاز دقيق تاريخ أفغانستان القديم حتى العصر الراهن، مروراً بالفتح الإسلامى لها وحكم الدول المتعاقبة عليها. كما يقدم أيضاً تفاصيل دخول الاتحاد السوفيتى وقيام حركة الطالبان «الطلاب»، وتنظيم القاعدة، ثم دخول القوات الأمريكية وسيطرتها على كابول.

ومؤلف هذا الكتاب حصل على الدكتوراة من جامعة لوزان بسويسرا، واتقن اللغة الأردية كأحد أبنائها، كما كان أستاذاً بجامعة عليكره بالهند، وكان عضواً بالمجمع العلمى الإسلامى الذى أنشأه العلامة الفيلسوف محمد إقبال سنة ١٩٣٢.

يلقى الكتاب الضوء على جغرافية أفغانستان ومدنها وسكانها، ويشير إلى بعض الكتب القديمة التى قدمت الكثير من الأكاذيب حول أصل الأفغان حيث زعمت أنهم أحفاد طالوت ملك بنى إسرائيل قبل داود. هناك رواية ثانية تقول إن أصل الأفغان من قبط مصر فروا منها زمن موسى عليه السلام، واستوطنوا كوهستان شرقى إيران، وتقول رواية أخرى إن أصولهم تعود إلى بلاد الشام وأن بختنصر عندما أخرج اليهود منها ذهب فريق منهم إلى الجزيرة العربية وكان العرب يطلقون على هؤلاء اسم بنى إسرائيل أو بنى أفغنة، وتقول رواية رابعة منسوبة لجمال الدين الأفغانى أن الفرس أطلقوا على الأفغان اسمهم هذا لأنه عندما أسرهم بختنصر كان لهم أنين وحنين، والأنين يسمى بالفارسية «افغان»، فأطلق عليهم هذا الاسم منذ ذلك الوقت.

يستعرض الكتاب فى أحد فصوله قصة اعتداء الإنجليز على أفغانستان، بقصد احتلالها لتأمين مصالحهم فى الهند، إلا أنهم فوجئوا بمقاومة ضارية أجبرتهم على الانسحاب، بعد أن فقدوا فى إحدى المعارك مع القوات الأفغانية بقيادة محمد أكبر خان، كل جنودهم ما بين قتيل وجريح وأسير، كما يستعرض مؤامرات الإنجليز المستمرة ضد حكام أفغانستان. ويتناول الكتاب أيضاً قصة الغزوات الروسية لأفغانستان منذ القرن الثامن عشر ومقاومة الشعب الأفغانى الجسورة للقوات الروسية.

كما يحفل الكتاب أيضاً بالكثير من المواقف التى مر بها المؤلف نفسه خلال زياراته لأفغانستان.

■

المجالس السبعة

جلال الدين الرومى
ترجمة وتقديم: د. عيسى على العاكوب
دمشق: دار الفكر، ١٥٨ صفحة



يتكون هذا الكتاب - كما هو واضح من اسمه - من سبع خطب أو سبعة مجالس وعظ، كتبها مولانا جلال الدين الرومى بالفارسية، والذى بدأ كل مجلس من المجالس بخطبة عربية، كان يتخللها آيات من القرآن الكريم، وبعد الخطبة تأتى مناجاة، هى نوع من الدعاء والاستغاثة بجمل فارسية مسجعة.

ثم يبدأ الكلام الأصلى بذكر حديث للرسول عليه الصلاة والسلام، ثم تعرض على المستمعين حكايات وقصص وآيات وأحاديث فى شرح الحديث الأول.

وهكذا تضمنت المجالس السبعة مائة وسبعاً وخمسين آية، وأربعين حديثاً شريفاً، وحديثاً لأمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

وثمة أمر يتكرر كثيراً فى المجالس، وهو أن الرومى كان يحرص على عرض تفاصيل القصة التى يلقيها على مستمعيه بكل جزئياتها الدقيقة ثم يعقب عليها بإيضاح نهائى.

وكان من الذين يستخدمون القصص والأحداث المختلفة كرموز لأفكار عرفانية صوفية.

ويساعد ذلك فى فهم مقاصده من الحديث، بنفس القدر الذى يضفى على كلامه جماليات أدبية راقية تقدم مثالاً

مدهشًا لرمزية إسلامية قوية الوشائج بثقافة الشعوب العربية.

وتتجلى أهمية المجالس السبعة فى أنه يقدم ضربًا عميقًا من التربية الروحية فى قالب من المناقشة يمزج بين القلب والعقل.

■

نساء نوبل
الفائزات بالجائزة فى الآداب

خالد محمد غازى

القاهرة: وكالة الصحافة العربية، ٢٠٠٤، ١٨٢ صفحة



حينما حصلت السويدية سلمى لاجيرلوف على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٠٩ كانت فى قمة شهرتها وعطائها، وكانت قد أصيبت بالشلل فى ساقيها وهى فى التاسعة من عمرها، فاستغرقت تمامًا فى القراءة والتردد على المسارح وبدأت فى كتابة الشعر، ثم نشرت سلسلة من الروايات والقصص القصيرة متأثرة بالتيار الأدبى الرومانسى السائد آنذاك.

وفى هذا الكتاب استعراض لقصة حياة هذه الأديبة السويدية، بالإضافة إلى ٨ أديبات أخريات حصلن على جائزة نوبل، وهن جراتسيا ديليدا التى حصلت على نوبل عام ١٩٢٦، والزنجية الأمريكية تونى موريسون ١٩٩٣، والألمانية نيللى ساخس ١٩٦٦، والكاتبة الجنوب أفريقية البيضاء نادين جورديمر ١٩٩١، والبولندية فيسلافا شيمبودسكا ١٩٩٦، والدانماركية سيجريد اندسيت ١٩٢٦، والأمريكية بيرل بك ١٩٣٨، والشاعرة التشيلية جابرييلا ميسترال ١٩٤٥.

يستعرض الكتاب أيضًا القواسم المشتركة والتجارب المريرة التى جمعت بين نساء نوبل، كما يستعرض تاريخ الجائزة وكيف تطورت وقصة حياة صاحبها ألفريد برنهارد نوبل العالم السويدى الشهير.

وفى فصل آخر من الكتاب يستعرض المؤلف أسباب تجاهل جائزة نوبل للأدباء العرب حتى حصل عليها نجيب محفوظ عام ١٩٨٨.

■

ساعة عصارى

عمرو عبد السميع

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٤، ٢١٥ صفحة



فى حب الوطن وناس ذلك الوطن، يذوب قلم الدكتور عمرو عبد السميع مسطرًا - عبر صفحات نصه الجديد - وثيقة أدبية جميلة.. رومانسية.. صادقة.. وصافية، تستكمل ما بداه فى نصوصه السابقة من وصف دقيق للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية لمصر.

فى هذه الرواية يقدم الكاتب صيغة درامية عجيبة تبدو وكأنها استدعاء - بالأمر المباشر - لأصوات تنادى على أجمل ما فى عقولنا، ولأصداء صدق تتردد بين جنبات نفوسنا، وأطياف تعبر بنا إلى المستقبل، وتحرضنا على أن نجعله جميلاً.

أحداث الرواية تدور حول رنده العيسوى الفتاة خريجة مدارس الليسيه والتى عاشت طفولة قلقة ما بين أصول أمها الأرستقراطية وأصول أبيها الريفية، والتى تصدم أيضًا فى قصة حبها مع أحمد الضابط الذى عاد مقهورًا عقب أسره فى حرب ١٩٦٧.

ومع التغيرات التى شهدتها مصر بعد النكسة والتحولات الاجتماعية والاقتصادية فى السبعينيات من القرن الماضى، تشتعل أحداث الرواية، وتتزوج رنده من رجل آخر يعانى من العجز ينتمى لبلدة أبيها، ثم ترتكب أخطاء عديدة وهى تعتقد أنها تحقق أحلامها فى الحياة خاصة بعد أن تصبح وكيلاً لإحدى شركات السيارات الأمريكية فى الشرق الأوسط.

وقد تجلت جماليات الرواية فى بنائها الرشيق والعميق فى آن، والذى نجح من خلاله المؤلف فى أن يقدم لوحة رومانسية/ سياسية تعبر عن صخب السبعينيات الاجتماعى الذى ولد من رحم نكسة يونيو ١٩٦٧، والذى لم يستقر حتى الآن تحت سطح حياتنا الساكن!

■

دوريـــات

المستقبل العربى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، سبتمبر، ٢٠٠٤، ٣ جنيهات



صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية العدد (٣٠٧) من مجلة المستقبل العربى، وفيه «المشاهد المستقبلية المحتملة فى العراق»، وهى دراسة لخير الدين حسيب. وفى العدد أيضًا دراسات بعنوان: «نهاية الاحتلال فى العراق (٢٠٠٤)» لآدم روبرتس، و«عزرا - نحميا».. والحديث عن حقوق يهودية فى العراق «لحسن عبيد عيسى». وفى العدد وثيقة بعنوان: «إسرائيل والأراضى المحتلة: تقطيع الأوصال: تشتيت شمل العائلات نتيجة السياسات القائمة على التمييز، إعداد منظمة العفو الدولية. وفى باب «آراء ومناقشات» نقل اليورانيوم من العراق والتسمم الإشعاعى: جريمة إدارة بوش، كتبها كاظم المقدادى.

وفى هذا العدد مقابلة مع الموسيقار وليد غلمية يركز فيها على أن الإبداعات الموسيقية الغربية الكبرى هى ذات جذور شرقية عربية، وقد حاوره هاشم قاسم.

■

جريدة الفنون

الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، سبتمبر ٢٠٠٤



فى عددها الأخير تحتفى جريدة الفنون بأكثر من فنان عربى أثروا، كل فى مجاله، تأثيرًا بالغًا فى حركة الفنون العربية. ففى مجال الموسيقى والغناء على سبيل المثال اختارت الفنون الشاعر الكويتى عبد الله العتيبى.

وفى مجال العمارة احتفت الفنون بالمعمارية العالمية العراقية زهاء حديد، وفى مجال المسرح كان الفنان نجيب الريحانى هو المحتفى به بمناسبة الذكرى السادسة والخمسين لوفاته.

وفى مجال المسرح أيضًا كان للفنان الكويتى كنعان حمد نصيب من التكريم والاحتفاء، وذلك من خلال عرض لكتاب «الفنان كنعان حمد.. سنوات عطاء من قلب كبير».

وفى التشكيل اختارت الفنون حسين ماضى فنانًا للعدد، وهو أحد الفنانين اللبنانيين الذين يشكلون معالم الفن التشكيلى اللبنانى.

الفنان العالمى أيضًا كان له حضوره القوى فى هذا العدد. ففى مجال التشكيل كان هناك موضوع عن الفنان بول سيزان، وفى مجال السينما اختارت الفنون المخرج العالمى ستيفن سودربرج، لتنشر له حوارًا كانت قد أجرته معه مجلة «فيلم ثريت».

■

أدب ونقد

القاهرة: حزب التجمع، العدد ٢٢٨، ٢٠٠٤



فى ذكرى ميلاد المئوية، يقدم هذا العدد تحية إلى روح شاعر تشيلى الراحل بابلو نيرودا بعرض نبذات من قصة حياته وعدد من قصائده أعدها وقدمها فريد أبو سعده. وفى العدد أيضًا ملف عن الكاتب سيد عبد الخالق بعنوان «صانع البهجة».

كما يحتوى العدد على مقال للدكتور محمد إسماعيل بعنوان: «أثر جمهورية أفلاطون فى فكر الفارابى والقرامطة»، وآخر لوديع أمين فى «الحسن بن الهيثم»، بالإضافة إلى صفحات من كتاب النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية للدكتور حسين مروة.

■

أحلام مستغانمى.. الولادة والموت فى وطن عابر



عابر سرير
أحلام مستغانمى
بيروت ـ منشـورات أحـلام مسـتغانمى ٢٠٠٤

١ ـ (عابر سرير).. شهادة عن وطن فقد تاريخ وشهادة ميلاده، وفى يده، ومرسوم فى خيوط وجهه الشاحب شهادة وفاة فقط، وهى ممهورة بتوقيع زمن غادر، وسلطة مراوغة، وسذاجة الكثيرين، وعفوية وعذرية الصادقين، وتقاعد العدالة فى هذا الوطن.

شهادة عن القتل الذى فاق حدود المعقول والبشاعة، فجسد زمن الخيانة المشروعة ومدن اللامعقول وهى من قش ورمل، ولكنها تحكم، تتدخل فى صياغة أبجدية الحياة وهى تشيد دهاليز طويلة من الظلمة والرطوبة والدخان والضجر..! شهادة عن المذابح اليومية ـ مذبحة أمل وصبح ووطن ـ ينفذها أناس مجهولون، أسماؤهم فى ذاكرة الدم الذى يسيل، ووجوههم محفوظة فى كاميرات الظلمة، وخُطاهم مرسومة فى شريط الرعب اليومى، لا ينتسبون إلى تربة هذا الوطن، والوطن قد تقيأ أجسادهم النتنة، وهو برىء منهم، وهم لا ينتسبون حتى إلى خرية، أفواههم منجم للحقد والعدوان والبشاعة والجرم.. قاتلون بامتياز بشع فاضح، وسفاحون بشراسة وكراهية لا توصف، بلا آدمية.. بلا ماض.. وبلا تاريخ فقط حاضر صدئ، دقائقه أسفلت، وتراب، وصديد وخيانة: (أنت متورط فى تغذية عالم نهم للجثث، مولع بالضحايا، وكل أنواع الموت الغريب فى بشاعته) ص٢٨.

٢ ـ (عابر سرير).. رواية حالمة، وقد كانت الروائية أحلام مستغانمى بارعة فى (صهر الحلم بالواقع) ومن شخصياتها الحالمين، الرسام المبتلى بالرسم، متعته الكبرى، حيث يتحول العالم لديه إلى فرشاة وألوان وورق، وهو يسعى إلى رسم لوحة تحمل عنوان الولادة والموت لوطن عابر، باللون والخطوط وحركة الفرشاة يكتب زيان تاريخ بلاده الجارح، دون أن يخفى عشقه المغنط بسحر لوحاته ـ قصائده الصامتة، كمنظم لحياته، التى فيها الكثير من فوضى اللوحة وسحر القصيدة: (لا تملك إلا أن تتعاطف معه، وهو يواجه الخسائر بفرشاة، ذلك أن هذا المعرض فى فن بعثرة الحزن على الجسور والأبواب التى تصهل بها اللوحات، ليس سوى إعادة اعتبار للخسارات الجميلة) ص٨٢.

٣ ـ (عابر سرير).. هى سيرة وطن!! كتبها وقت حرج بدمع دقائقه، والدم النازف أبداً، والصراخ والبراءة المتهمة فى المهد، وشمس الحقيقة الخجولة، والقصائد التى ظلت الطريق!!.. سيرة وطن متخن بالجراح، متوج بالهموم، وسامه الآلام التى تزوره كالمطر البربرى، والانتظار فى طابور طويل من أجل (روشتة) لحياة عابرة.. كليلة مقلقة وطارئة فى سرير عابر: (سنوات وهم مستغرقون فى الاستشهاد حتى أنهم فى انشغالهم بالبحث عن ذريعة لموت جميل، نسوا لماذا هم يموتون، بينما أثناء انشغالهم نحن بالبقاء أحياناً نسينا أن نحيا، فلا هؤلاء هنئوا بموتهم ولا نحن نعمنا بحياتنا) ص ١٢٨.

وطنٌ ـ الجزائر ركن من أركانه تحكم فيها الظلمة، ويشيع القتلُ ويحمل أبناؤه أرواحهم فوق أكفهم فى الداخل ـ الكابوس اللانهائى، والخارج ـ الغربة والرعب معاً: (كان لى دائماً إحساس بأننى قد عرفتهم فرداً فرداً، لذا عز على أن أصور موتهم البائس مكومين أمامى جثثاً فى أكياس من النايلون؟ ما أحزننى أن أكون شاهد تصوير على ولائم رؤوسهم المقطوفة) ص ٣٠.

الجزائريون الذين يحملون وطنهم معهم.. فى باريس جزائر أخرى، وطنٌ عابرٌ داخل وطن عذاباتٌ، ومفارقات النفى: موتٌ لا شبيه له، ولادة عسيرة، عشق تحت المراقبة، وغربة ووحدة وجوع، وظمأ، وحنين، وعلاقات عابرة، وطنٌ يبحث عن وطن، خارطة للعذاب اللانهائى: (أما زال الجسر يذكر قبلة جزائريين انتمناه على حبهما؟ وتحت قدميه الأبديتين يجرى نهر لم يؤتمن على أرواح الجزائريين ذات أكتوبر ١٩٦١ عندما طفت على سطحه عشرات الجثث التى ألقيت إليه مُكبلة؟.. لو أن للسين ذاكرة لغير مجراه) ص ١٠١.

٤ ـ (اسمى خالد بن طوبال.. أعمل مصوراً صحافياً، لم يبد أن الاسم كان يعنى لها شيئاً، ولكننى لم أكن لأنتبه لحظتها أنه سيكون علىّ أن أحافظ على الاسم بعد الآن كما لو كان اسمى، حتى عندما ستضعنى الأقدار بعد ذلك أمام زيان نفسه..) ص٦٤.

خالد بن طوبال هذا هو الجزائر النابضة، المغيبة، والمقتولة، وهو كل الجزائريين الذين لم يجدوا وطناً آمناً يلبسونه كثوب فوجدوا حالة عشق تحمل دفئاً أهم وأخلد بكثير من شعارات وأحلام ووعود وطن عابر.. فكروا فى الوطن، صلوا له، ولم يجدوا إلا الكوابيس فى النهار والليل، بكوا أرضهم.. وطفولتهم.. وذكرياتهم.. وقصص عشقهم الأولى، فحاكمهم الرغيف!!

٥ ـ (تتمنى لو أطلقت النار على كل الطغاة بالجملة..) ـ الرواية ص ٩٣.

شهادة أخرى ضد الموت المجانى، بإمضاء الورود التى لم تكمل نومها المخملى، والسنابل التى فقدت ضفائرها الذهبية، والحقول التى لم تعد شمس النهار تطرق بابها، والبيوت التى اشتاقت لرائحة الرغيف، والعشاق الذين تجسس الصبحُ عليهم، والموتى ـ الأحياء فى الجزائر.. وفى بغداد، وتحت كل نجمة عربية حزينة، بحاجة إلى بكاء، وأنها تعيش لحظة اختناق لن تمحوها رقصات زوربا اليونانى العابثة المتشبثة بالحياة.. ولحظات الحب العابرة حتى الجنون!!

ترسم لتشكل حياة أخرى!! وتكتب لتنجو من ألمك، وتبكى لتقتل يأسك وضجرك، وتذوب وتتلاشى لتنجو من حب عابر، وتصرخ (لتحاول الثأر لكل الدم العربى بكتاب).. وماذا تفيد الكلمات، بل الكتاب و (ومازال للقتلة متسع من الجاه) ص ٩٣.

٦ ـ (الغربة ليست محطة.. إنها قاطرة أركبها حتى الوصول الأخير) ص١١٠.

فى الرواية الغربة وطن، إقامة دائمة، كل شىء فيها مسموح، تسقط كل علامات الاستفهام أمام الحب، والميلاد، والموت، والعلاقات، والشتائم الفاضحة والملائكية، والكتابة الخارجة على كل القوانين، قسوتها أعذب من نسمات وطن عابر، لياليها أكثر أماناً من ليالى الوطن المطرزة بنجوم الرعب، والخوف والغموض والسلاح الأبيض، والموت المباغت!!

الرسم والكتابة وسيلتا مقاومة.. رغيفا الغرفة الساخنان، يمكنك أن تكتب حالة عشقك بيد ليست مشلولة بحب الوطن، يمكنك أن ترسم وجه امرأة تُحبها، وعلاقات صباحية تحلم بها، وأوطاناً جديدة، وحقولاً، وأطفالاً، وجسوراً، بريشة لا ترتعش عند ذكر الوطن، يمكنك أن تصرخ بحنجرة الله دون الحاجة إلى ملائكة.. الغربة كما الحب والرسم والكتابة: (أن تعود إلى الرسم أى أن تعود إلى الحب) (الرسم كما الكتابة) ص١١٣ ـ وأن تعيش الغربة يعنى أن تعيش الوطن.. هكذا تكون المعادلة صحيحة!!

٧ ـ الموتُ لا يوقف نستولوجيا الوطن!!

(إنه الموت طريق حقاً.. لم أسمع بهذه التفاصيل من قبل..) ص١٦٤.

الموت المرادف للولادة، أو بطعمها. له شهوته التى نادراً ما تتكرر كحالة عشق صادقة، وهى تمنحك عمراً آخر دقائقه من ذهب، وفسفور، وريحان.. (لا يحدث للإنسان ما يستحقه بل ما يشبهه) ـ أندريه مالرو.

موت كاتب ياسين كحياته: (موت موجع ومشاغب ومسرحى ومحرض وساحر) ص ١٦٣ وهو ولادة لما فيه من تصحيح للتاريخ، وتجديد لحظات الصدق فى سطوره، يوم موته حدث زلزال فى الجزائر، فالأرض تولد وهى تجدد ثوبها مستعدة لزفاف أكثر صخباً على شرف الشمس والنوارس: (حملت نعشه النساء كما الرجال لأول مرة رجل تحمل نعشه فرقة مسرحية بكاملها) ص ١٦٣ موت مسرحى ووداع كرنفالى ودفن على إيقاع طبول الثورة الجزائرية (كان أول من أدخل الفوضى والديمقراطية والزغاريد إلى المقابر.. وأدخلها قبل ذلك إلى المعتقلات والسجون) ص ١٦٤.

وموت تراجيكوميدى!! فهذا عبد الحفيظ بو الصوف ـ مدير الاستخبارات العسكرية أثناء الثورة يموت إثر أزمة قلبية وهو يضحك على نكتة سمعها عبر الهاتف.. وسليمان عميرات مات حزناً بسكتة قلبية وهو يقرأ الفاتحة على روح الرئيس الجزائرى بوضياف الذى سقط مغتالاً.. مصطفى بن بولعيد مات على أيدى الفرنسيين، وابنه عبد الوهاب اغتاله الوطن يوم استشهاد أبيه (ربما كانت فى هذه الميتة بالذات كل فاجعة جيلنا) ص١٦٥ ـ يتعدد الموت، تتعدد الولادة، وحالات العشق فى وطن عابر!!

٨ ـ الروائية أحلام مستغانمى حالمة!!

(إن الكاتب يتحدث عنا، عن ذاتنا نحن الحالمين) ـ غاستون باشلار ـ شاعرية أحلام اليقظة و(عابر سرير) محطات شعرية.. زف إليها الضوء حماس الأرض العاشقة للانهائى.. واللازمان.. واللامكان.. واللاوطن..!!

ملصقات محرضة لونها وخطوطها من دمع الأرض وأنين إنسانها..!! شهادات صادقة على واقع مريض.. وإنسان سجين.. ووطن عابر.. وكون كل شىء فيه مطارد حتى الحلم.. والنسمة.. والفراشات.. وحرية تسجنها علامات الاستفهام.. ومستقبل مظلم.. غامض كدهليز مصمم لفرار حاكم عربى..

عذاب الركابى

Will in the World
How Shakespeare Became Shakespeare
(ويل فى العالم، كيف أصبح شكسبير شكسبير)
Stephen Greenblatt
Jonathan Cape, 2004, 320pp.
$ 20.55



يسعى الكتاب لاستقطاب اكبر عدد من القراء. ويعد أكثر المؤلفات التى كتبت عن شكسبير وأعماله وعصره، عبقرية وشمولية.

المسرح الذى كتب له شكسبير ومثله، كان يعد عملا تجاريا ترفيهيا، ومع ذلك جاءت مسرحياته شديدة اليقظة للواقع السياسى والاجتماعى فى عصره. كان عليه أن يقدم بعض التنازلات للعالم التجارى.

المسرح كان شركة شكسبير هو المساهم [illegible] ما بين
وجهات نظر ٧٦
م حتى
ه وسط
منافسيه وليظل دائما طافيا على السطح.

كان مفتاح الحفاظ على هذه المكانة هو عدم الإكثار من الموضوعات المتعلقة بالأحداث الجارية فى ظل وجود الرقابة الحكومية.

وجد شكسبير العزاء فى الالتفات لأعمق المشاعر الإنسانية، والانشغال برغبات ومخاوف مشاهديه.

كتاب (ويل فى العالم) يروى قصة نجاح لم تفسر بعد. يهدف إلى أن يكون افضل وأشمل ما قدم عن شخصية شكسبير وتفتح موهبته. بالطبع هناك العديد من المراجع والمؤلفات عن حياة شكسبير، ولكنها جميعا تنقصها وفرة المصادر الكاشفة عن حياة هذا الأديب.

المؤلفات السابقة لم تتضمن لغة شكسبير المعبرة عن خيالاته وأحاسيسه، ومخاوفه، ورغباته، بينما يعرض لنا هذا الكتاب العلاقة بين شكسبير وعالمه الخاص، والذى من خلاله نستطيع ان نكون صورة شخصية أو بورتريه كاملاً وحياً لوليم شكسبير. إنها رحلة تستجلب مخاوف وتجليات خياله الخصب، وقدرته على التوحد مع الآخرين ليمنحهم قوته الروحية، ويجعلهم يعيشون، ويتنفسون كأشخاص مستقلين بذواتهم، كما لم يفعل أديب من قبل.

Great Thinkers A-Z
(مفكرون عظماء من الألف إلى الياء)
Edited by Julian, Baggini & Jeremy Stangroom
Continuum, 2004, 256 pp.
£ 9.99



يعرض الكتاب ١٠١ مقال عن المفكرين الذين ساهموا فى صياغة الفكر الغربى من العصور القديمة حتى العصر الحديث. يضم الكتاب الأسماء الكبيرة من كافة المذاهب الفلسفية، ومن كل العصور ... من ادورنو الى سقراط، ومن هايك الى هيدجر، ومن نجرى الى نيتشه، ومن افلاطون الى بوبر، ومن سينجر الى سبينوزا.

كما يضم ايضا أسماء مفكرين كبار اخرين تركوا علامات واضحة على الفلسفة مثل فرويد، وداروين، وايتشتين، الكتاب رؤية شاملة وممتعة لعالم الفلسفة الغربية، يهم كل مهتم بتاريخ الفكر الغربى، ويعتبر مرجعا هاما لطلبة الفلسفة، والمجالات المتعلقة بها.

■

What Philosophy is?
(ما هى الفلسفة؟)
Edited by Havi Carel & David Gamez
Continuum, 2004, 352pp.,
£ 9.99



يضم الكتاب مجموعة من المقالات التى تناقش تصنيف الفلسفة ضمن الثقافة المعاصرة. بعض المقالات تناقش العلاقة بين الفلسفة والعلوم، والسياسة، والأدب، وأيضا علم النفس، وبعضها يقتصر على مناقشة مدى احتمالية تصنيف الفلسفة فى عالم يتصف بالحدة التخصصية.

إن كثرة المعارف فى العصر الحديث وتشعب التخصصات ونموها الدائم يؤكد حتمية استمرارية الفلسفة لضرورة احتوائها على كل ما يجد من جديد.

ماذا نقصد عندما نتحدث عن الفلسفة اليوم؟

ما هى العلاقة بين الفلسفة والعلوم، والسياسة، والأدب؟

ما هى طرق البحث التى يستخدمها الفلاسفة المعاصرون.. وكيف تتقدم الفلسفة؟

هل تختلف الفلسفة باختلاف المكان؟

وفى النهاية ماذا تقدم لنا الفلسفة وما الذى لا تستطيع ان تقدمه؟

يحتوى هذا الكتاب فى طياته على اراء فلاسفة مؤثرين معاصرين، كما يعرض صوره عن ماهية الفلسفة وطرق البحث فيها وإمكانياتها وحدودها.

إن هذا الكتاب فى حد ذاته جزء من الفلسفة والتى لا تجيبنا على أسئلة فقط، بل تحفزنا إلى مزيد من التساؤل والى صياغة فلسفة لأنفسنا.

يضم كل قسم من اقسامه مقدمة لمحررى الكتاب، ويجتهد كل مساهم من خلالها بتقديم مجمل قصير عن الموضوع مع نقاش موجز حول المشاركين فى الكتاب.

■

The Infinite Book
Where things Happen that don't Happen
(الكتاب المطلق، اللانهائى، كيف يحدث ما لا يحدث؟)
John D Barrow
Johnathan Cape, 2004, 256 pp.
£ 17.99

كل شىء تريد أن تعرفه عن فكرة اللانهائية فى التاريخ والعلوم وإلى يومنا هذا سوف تجده فى هذا الكتاب.

تعتبر فكرة اللانهائية هى أغرب فكرة خطرت على فكر البشر. من أين أنت؟ وماذا تقول لنا عن الكون؟ هل بالفعل توجد اللانهائيات أم هى دلالة على شىء لا يمكن الوصول إليه مهما استمر العد؟ هل اللانهائية مثل الأرقام توجد بعضها اقل او اكثر من الأخرى؟ هل يمكن إحصاء عدد لانهائى من الأشياء فى وقت محدد؟ هل الكون لانهائى؟ هل فكرة اللانهائية قديمة وسيستمر وجودها للأبد؟ هل فكرة اللانهائية قابلة للقسمة الى ما هو أصغر؟

لكن اللانهائية ايضا هى المكان الذى تحدث فيه أشياء لا تحدث. فإذا كان الكون لانهائياً، فإن عدداً ما منسوخاً منك قد يقرأ نفس الجملة فى نفس الوقت على كوكب مماثل فى الكون، إذن ما هو الحال إذا عشت فى كون لا يوجد فيه شىء أصلى، مكان يمكن أن تعيش فيه للأبد. مكان يحدث فيه أى شىء يمكن حدوثه مرارا وتكرارا.

هذه بعض التساؤلات التى تثيرها فكرة اللانهائية. وعبر التاريخ كانت دائما فكرة المطلق فكرة خطرة. حيث فقد الكثير حياتهم، وحرياتهم، وأعمالهم لمجرد التحدث ومناقشة هذه الفكرة.

هذا الكتاب يأخذك فى رحلة تساؤلات غريبة وخطرة، وينتقل بك إلى إجابات أغرب من علماء، وعلماء رياضة، وفلاسفة ورجال دين حاولوا التعامل مع مخاطر المطلق من أجل سلامة وصحة العقل.

■

Simon Callow : Being an Actor
(سيمون كالو، كونى ممثلاً)
Simon Callow
Vintage, 2004, 368pp, £ 7.99



قلة من الممثلين تتمتع بالصراحة والمتعة عند حديثها عن حياتها الشخصية مثل سيمون كالو.

يتتبع هذا الكتاب خطوات رحلته منذ أول رسالة كتبها لـ لورنس أوليفر والتى أتاحت له أول فرصة عمل إلى أن وصل إلى النجومية. يستكمل الكتاب
العدد التاسع والستون - أكتوبر ٢٠٠٤ م
تناقضاته فى بعض الأحيان، مع شغفه وحبه الدائم للسينما والمسرح. إنه دليل لكل محترف للتمثيل، وأيضاً دليل لتفاصيل وتداخلات هذا المجال من الفن.

■

Library : An unquiet History
(المكتبة وتاريخ عاصف)
Matthaw Battler
Vintage, 2004, 256 pp., £ 7.99



تعتبر المكتبات عبر العصور ليست فقط موقعاً لتراكم وحفظ وتصنيف المعرفة، وإنما أيضاً موقعاً لتصحيح معرفة خاطئة.

يأخذنا مؤلف هذا الكتاب فى رحلة من بوسطن إلى بغداد ... من حجر النساخ الأوائل إلى أديرة القرون الوسطى، ومن الفاتيكان إلى المكتبة البريطانية.

كانت المكتبة دائماً ساحة تنافس للأفكار، والاتجاهات المختلفة بما تقدمه لنا الكتب من مصادر معرفية. ينتقل بنا مؤلف هذا الكتاب من مجموعات اللوح

الطينى الرافدى إلى مكتبة الإسكندرية ومن نظام ديوى العشرى إلى الإنترنت.

كان دور المكتبات دائماً هو الحفاظ على تراث الإنسانية من مؤلفات ضمت أفكاراً متعارضة وربما متناقضة فى سبيل الارتفاع بالمعايير الأدبية مع الاحتفاظ والاحتفاء بأفضل المؤلفات لاحتواء كل أشكال المعارف الإنسانية.

المكتبة فى رعايتها للكتب واجهت مشاكل التكنولوجيا الحديثة وتعقيداتها، ولكنها استفادت منها وواكبت عصر التغيير بجدارة.

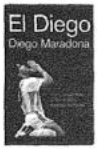
■

El Diego: The Autobiography of the World's Greatest Footballer

(ديجو.. السيرة الذاتية لأعظم لاعب كرة قدم فى العالم)

Diego Armando Maradona

Yellow Jersey, 2004, 320 pp, £ 16,99



«أشعر أحيانا أن حياتى بأكملها تعرض فى فيلم. حياتى تبدو كنسخة مطبوعة... ولكنها ليست كذلك، فهناك أشياء تعتمل فقط فى قلبى ولا يعرفها أحد... أخيرا قررت أن أقول كل شىء».

لا يحتاج ديجو أرمندو مارادونا إلى مقدمة طويلة، فقد بدأ حياته كفتى فقير فى بلدة صغيرة. عبقريته فى كرة القدم أوصلته إلى أفضل المراكز فى ملاعب أوروبا والعالم، ولكن ضغوط الحياة داخل وخارج الملعب أدت إلى تراجعه للوراء مرة أخرى. سواء كان بطلا أو ساذجا، فإن شيئا واحدا هو الأكيد.. إنه أفضل لاعب كرة قدم فى جيله، وقد يكون لكل الأزمنة اللاحقة.

لم يسبق أن روى مارادونا بكلماته وتعبيراته قصته، إلا فى هذا الكتاب... من الفقر إلى العظمة يروى مارادونا بصدق متناه، وبصيرة لاعب كرة ذكى، اللحظات الهامة فى حياة أسطورية... من الضغوط التى أحاطت بالطفل العبقرى، إلى مباراته ضد إنجلترا فى كأس العالم عام ١٩٨٦، وإنجازه المذهل فى نابولى، والحلم الذى تحول إلى كابوس والعار والخزى فى مباراة أمريكا عام ١٩٩٤.

يطالعنا هذا الكتاب بما يدور فى عقل أفضل لاعبى الرياضة فى زماننا. رجل تشتت بين متطلبات رؤساء النوادى والمعجبين، والإعلام... وحياته الخاصة.

■

Philosophy in the New Century

(الفلسفة فى القرن الجديد)

Anthony O' Hear

Continuum, Dec 2003, 208 pp, £ 7.99



يناقش مؤلف هذا الكتاب ما يجب أن تراعيه الفلسفة من توافق مع العادات والفطرة السليمة لتساعدنا بالتالى على فهم السياسة، والدين، والجمال، والإجابة على العديد من التساؤلات الأخلاقية والتى ستستمر فى التوالد باستمرار الثورة العلمية والتقنية.

يعرض المؤلف لرؤية منطقية متماسكة وحتمية لاستعادة الحكمة فى زماننا المعاصر.

■

Things : A Spectrum of photography 1850 - 2001

(أشياء: آفاق التصوير الفوتوغرافى ١٨٥٠ - ٢٠٠١)

Mark Haworth - Booth

Jonathan Cape, 2004, 224pp, £ 35



فوكس تالبوت المخترع البريطانى للتصوير الفوتوغرافى وصف التصوير الفوتوغرافى بأنه «قلم رصاص الطبيعة».

استخدمت هذه الوسيلة كل قوانين الكيمياء والفيزياء لتخلق وصفاً تفصيلياً على مستوى العالم المادى المحسوس، وتفوقت على كل أنواع الإعلام المطبوع. وكانت المواد المرئية هى أول موضوعات التصوير الفوتوغرافى.

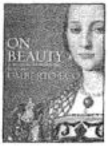
نشر هذا الكتاب صوراً لأعمال ٩٠ مصوراً من المشاهير أمثال فوكس تالبوت وجوليا مارجرت كاميرون وادورد ويستون وكارتير بريسون وأرفينج بن وديان أربس، وأيضاً صوراً لأعمال الجيل الجديد المستعين بالتكنولوجيا الحديثة. إنه كتاب يبحث فى كيفية رؤية العالم المادى من خلال تاريخ التصوير الفوتوغرافى.

On Beauty: A History of A Western Idea

(الجمال: تاريخ فكرة غربية)

Umberto Eco

Secker & Warburg, 2004, 400pp, £ 25.00



لا ينشغل هذا الكتاب فقط بتاريخ الفن أو تاريخ علم الجمال، لكن مؤلفه يحاول اجتذاب من يؤرخ للفن أو لعلم الجمال لتبين مفاهيم الجمال كما صيغت وتشكلت ونمت من الزمن الكلاسيكى إلى الزمن الحديث.

أسلوب الكتاب يحاول استقطاب أكبر عدد من القراء فهو يتحدث عن فنون الرسم، والنحت، والعمارة، والسينما، والتصوير الفوتوغرافى، والفنون الزخرفية، وأيضاً عالمى الشعر والرواية، من خلال بانوراما ذكية وثرية لعدة قضايا جمالية. يستقصى فلسفة الجمال عبر الحقب التاريخية، ويختبر ويفحص بعض البحوث والرسائل التى سعت لتعريف الجمال.

لا نقرأ فيه فقط عن مايكل انجلو او بوتشيلى، ولكن أيضاً عن مؤثرات فنون الأزياء المصرية القديمة فى خطوط أزياء الستينيات من القرن الماضى. ونتبين من خلال بحثه التشابه بين تسريحات الشعر فى القرن الثامن عشر، وتسريحات النساء الرومانيات قديماً.

الكتاب يخرج ببراعته المألوف من إطاره الساكن، ويلقى الضوء على ما هو غير مألوف، وهو مزود بصور إيضاحية عالية الجودة وفاخرة المستوى.

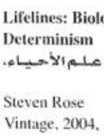
■

Lifelines: Biology, Freedom, Determinism

(أطواق النجاة: علم الأحياء، الحرية، الحتمية)

Steven Rose

Vintage, 2004, 352pp, £ 8.99



يعرض طبيب الأمراض العصبية مؤلف الكتاب ستيفن روز نظرية الحياة والتى تفترض أننا كبشر، وأيضاً بقية المخلوقات، نصنع مستقبلنا بأنفسنا على الرغم مما يحيطنا من ظروف ليست من اختيارنا.

فى هذا الكتاب يعارض المؤلف وبصورة مباشرة نظرية الاختزال والداروينية المتطرفة، عندما يضع الكائن الحى فى مركز الحياة.

كان التوجه السابق يتطرق إلى أن كل جوانب الحياة البشرية .. سواء كانت تفاضلاً جنسياً، أو اغتيالاً للطفولة، أو اتجاهات سياسية، أو عنفاً أو سيطرة ذكورية، أو إدمان كحوليات مخزونة فى جيناتنا، وأنها النتيجة الحتمية للاختيار الطبيعى.

يؤكد المؤلف أن هذا التوجه القديم فيه ادعاءات ليست فقط ساذجة اجتماعياً، ولكنها أيضاً أساءت فهم طبيعة طرق العيش وتميزها بالنشاط والتشابك. يعتبر الكتاب رداً حاسماً على مؤيدى علم الجينات والذين فى رأيه ينكرون تعقيدات الحياة.

■

Feast: Food That Celebrates Life

(الوليمة: الطعام للاحتفال بالحياة)

Nigella Lawson

Chatto & Windus, 2004, 384pp, £ 25.00



الطعام لا يتعلق بوصفة الطهى. الطعام له دلالة أكثر أهمية. دلالة على من نكون؟ وكيف نريد أن نعيش؟ عندما نهتم مثلاً بمناسبة خاصة فإننا نربطها بوجبة أو طعام بعينه، مثل كعكة عيد الميلاد، أو إفطار العرس. ولكن الوليمة لا تتعلق فقط بالمناسبات الخاصة، ولكن أيضاً بكيفية تشكيل الطعام للاحتفال بالحياة.

هذا الكتاب يتعلق بالطعام، والعائلات، والأعياد العامة، والأحاسيس الخاصة وكيف تدخل جميعها فى نسيج الاستمتاع بالحياة اليومية والمناسبات الكبيرة. ينساب من أعياد الكريسماس، إلى عيد الشكر وأعياد الميلاد، ليصب فى عيد الفصح وعيد شم النسيم.

ويستهل الوجبات بالإفطار ليعرض بعدها وجبات الأقارب والأنساب. وينتقل بعدها لمأكولات المواسم من الفراولة، إلى كعكة الشيكولاته، بل ومن طعام حفلات

الكوكتيل وعيد الحب إلى ولائم الجنائز، ومن أفضل الوجبات عند المؤلفة إلى صيام السنة الجديدة.

الكتاب بسيط، كتب بأسلوب سهل غني بالأفكار يتضمن أكثر من ٢٠٠ وصفة طهى من جميع أنحاء العالم، مشفوعاً بأكثر من ١٢٠ صورة ملونة، وبقدر ما يفصح عن إقبال المؤلفة على الحياة والطعام الشهي، بقدر ما يعلمنا كيفية الاحتفاء بالحياة من خلال الاهتمام بالموائد.

■

The Pig Who Sang to the Moon

(الخنزير الذي غنى للقمر)

Jeffrey Masson

Vintage, 2004, 304pp, £ 7.99



يقوم هذا الكتاب بجولة خاصة في دخيلة حيوانات المزرعة .. ما تفكر فيه، وما تشعر به. يوضح المؤلف بجلاء أن لهذه المخلوقات مشاعر عميقة، بل ومعقدة تتراوح بين الحب، والولاء، والصداقة، وبين الحزن والأسى.

الحيوانات الأليفة في المزرعة بقدر ما يدور في داخلها بقايا الوحشية التي نشأت في أصولها، بقدر ما تحتفظ في ذاكرتها بأيام الانطلاق والحرية كما عاشها أجدادها. إنها تعاني في المزرعة من مشاعر الخضوع والبقاء على هذا الحال.

يناقش مؤلف الكتاب سعادة الحيوان، وارتهان ذلك بالعيش في ظروف تسمح له بسلوك طبيعي تشعره بهذه السعادة.

■

killing Freud

(قتل فرويد)

Todd Du Fresne

Continuum, Nov 2003, 224pp, £ 16.99



يشن هذا الكتاب هجوماً على كلٍ من الثقافة النظرية، والثقافة التطبيقية العلاجية، موضحاً أن معظم الحقائق المتعلقة بالتحليل النفسي تعتمد على القراءة الخاطئة، وسوء الفهم، والزيف الصاخب.

يصلح هذا الكتاب للقراء المهتمين بتاريخ التحليل النفسي وعلوم الإنسان. فهو خريطة لكنوز فرويد أو فيصل بين نظرية رفيعة وثقافة متدنية.

ويعتبر بالتالي إعادة تقييم جادة لعلم التحليل النفسي ووضعه في المكان الصحيح في القرن العشرين.

■

Odyssé américaine

(الأوديسة الأمريكية)

Alexandre adler

Ed.grasset, 17 euros



الكسندر ادلر هو واحد من المفكرين اليهود الذين شن عليهم المفكر الاسلامي طارق رمضان حملة عنيفة تسببت في اتهامه بمعاداة السامية. و في كتابه الاخير«الاوديسة الامريكية»، يرسم ادلر صورة وردية للعالم تحت السيطرة الامريكية في المستقبل، فنظريته الجديدة تتلخص في أن النظام السياسي الامريكي الذي يقوم على الفصل الصارم بين السلطات، يمكن أن يكبح الميول الامبريالية فيه. ويرى ادلر إن النموذج الامريكي هو الوحيد القادر على أن يقود العالم إلى المستقبل، نظرا لقدرته على امتصاص كل الأفكار الوافدة إليه.

وعلى العكس من المجتمع الأمريكي يبدو المجتمع الأوروبي في نظر ادلر وكأنه يتمسك بنماذج مجتمعات ما قبل الحرب، ليست لديه القدرة على استيعاب الافكار الجديدة والتعامل معها، ويخلص ادلر الى انه مجتمع «يتصور أنه يبني عالما جديدا بينما هو في الواقع عالم يتجمد بانغلاقه على نفسه»، أما أمريكا فهي «المعمل العالمي للديمقراطية، الذي وجدت فيه كتل كبيرة من الشعوب مثل الأيرلنديين و اليهود والألمان حرية لم تجدها في مجتمعاتهم الأصلية على حد قوله .

ويؤمن المؤلف بأن أمريكا قادرة على أن تخرج نفسها بنفسها من أزماتها، كما أنها قادرة على أن تقود أوروبا والعالم من بعدها إلى طريق جديد للرأسمالية التي يخرج منها الكل منتصرا.

■

The Medici: Godfathers of the Renaissa

(عائلة دي ميديتشي: الآباء الروحيون لعصر النهضة)

Paul Strathern

Pimlico, 2004, 256 pp, £ 8.99



يروي لنا هذا الكتاب تاريخًا رائعًا لعائلة متواضعة، عزمت على الظهور وأصبحت إحدى أقوى العائلات نفوذاً في أوروبا... أنها قصة عائلة ميديتشي التي تعددت أنشطتها بين النفوذ، والسلطة، والمال، والطموح.

يكشف لنا المؤلف من خلال كتابه عن درامية نهوض وسقوط عائلة دي ميديتشي في فلورنسا، وكذلك صعود وهبوط النهضة التي ساهمت فيها هذه الأسرة بالتمويل والتشجيع.

وبالإضافة إلى تتبع المؤلف لحياة كثير من عظماء الفنانين في عصر النهضة الذين تعاملت معهم هذه الأسرة مثل دافنشي، وانجلو، ودوناتلو، تتبع أيضاً أسماء علماء وعظماء.

أمثال جاليليو وبيكو ديلا ميراندولا. كما أحصى المؤلف ثروات أعضاء هذه العائلة الذين حققوا نجاحاً خارج فلورنسا ومنهم اثنان من الباباوات.

فضلا عن كاترين دي ميديتشي التي أصبحت ملكة فرنسا، ولعبت دوراً حيوياً في هذا البلد خلال ثلاثة عهود اتسمت بالاضطراب.

■

Namier

(نامير)

Linda Colley

Pimlico, 2004, 144pp, £ 10.00



اعتبر ليوس نامير قبل وفاته عام ١٩٦٠ أهم وأذكى مؤرخ في العالم الغربي. واختص تعبير الناميرية NAMIERISM في اللغة الإنجليزية بوصف أسلوب مميز من الكتابة كما أنه يرمز للتفكير في الماضي.

وبالرغم من سمعته وشهرته التي لم تكن لها حدود، فإن مؤلفاته المتنوعة نادرا ما تقرأ اليوم أو حتى تفهم بشكل صحيح.

هذه الدراسة الذكية تسعى فيها المؤلفة، وهي مؤرخة بريطانية معروفة، لإعادة تقييم إسهامات نامير وتاريخ بريطانيا وأوروبا.

كما تحاول الكشف عن همزة الوصل بين مجموعة الاضطرابات التي طرأت على حياته، مع محاولة البرهنة على أنه مؤرخ اجتماعي وليس فقط مؤرخا سياسيا.

بالإضافة إلى إلقاء الضوء على بعض التناقضات التي رسمت مستقبله المهني متسائلة كيف تمكن دارس أصله أجنبي أن يصبح مؤرخا جليلا لصفوة السياسيين في بريطانيا.

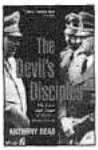
■

The Devil's Disciples: The Lives & Times Of Hitler's inner Circle

(أتباع الشيطان، حياة وأوقات دائرة هتلر الداخلية)

Anthony Read

Pimlico, 2004, 512pp, £ 9.99



النظام النازي كان في أساسه دينياً طائفياً، معتمدا ومرتكزا على شخصية رجل له تأثير مغناطيسي هو أدولف هتلر..

وقدر لهذا النظام أن يموت معه. أثناء النازية كان أقرب لواءات الجيش يتنافسون بشراسة من أجل السلطة، أو الطموح لأن يمسك أحدهم بزمام الحكم من بعده.

كتاب أتباع الشيطان هو أول كتاب رئيسي للعامة.

يسعى للتعريف بهؤلاء اللواءات عن قرب.

ليس فقط كأفراد، ولكن أيضا كمجموعة. إنه يركز على أقرب ثلاثة من أنصار هتلر وهم: هيملر، وجوبلز، وجورنج.

بالإضافة إلى أقرب منافسيهم وهم: ريبنتروب وسبير، وبورمان.

يظهر هذا الكتاب كيف تطورت شخصيات الدائرة المقربة من هتلر، وكيف أثرت علاقات الغيرة بينهم، وخداعهم المستمر، في نظام الحكم والحرب... وفي هتلر نفسه.

■

كـــــتب ألمـــانيــــــة

Wladimir Putin
(فلاديمير بوتين)
Boris Reitschuster
Rowohlt Berlin 2004 ,
EUR 19,90



من هو فلاديمير بوتين؟ فهو يحكم بلاده بقبضة من حديد و برغم ذلك فإن شعبيته فى بلاده كبيرة ويعتبره قادة الغرب شريكاً يعتمد عليه.

يتناول رايتشوستر فى كتابه «فلاديمير بوتين» قصة صعود بوتين السلم السياسى ونجاحه الساحق فى انتخابات الرئاسة عام ٢٠٠٠ حيث تفوق على منافسه بنسبة أصوات تفوق ٥٠٪. لماذا استطاع بوتين بالذات والذى حتى أغسطس/آب ١٩٩٨ لم يكن قد ظهر على الساحة السياسية بعد الجلوس على مقعد السلطة؟ كيف استطاع أن ينتشل روسيا من الكوارث وأن يؤثر فى مستقبل أوروبا؟ يحاول رايتشوستر الإجابة عن هذه الاسئلة فى كتابه الجديد.

■

Die Bush Bilanz
(رصيد بوش)
Elmar Theveben
Droemer/Knaur 2004,
EUR 18



عندما نشرت الصحف للمرة الأولى صور التعذيب بسجن أبو غريب بالعراق أجمع المحللون على أن بوش وادارته قد فقدا مصداقيتهما. ولكن بوش كان قد فقدها قبل ذلك بكثير. هذا ما يوضحه تيفسن صحفى المانى الجنسية عمل ست سنوات كمراسل للتليفزيون الألمانى بالولايات المتحدة الأمريكية. يراجع تيفسن «رصيد بوش» ويستعرض الأساليب الملتوية التى فازبها فى الانتخابات.

■

Zwoelf Gramm Gluek
(اثنا عشر جراما من السعادة)
Feridun Zaimoglu
Kiepenheuer und Witchveralg,
2004, EUR 17,90



اثنتا عشرة قصة عن الحب ، عن نجاحه ومعاناته يقدمها زايمجولو فى كتابه الجديد. تدور أحداث أول سبع قصص «فى الدنيا» فى مدن ألمانية كبرى مثل برلين وهامبرج. أما الخمس قصص الأخيرة قصص «الأخرة» فتدور أحداثها فى مناطق قروية نائية فى منطقة الأناضول حيث هاجر زايمجولو ووالداه الى ألمانيا قبل أكثر من ثلاثين سنة.

يلاحظ القارئ ، على الرغم من تقسيم القصص الى جزءين مختلفين ، أن قصص «الدنيا» لا تختلف كثيراً عن قصص «الأخرة». فالجزء الأول تدور أحداثه حول المهاجرين الأتراك الذين يعيشون فى الغرب فيما تدور أحداث الجزء الثانى حول غربيين اتخذوا من بلاد شرقية منغلقة على تقاليد و مبادئ دينية. فى الجزءين يبحث الجميع عن الحب والسعادة.

■

Das Tier das weint
Libanisches Reisetage Buch
(الحيوان الباكى: يوميات رحلة لبنانية)
Michael Kleeberg
Deutsche Verlagsanstalt 2004,
EUR 17.9



يستعرض كتاب ميشيل كليبرج رحلته الى لبنان التى استغرقت أربعة أسابيع ضمن برنامج أدبى. بأسلوب شيق يسرد الكاتب يومياته فى لبنان وعلاقته المتميزة مع الاديب العربى عباس بيضون رئيس تحرير صفحة الثقافة بجريدة السفير اللبنانية. يصف الكاتب لقاءاته العديدة مع كتاب عرب و ألمان على أرض مشتركة للفلسفة والأدب. عدد كبير من المشاهد والذكريات تضفى البهجة على كتاب كليبرج. فيحكى على سبيل المثال عن قصة الزوجين أورسولا الألمانية ويوسف عساف اللبنانى اللذين خاطرا بحياتهما لابقاء أبواب معهد جوتة مفتوحة أثناء الحرب الأهلية اللبنانية.

■

Nadia Budde Selbstdenken!
(فكر بنفسك: ٢٠ تطبيقاً للفلسفة)
Jens Soentgen
Peter Hammer Verlag 2003,
EUR 19.90



نجح ينس زونتغن فى أن يجعل من الفلسفة أمرا مبسطاً ومفهوما، وأن يقدمها فى حلة مسلية وطريفة. إن هذا الكتاب المقتبس عن كتاب ارسطو Topik يطرح عشرين تطبيقا للفلسفة، ويوضح كيف يمكن للمرء أن يستعملها بطريقة مثمرة. إنه يقدم العديد من الحوافز التى تساعد على قدح زناد الفكر ، ليس فقط عبر الأمثلة المسليةولكن ايضا عبر تمارين تطبيقية أو اقتراحات ألعاب، عن طريقها تتيح للقارىء الفرصة لتطبيق ما يقرأ.

■

In Deutschland Leben
Ein Gespr?ch mit Wieland Freund
(أن تعيش فى ألمانيا.. حديث مع فيلاند فروبند)
SAID
Verlag, 2004 , EUR 14.9



يتحدث سعيد مع الصحفى الألمانى فيلاند فروبند الذى يصغره بعشرين عاماً عن حياته فى ألمانيا. فى البداية يسترجع سعيد طفولته فى ايران بداية رحلته وانطباعاته الأولى بعد وصوله إلى ألمانيا حيث لم تكن ألمانيا وحدها المنفى بل اللغة أيضاً. يصف سعيد انغماسه فى الحياة الألمانية و عمله السياسى مع منظمة طلاب ايرانية. فى حوار ذاتى عاطفى يتحدث سعيد مع فروبند فى خمسة موضوعات. فحديثه الأول يتناول الشخصية الألمانية سلوكها وروحها. يتناول حديثان من الأحاديث فترات هامة من التاريخ الألمانى كزيارة شاه إيران لألمانيا وحركة الطلاب التى أعقبت ذلك و سقوط سور برلين و الأحداث و التغيرات التى أعقبت ذلك. تتناول الأحاديث الأخرى الأدب و السياسة وموقف السياسة من الثقافة فى ألمانيا.

■

Das Handwerk des Toetens
(أداة القتل - رواية)
Norbert Gstrein
Suhrkamp Verlag, 2003,
EUR 22.90



ثلاثة صحفيين وامرأة يبحثون عن القصة الحقيقية فى رواية الأديب نوربرت جسترابن «أداة القتل» والذى حاز من خلالها مؤخراً جائزة «اوفى يونسون» الألمانية. يحاول أبطال الرواية الثلاثة من خلال الأحداث أن يجيبوا عن سؤال الا وهو: هل من الممكن تقليص حرب الى رواية فى وقت تؤثر فيه الدعاية والإعلام تأثيراً كبيراً على حياتنا.

تدور أحداث الرواية خلال حرب البلقان حول كريستيان الماير صحفى نمساوى يلقى حتفه غدراً فى كوسوفو عام ١٩٩٩. يترك الماير وراءه عدداً لا بأس به من مذكراته وسجلاته الخاصة الى جانب تسجيل صحفى مع القائد الكرواتى سلافكو الذى يسأله الماير عن شعوره عندما يقتل نفساً. تودى به اجابة هذا السؤال الى التهلكة.

تدفع نهاية الماير المأساوية صديقه بول صحفى وكاتب أدب الرحلات الى كتابة رواية عن صديقه فيبدا بتقصى المعلومات عن حياة الماير وأعماله الصحفية فى مناطق القتال بكرواتيا والبوسنة بمساعدة صديقته هيلينا وصحفى أخر والذى تأتى الرواية على لسانه.

■

كتاب الزاوية

تحديث القاهرة

على مبارك

صدرت الأوامر الخديوية لديوان الأشغال، ونحن به، لتوسعة الشوارع والحارات وتقويمها، وتجديد ما يلزم تجديده منها. لتكون شوارع المدينة (القاهرة) ومبانيها كافية صالحة لأحوالها الحاضرة من اتساع دائرة التجارة والثروة التى اكتسبها القطر، إذ بذلك كثرت عربات الركوب وعربات البضائع والعمائر، فصار غير لائق بها بقاء الحالة القديمة على ما كانت عليه من ضيق الحارات والشوارع واعوجاجها، إذ كان الازدحام بها يترتب عليه النصب والعطب الخطر والضرر. وكان قبل ذلك رسم القاهرة محولاً على فرقة من المهندسين تحت رئاسة المرحوم محمود باشا الفلكى، فرسموها على ما كانت عليه، وبناء على هذا الرسم كتبت الإشارة فوقه بعمل هذه التنظيمات الموجودة بالمدينة المشاهدة الآن، مثل شارع محمد على وميدانه، وشوارع الأزبكية وميدانها، وما بعابدين من الشوارع ونحوها، وباب اللوق وغير ذلك مما هو بداخل المدينة وخارجها، وجرى العمل على ذلك. فظهرت كل هذه المبانى الحسنة والشوارع المستقيمة المتسعة المحفوفة بالأشجار الخضرة النضرة المستوجبة للقادمين على المدينة انشراح الصدور والفرح والسرور، وأزيل ما كان بجهتها البحرية من التلال التى كانت تمتد من جهة الفجالة إلى قرب باب الفتوح.

ثم تبرع الخديو إسماعيل باشا على الراغبين بمواضع كثيرة، فأنشأوا بها المبانى المشيدة والبساتين العديدة. وناهيك بقصور الإسماعيلية ودورها وبساتينها وشوارعها التى يكل الوصف عن محاسن بهجتها وأحاسن رونقها ونضرتها.

الكتاب وجهات نظر رسائل

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات، وتحرص على نشرها، مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

دروب الحياة

الأستاذ سلامة أحمد سلامة رئيس التحرير: قرأت مقالتكم الأخيرة بعدد سبتمبر من مجلتكم الموقرة «وجهات نظر» وأصابتنى ردود فعلكم مع الانتكاسة الصحية الأخيرة التى ألمت بكم وطحنتك كما يبدو خلال مقالكم.. أصابتنى تلك الردود بحزن عميق لما يعترى الإنسان الناجح الفعال المؤثر فيما وفيمن حوله بالجزع الشديد عنصر الإحساس بخطورة المرض وخوف فقد الحياة الواسعة المؤثرة.. هذا بينما . من خلال عملى كطبيب حوالى ثلاثين عامًا حتى الآن . أرى أن هناك قسمًا آخر من البشر أصابه ما أصاب سيادتكم بعنف ولكنه جلس آمنًا سالمًا ينتظر نهايته فى هدوء غريب.. ما هى المسألة.. المسألة أنك وأنت على سرير المرض الشديد الداهم وشبح الموت يتراقص من حولك كنت محبطًا جدًا وشعرت أن مشوار حياتك لم يفض إلى شىء مما كنت تريده.. فأنت يا أستاذ سلامة صاحب عقل مدرك لمشاكل وطنك بكل ما يحمله هذا الاسم من فسيفساء عديدة والمشكلة الأخطر أنك تحب هذا الوطن عظيمًا محترمًا قادرًا لا ذليلاً وهينًا عاجزًا.. وهنا أحسست بالهوان وأنت تعبر اختبار الموت.. لا يا أستاذ سلامة.. حتى لو سافرت إلى جبال سويسرا ونعمت بهدوئها أو سافرت إلى هاواى ونعمت بحياتها فلن تشعر بهدوء.. لأن الإحساس بالنيران داخل صدرك وليس فى نقطة واحدة محددة.. اذهب إلى الريف المصرى الذى نشأت فيه وابحث عن حقوله الباقية وطيور سمائه الآمنة واشتر سنارة لصيد الأسماك فى ترعة القرية واختر بضعة من العوام الدهماء لتتجاذب معهم أطراف حديث عشوائى لا ينتهى.. فقط هناك.. أو هنا.. ستشعر بالراحة والهدوء وربما.. تعيش أطول.

د / سمير عنتر
استشارى حميات . الهرم

«وجهات نظر» بين الفكر العربى والغربى

يشرفنى أننى من قراء المجلة منذ صدور عددها الأول من ست سنوات وسعدت بالمستوى الفكرى والأدبى الرفيع لموضوعات المجلة وإن كنت لا أتفق دائمًا مع ما تضم من آراء.

وقد لاحظت أن بعض الموضوعات أصبحت عرضًا لكتب مترجمة ـ وهذا مطلوب إلى حد ما. ولكن تزايد هذا الاتجاه عددًا بعد آخر حتى وصل فى العدد السابع والستين إلى أن يشغل ثمانين فى المائة من صفحات المجلة تقريبًا (١١ موضوعًا من ١٣) مما يجعل المجلة تقرب من أن تكون عرضًا للكتب (book review) ووضع مجلة «وجهات نظر» رفيعة المستوى على هذا الشكل يتضمن أمرين:

الأول: أننا أصبحنا عالة على الفكر الأجنبى (والغربى بالتحديد).

والثانى: أن مصر والعالم العربى قد خلوا من كاتب يملك القدرة على الخلق والإبداع الفكرى.

وكلا الأمرين يثيران تحفظًا وتساؤلاً.

أرجو أن يكون لدى هيئة تحرير المجلة تفسير لهذه الملاحظات (ولا أقول المآخذ).

دكتور/ أمين الجمل
المدير التنفيذى للجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية

القوة.. والعدل

الأستاذ الصياد قراءتك (أغسطس ٢٠٠٤) مكثفة وعميقة وهى تقلب الأوجاع وتذكرنا بمقولة شهيرة لداهية الدبلوماسية كيسنجر: القانون الدولى أشبه بخيوط العنكبوت لا يصطاد إلا الضعفاء.

د. عصام عبد الله
آداب عين شمس

ربما كان مقالك الأخير فى غاية الجمال وأنت تتحدث عن مفهوم القوة، ولكن أليست العشرة جنيهات «قوية» على القراء غير القادرين على ثمن المجلة؟ هل لديكم شجاعة لنشر رأيى؟

عمر أحمد ضيف الله
محاسب

رسائل

وجهات نظر

الكتب

رأى

«العامل الدينى» والصراعات الإنسانية

عندما وصف البعض الحرب التى يشنها الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية على (الإرهاب) بالحرب الصليبية، تصدى البعض لنقد تلك المقولة ودحض ذلك الوصف.

فقد اعتبرها بعضهم مزاعم ليس إلا، مدعين أن هذه المقولة فيها مغالاة وهى مستقاة من فكر وعقلية (المؤامرة) السائدة فى الذهنية العربية والإسلامية حسب زعمهم ـ وكأن هذا الفكر أو تلك العقلية استولت على عقولنا من كوكب خارجى وهمى أو تخيلناها فاقتنعنا بها ومن ثم لصقت بنا بمحض الصدفة وبإرادتنا ـ وتناسوا أنها وليدة ونتيجة لأحداث زؤام عاشها ويعيشها العالم الثالث والذى يشكل العرب والمسلمون الغالبية العظمى من سواده.

فيما فسر البعض الآخر هذه الحرب على أساس التناقض الموجود بين مجتمعات مختلفة بعضها تشكل كإفراز طبيعى للتطور الاجتماعى والحضارى ونعم بالديمقراطية (المجتمعات الغربية)، فيما المجتمعات الأخرى بقيت تعيش فى تخلفها وجهلها وتعصبها (المجتمعات العربية الإسلامية) ولم تستوعب التطورات الحضارية ولم تنعم بالديمقراطية.

وسواء أصحت الرؤية التى يمتلكها الفريق الأول أم الرؤية التى يمارسها الفريق الثانى فالثابت هو وجود قواسم مشتركة بين كل تلك التسميات، فبينما يفصح عنها الفريق الأول مباشرة بادعائه أن ما يجرى هو حرب «صليبية»، مستنداً فى ذلك على الكثير من الوقائع والأحداث التى يغلب عليها الطابع «الجيودينى»، والتى تدعم ادعاءه، يحاول الفريق الثانى القفز على الحقائق رغم جعجعة كل أنواع السلاح والذى لم يعد يسمع غير صوته من خلال حربى القرن الحادى والعشرين فى أفغانستان والعراق أو من خلال حروب القرن الماضى (الحروب العربية الإسرائيلية، وحربى الخليج الأولى والثانية)، والتى بتقديرى يمكن إسقاطها كمقدمات وجزء من الصورة الشاملة للصراع.

إن الدراسة المتأنية للتاريخ ومنذ نشأة البشرية وظهور الاتصال الأول بين السماء والأرض عن طريق الرسل والأنبياء تدل على وجود وتوافر دوافع وعوامل بشرية نفسية طبيعية، حتمت ظهور ونشوء مثل هذه الصراعات والتى كانت فى جزئها الأكبر والأعنف والأشمل (صراع ديانات)، والتى كانت ومازالت وستبقى حقيقة لا يمكننا إنكارها أو القفز عليها إذا اردنا مواجهتها ومعالجتها.

لا بل إن تلك الصراعات الدينية كانت ومازالت قائمة حتى بين اتباع الديانات الواحدة من خلال التناحر الدرامى بين طوائفها لا بل وحتى داخل الطائفة الواحدة أحياناً.

ومع اختلاف الأزمنة والعصور وتغير وتنوع المعايير، والتطور الهائل الذى شهدته التجمعات البشرية وإن بتفاوت، فقد تطورت أشكال الصراعات الإنسانية وعناوينها بما يتناسب مع تطور ورقى المحيط البيئى والبنية التحتية المحيطة حيث أصبحت تأخذ مسميات (حضارية) كالحرص على إحلال الديمقراطية ومحاربة الدكتاتورية والعناية بالفرد (الإنسان) وحقوقه، هذا الفرد الذى دفعته وربما أجبرته حالة التحضر النسبى الظاهرى لبعض المجتمعات على لبس هالة تكسو بنيانه الخارجى بقشور ذلك التطور فى الوقت الذى احتفظ فيه بأعماقه بجذوة متقدة من تلك العصبية الدينية أو القومية.

إن مثل هذا الإنسان ومع الكثير من السلطة والأحلام والرؤى (السماوية) لابد أن يشكل خطراً كبيراً على الإنسانية جمعاء لأن اندفاعه لتحقيق رؤاه وتجسيد إيمانه لن يحكمه أى ضابط وسيغالى حتماً فى استخدام العنف لأتفه الأسباب، وقد يكون على استعداد لأن يعيد البشرية جمعاء إلى طبيعتها الأولى طبيعة الغاب ويلغى الشرعية الدولية، ويغلق أبواب الحوار ويحول كل اختلاف إلى صراع أو حرب على الإرهاب «الهدف» لا سيما إذا أيقن أن فترة تسلطه وإمساكه بزمام السلطة هى فرصته الأخيرة ولن يكون بوسعه ترشيح نفسه لدورة ثالثة.

د. يوسف الفقهاء

كتاب الزاوية

العمل بنظام المسئولية التضامنية لمجلس الوزراء

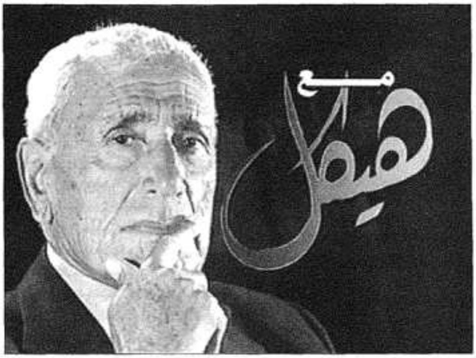
علـى مبــارك

فى سنة ١٨٧٨ ميلادية تشكلت هيئة نظارة يرأسها دولتلو نوبار باشا، فكنت من رجالها ناظرًا على ديوانى الأوقاف والمعارف. وصدر الدكريتو من لدن الحضرة الخديوية من منطوقه أنى أريد عوضًا عن الانفراد المتخذ الآن طريقًا فى الحكومة المصرية أن تكون لهذه الهيئة إدارة عامة على المصالح، بمعنى أنى أروم القيام بالأمر من الآن فصاعدًا بالاستعانة بمجلس النظار والاشتراك معهم فى تسيير المصالح، وأن يكون أعضاء مجلس النظار كل منهم كفيلاً بالآخر، يتفاوضون فى جميع المهمات، ويتداولون الرأى فيها، ويقررون ما تستقر عليه أغلبية الآراء، وتصدر قرارات المجلس على حسب الأغلبية، وأقررها بالتصديق عليها، ثم ينفذها النظار. فجرى العمل بذلك، وأخذت هيئة النظارة فى إدارة المصالح على هذا النمط، وشرعت فى تسديد الديون من دخل البلاد ومن قرضة استدانتها من بنك روتشلد بلوندره وهى ثمانية ملايين ونصف مليون من الجنيه الإنجليزى، ورهنت فى ذلك أملاك العائلة الخديوية من أراض زراعية وغيرها بعد تنازلهم عنها للحكومة، وكان مبلغ إيرادها سنويًا أربعمائة ألف وستة وعشرين ألف جنيه إنجليزى، وجعلت لإدارة تلك الأملاك مصلحة مستقلة عرفت بمصلحة الدومين (الأملاك).

وفى تلك المدة صرفت ما فى وسعى فى توسيع دائرة المعارف، فشرعت فى بناء بعض المدارس كمدرسة طنتدا (طنطا) ومدرسة المنصورة، وفى تكثير عدد المكاتب وترتيب المدرسين وما يلزم للتعليم من أدوات وكتب.

قــــــــراءة ..

أســـــــئلة هيـــــكل



على مركب في الخليج العربي، وبمناسبة ختام مهرجان سينمائي «محترم» نظمه قبل حوالي العام المجمع الثقافي بأبو ظبي، جمعتني طاولة الغداء مع المخرج السوري المعروف محمد ملص. ويومها حكى لي، حين عرف علاقتي بهذه المطبوعة: «إننا كنا في مقتبل العمر، وحين لانجد في جيوبنا ثمن الجريدة، نقرأ أهرام الجمعة معلقًا عند باعة الصحف حتى لا يفوتنا ما كتبه (الأستاذ) في مقاله الأسبوعي (بصراحة)». تذكرت ساعتها - وحكيت بدوري - كيف كانت معلمتنا تطلب منا أن نلخص «بصراحة/هيكل» أسبوعيًا، لتختار منا من يقرأ الملخص أمام الفصل كله في حصة صباح السبت. كانت الأيام غير الأيام.. وكنا وقتها في الصف الخامس الابتدائي. وكان «هكذا» مستوى تعليم القراءة والكتابة والإلقاء.

في فصلٍ صغير في مدرسة «النصر» الابتدائية بالسنطة في قلب دلتا النيل كنا نقف لنقرأ «هيكل». وعلى قارعة الطريق في «القنيطرة» السورية، كان محمد ملص ورفاقه يقفون ليقرأوا «بصراحة».

تذكرت المشهد واتساعه، حينما عرفت من الزملاء في «الجزيرة» أن نسبة المشاهدة للقناة وقت بث برنامج «مع هيكل» على مدى الشهرين الماضيين بلغت أرقامًا غير مسبوقة. وكنت قد لاحظت أن رسائل القراء/ المشاهدين إلى موقع «وجهات نظر» على «الجزيرة نت» قد سجلت أعلى نسبةٍ من ردود الفعل. كما أن الموضوعات التي طُرحت في الحلقات كانت مادة لكثير من منتديات النقاش العربية على الإنترنت، والتي كانت قد اعتادت لسنوات أن يستغرقها الجدل حول أسامة بن لادن ومن بعده الزرقاوي.

وفي حين كان مفهومًا أن أفكارًا بهذه الأهمية، من رجلٍ بهذا الحجم والتاريخ، ومن على منصة لها هذا الذيوع والانتشار، لابد لها أن تجد ما وجدته من صدى. إلا أن المراقبَ عن كثب لابد وأن يستوقفه ما بدا في بعض الحالات من غيابٍ لثقافة الاختلاف، ومن استقطابٍ كاد يصبح مرضًا في حياة العرب الفكرية. فرأينا من يقف في مربع لايعكس في واقع الأمر «رأيه» اللاحق في الموضوع، بل «موقفه» المسبق من الآخر. ورأينا كيف اختلف المختلفون - أو بعضهم - لا على آراء قالها هيكل - رغم أهميتها - وإنما مع هيكل نفسه. بعد أن استخرجوا من أعماق ذاكرتهم، ومن مخزون ذكرياتهم، ومن جديد حساباتهم - ربما - موقفًا «معلبًا» سابق التجهيز.

ورغم اتفاقٍ بدا على أهمية ماقام به الأستاذ من «طرق على الطاولة».. تذكيرًا ببديهيات «تعرضت أو كادت للإهدار والإنكار في خطابنا السياسي والثقافي»، خرج البعض عمّا بدا إجماعًا ليعتبرَ «أحاديثَ المستقبل» اجترارًا للماضي (!) مذكرًا «باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح»، ونافيًا حقائق التاريخ والجغرافيا. كما كان لافتًا - ومحزنًا - أن البعض جرفته المسائل الفرعية بعيدًا عن القضايا الرئيسية. فبعض التعليقات تجاهلت ما قاله الأستاذ لتتساءل لماذا الجزيرة.. ولماذا قطر؟ وبعضها - وكان ذلك غريبًا - لم يلتفت أصلاً إلى الأفكار والآراء والقضايا التي ازدحمت بها عشر ساعات من البث عن «ما نواجهه الآن» مصممًا على أن تتوقف به عجلة التاريخ عند العام السابع والستين من العقد الأخير في القرن الفائت. وهو عَرَضٌ وصفه الأستاذ في حديثه بثقافة الهزيمة. وكان قد حذر منه في «وجهات نظر» من قبل: حين يقصد القاصدون «أن تظل الأمة حبيسة لإحساس الهزيمة وأسيرة لذلها حتى تقبل في أمورها الداخلية والخارجية ما هو مطلوب منها أن تقبله، دون مراجعة أو احتجاج..».

هل نعاني فعلاً من ثقافة الهزيمة؟

لم يكن هذا سؤال هيكل الوحيد في حلقات «الجزيرة». فأسئلة الحاضر والمستقبل و«الأيام القادمة» كانت كثيرة. وضعها أمامنا، وأمام أجيال قادمة رجلٌ يحرص دائمًا على أن يقول أن «أيامه وراءه».

عن شأن العرب الجاري، كان حديثُ هيكل، وكانت أسئلته، وكانت طرقاتُ مطرقته/قلمه على الطاولة: منبهةً ومحذرةً.. وغاضبة. في زمنٍ هو بالضرورة غير زمانٍ «عربي» كان محمد ملص يشبُ فيه على أصابع قدميه ليقرأ «بصراحة» معلقةً على الحائط. وكانت «الأستاذة عطيات» تطلبُ من تلاميذها الصغار أن يلخصوا مقالَ الجمعة. فالعرب - وإن لم يعترف البعض - في مواجهة الطوفان. وهو طوفانٌ. وبغض النظر عن الاختلاف حول الأسباب، أو حتى الوصف و«التكييف». تتسارعُ وتيرتُه وتتلاطمُ أمواجه.. وككل طوفانٍ - وبحكم الطبيعة - يتسع إطاره الجغرافي: من تدمير وإنهاءٍ بات واقعًا لقوةٍ كانت مفترضةً في وادي الفرات، إلى غيوم تجمعت داكنةً في الأفق الجنوبي لوادي النيل. ومن محاولات لمحو قضية العرب المحورية في فلسطين «نهائيًا»، إلى محاولاتٍ لمحو الهوية ذاتها، بدعوى التطوير أو التشذيب. ومن ملاحقاتٍ عنصريةٍ بالتوقيف و«التبصيم» في المطارات والموانئ، إلى مطالبات بالتغيير، تحملُ شكلاً واسمًا عنوان «الإصلاح» أو «الشراكة» وتأخذُ - بواقع منظومة العلاقات والقوى - سلطةَ الجبر. وإن أبدى المجبورون - مع اختلافِ أسبابهم - غيرَ ذلك. محاولين «هم أيضًا» تسميةَ الأشياء بغير أسمائها - رافعين حينًا شعارَ الواقعية، ومحتمين حينًا آخر بحكمة «بيدي لا بيد عمرو» - أو مؤكدين - إعلاميًا على الأقل - أننا already على الطريق: فالنساءُ مُمَكّنات.. وتطوير التعليم على قدمٍ وساق.. والديمقراطيةُ «مطابقةٌ للمواصفات».. وكل شيء إذن على ما يرام. ولسنا - نحن - المقصودين بالخطاب أو المطالبة.

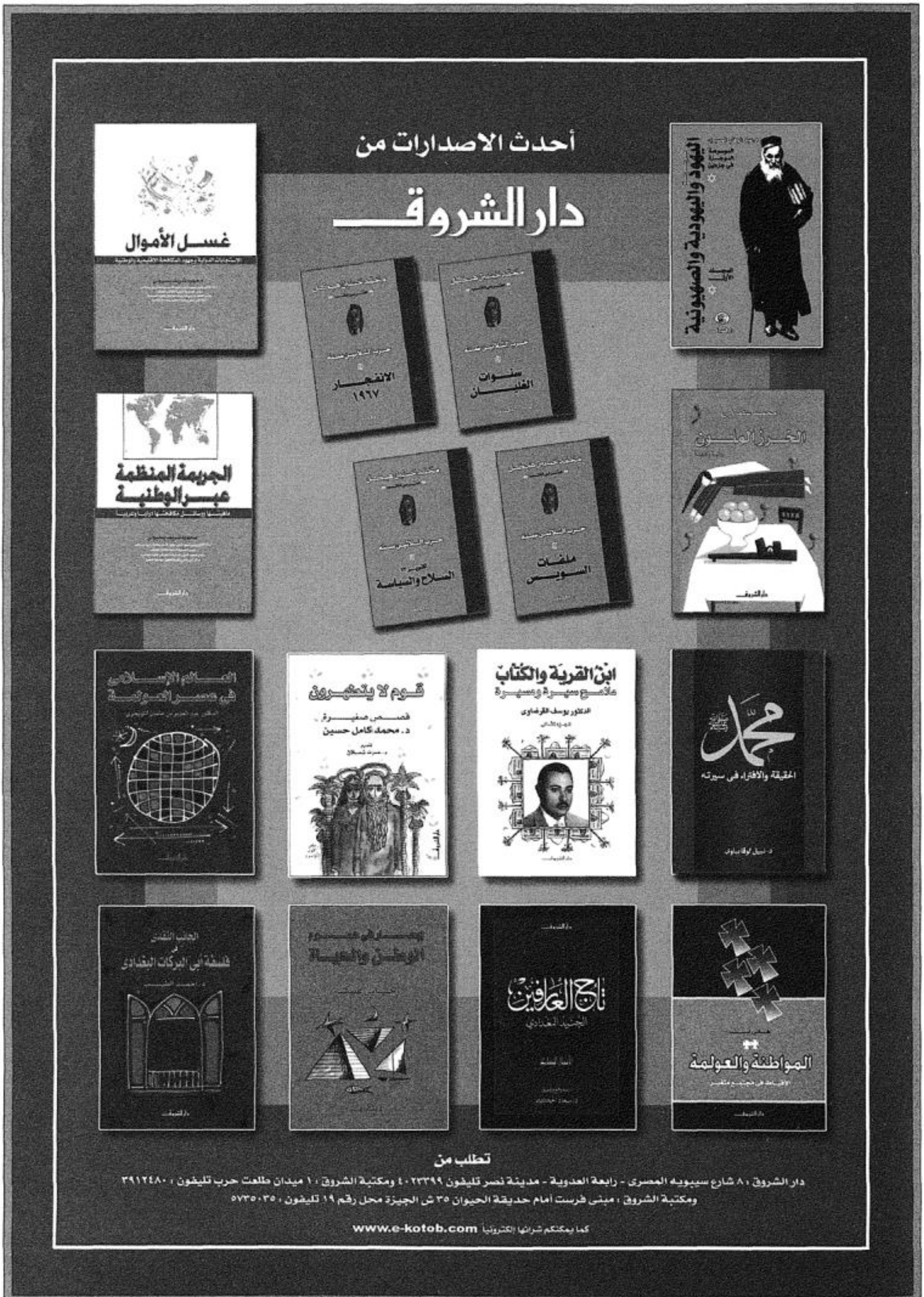
ماذا قال الأستاذ هيكل عبر «الجزيرة»؟

كما لم يكن سهلاً على ابن الحادية عشرة تلخيص «بصراحة» في تلك الأيام البعيدة، يصبح من قبيل المغامرة غير المأمونة محاولة الإحاطة في تلك السطور القليلة بكل ماطرحه الأستاذ من أفكار على مدى عشر ساعات كاملة. وإن كنت - شخصيا - أود التذكير بماقاله بشأن قضية الإصلاح، والجدل الذي بدا سفسطائيا بين أن يأتي الإصلاح «من الداخل أو من الخارج». أوضح هيكل على «الجزيرة» ماكان قد فصله سابقًا من أنه وإن كان يتحفظ على مقولات الإصلاح الأمريكي، إلا أنه يستغرب بعض ما يرى ويسمع، «لأن طلب الإصلاح الأمريكي المزعوم للمجتمعات العربية ليس أول ما يقدم إلى عدد من النظم العربية.. ثم يكون جوابه السمع والطاعة».

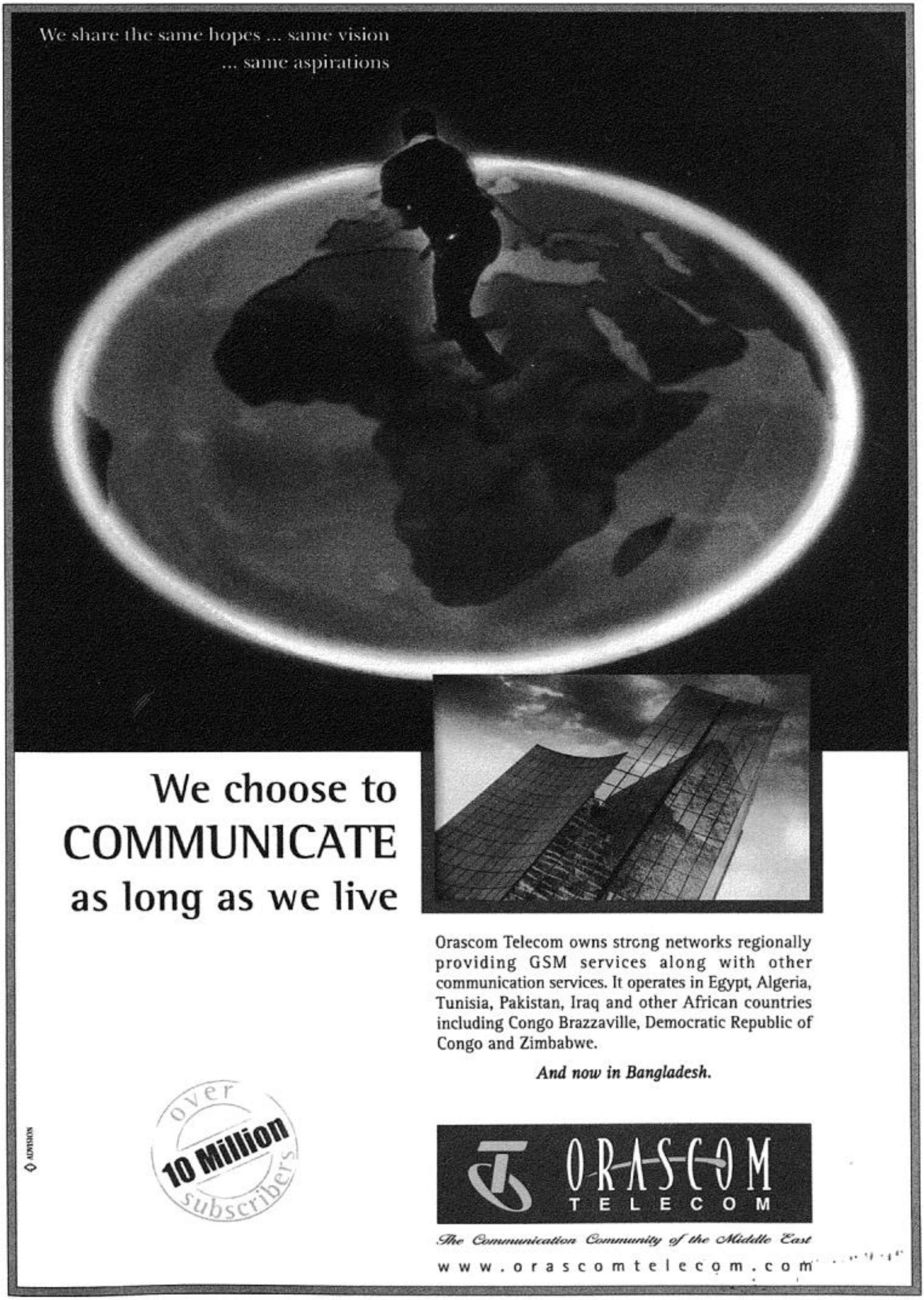
لماذا يرفض البعضُ «إصلاحا يمس أنظمتهم» من بين كل الواردات الأمريكية التي ظلت مرحبا بها لعشرات السنين. لعقود طويلة استجاب العرب لكل المطالب الأمريكية: عندما طلبوا سلاما مع إسرائيل، أتيناها «هرولة» - حسب التعبير الشهير لعمرو موسى - بعد أن أعلنا أكتوبر آخر الحروب، وعندما نادوا بتعميم الرأسمالية، فتح الاشتراكيون أسواقهم ورفعوا الدعم وباعوا قطاعهم العام وبدأوا خصخصة التعليم. وعندما قرروا كسر السوفيات في أفغانستان، شحن العرب أبناءهم إلى هناك، ليعودوا «بألغام في الدماغ ومتفجرات في الحقيبة».. لماذا الآن فقط نتذكر أن «الإصلاح مطلب أمريكي»؟!

أسئلة .. وأسئلة .. و«طرقات قلم» على الطاولة.

أيمـــن الصيـــاد



أحدث الاصدارات من
دار الشروق
غسل الأموال
اليهود واليهودية والصهيونية
الانفجار ١٩٦٧
سنوات الغليان
الجريمة المنظمة عبر الوطنية
ملفات السويس
السلاح والسياسة
الخرز الملون
العالم الإسلامي في عصر العولمة
قوم لا يتطهرون
قصص صغيرة
د. محمد كامل حسين
ابن القرية والكتّاب
ملامح سيرة ومسيرة
الدكتور يوسف القرضاوي
محمد
الحقيقة والافتراء في سيرته
تاج العارفين
الجنيد البغدادي
المواطنة والعولمة
تطلب من
دار الشروق، ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ ومكتبة الشروق، ١ ميدان طلعت حرب تليفون، ٣٩١٢٤٨٠
ومكتبة الشروق، مبنى فرست أمام حديقة الحيوان ٣٥ ش الجيزة محل رقم ١٩ تليفون، ٥٧٣٥٠٣٥
كما يمكنكم شرائها إلكترونيا www.e-kotob.com


We share the same hopes ... same vision
... same aspirations
We choose to
COMMUNICATE
as long as we live
Orascom Telecom owns strong networks regionally providing GSM services along with other communication services. It operates in Egypt, Algeria, Tunisia, Pakistan, Iraq and other African countries including Congo Brazzaville, Democratic Republic of Congo and Zimbabwe.
And now in Bangladesh.
over
10 Million
subscribers
ORASCOM
TELECOM
The Communication Community of the Middle East
www.orascomtelecom.com
ADVISION


خدمات إلكترونية فريدة
الخدمة المصرفية عبر الإنترنت
ARAB BANK
تعامل على حسابك بأمان
فى أي وقت ومن أى مكان
خدمة البنك المحمول
البنك العربي
ARAB BANK
خدمة مصرفية محمولة
على مدار ٢٤ ساعة
داخل وخارج مصر
خدمة البنك الناطق
تعامل على حسابك
آليا فى اى وقت
من خلال رقم ٣٠٣٢٦٦٠
خدمة الصراف الآلى
خدمة تقبل جميع انواع
البطاقات مع توفير
السحب بالدولار للعملاء
RESALA
وتمتع بإمكانية
الإقتراض
إصدار بطاقات البنك العربى
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفية عربية
ARAB BANK
إتصل الآن على ١٩١٠٠ أو ٣٣١٩٩٢٢
يومياً من ٩ صباحاً حتى ٩ مساءً
www.arabbank.com